الأطفال الخمسة وعفريت الرمال

إديث نسبيت



الأطفال الخمسة وعفريت الرمال

تأليف
إديث نسبيت

ترجمة
صلاح عبد العزيز مفتاح

مراجعة
هاني فتحي سليمان



الأطفال الخمسة وعفريت الرمال

إديث نسبيت

Five Children and It

E. Nesbit

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: أحمد رحمي.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٢٩٥ ٠

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٠٢
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١

المحتويات

إهداء إلى جون بلاند

حَمَلي الوديع، كم أنتَ صغيرٌ جدًّا!
ولم تتعلَّم القراءة مطلقًا.
ومع ذلك، لا يصمد أيُّ كتابٍ مطبوع
من يديك التوَّاقتَين ذواتَي الغمازات.
هذا الكتاب هو لك ولكن
فلتُعطِه لأمك كي تحتفظ به فوق الرَّف
إلى أن تستطيع القراءة، مع مرور الأيام،
وما أسرع أن يأتي ذلك اليوم، وا أسفاه!

الفصل الأول

في غاية الجمال

كان المنزل على بُعد ثلاثة أميالٍ من المحطة، لكن قُبَيل انطلاق العربة المستأجَرة التي كان يعلوها الغبار بخمس دقائق، بدأ الأطفال يُطلُّون برءوسهم من نافذتها قائلين: «ألم نوشِك على الوصول بعدُ؟» وكلما مرُّوا بأحد المنازل — وهو أمر لم يكن يتكرر كثيرًا — كانوا جميعًا يقولون: «مَرحى! أهذا هو المنزل؟» لكن في كل مرة لم يكن هو المنزل المقصود، حتى وصلوا إلى قمة التل، بعد اجتياز مَحجرٍ طباشيري مباشرةً وقبل الوصول إلى حُفرة الحصى؛ إذ كان ثَمَّةَ منزلٌ أبيض به حديقةٌ خضراء ويمتدُّ من خلفه بستانُ فاكهة، قالت الأم: «ها نحن قد وصلنا!»

قال روبرت: «ما أشدَّ بياض هذا المنزل!»

قالت أنثيا: «وانظروا إلى جمال الزهور!»

قالت جين: «وإلى ثمار البرقوق!»

قال سيريل موافقًا: «ما أجملها!»

قال الصغير: «أريد أن أمشي.» وتوقفَتِ العربة مع آخر صوتِ قعقعةٍ واهتزازٍ لها.

تعرَّض الجميع للركل وداس بعضهم أقدامَ بعضٍ في تدافُعهم للنزول من العربة، لكن لم يبدُ أن أحدًا يبالي، إلا أن الأم وعلى نحوٍ يدعو إلى الاستغراب لم تكن على عجلةٍ من أمرها، بل إنها حتى وهي تنزل بتمهُّلٍ وبخطواتٍ هادئةٍ دون أن تقفز، بدَت أنها تحبِّذ معاينة نقل الصناديق من العربة إلى المنزل، وأن تدفع أجرة السائق، بدلًا من الانضمام إلى المجموعة المستمتعة بالجمال المنطلقة لتجوبَ أرجاء الحديقة والبستان والبرِّية الوعْرة، الكثيرة الأشواك والنباتات الكثيفة غير المشذَّبة، الممتدة وراء البوابة المكسورة والنافورة الجافَّة التي بجانب المنزل، ولكن الأطفال كانوا أكثر حكمة، هذه المرة، ولم يكن المنزل

جميلًا في الحقيقة، بل كان منزلًا عاديًّا جدًّا، وكانت الأم ترى أنه لن يكون مريحًا على الأرجح، وتضايقَت جدًّا لخلوِّه من رفوفٍ تُذكر، وخلوِّه من أي خزانة. لقد اعتاد الأب أن يقول إن الأعمال الحديدية على السطح والواجهة تُعدُّ بمثابة كابوس لأي مهندسٍ معماري يراها، لكن المنزل كان في عمق الريف، ولم يكن هناك أي منزلٍ آخر في الأفق، وكان الأطفال قد مكثوا في لندن زُهاء عامَين، دون أن يذهبوا إلى البحر على الإطلاق حتى وإنْ ليومٍ واحدٍ في نزهة بالقطار، وهكذا بدا لهم المنزل الأبيض كقصرٍ خرافيٍّ في جنةٍ دنيوية؛ وذلك لأن لندن أشبهُ ما تكون بسجن للأطفال، لا سيَّما لو كان أهلهم ليسوا أثرياء.

بالطبع هناك متاجر ومسارح، وعروض «ماسكِلين وكوك» السحرية، وأشياءُ أخرى، ولكن إن كنت تنحدر من أسرة فقيرة فلن يمكنك الذهاب إلى المسارح، ولن يمكنك شراء الاحتياجات من المتاجر؛ ولا يوجد في لندن أيٌّ من تلك الألعاب اللطيفة التي قد يلعب بها الأطفال دون الإضرار بها أو بأنفسهم، مثل الأشجار والرمال والغابات والمياه، وفي لندن يبدو كلُّ شيءٍ في هيئةٍ خاطئة؛ فكلُّ الخطوط مستقيمة وكل الشوارع مستوية، بدلًا من أن تكون متنوعة الأشكال والهيئات، كحال الأشياء الموجودة في الريف؛ فجميع الأشجار مختلفة الأطوال والأشكال، كما تعلمون، وأنا على ثقة من أن شخصًا مملًّا ربما قد أخبركم أن أنصال الأعشاب غير متماثلة تمامًا، بعكس الشوارع التي لا ينمو فيها العشب؛ حيث كل شيء فيها يشبه بعضه بعضًا؛ هذا هو السبب في أن الكثير من الأطفال الذين يعيشون في المدن أشقياءُ للغاية ولا أحد يعرف علتهم، ولا حتى آباؤهم ولا أمهاتهم يعرفون ذلك، ولا خالاتهم، ولا عماتهم، ولا أعمامهم، ولا مدرسوهم، ولا مربياتهم، ولا ممرضاتهم؛ لكنني أعرف، وها أنتم الآن صرتم تعرفون السبب، كما أن الأطفال في الريف مشاغبون أحيانًا أيضًا، لكن ذلك يرجع لأسبابٍ مختلفة تمامًا.

استكشف الأطفال الحدائق والمرافق الخارجية للمنزل جيدًا قبل أن يُنادى عليهم كي يدخلوا ويُنظِّفوا أنفسهم قبل تناوُل الشاي. لقد أصبحوا على يقين بأنهم سيكونون سعداء في المنزل الأبيض، وقد كان هذا ما يظنُّونه منذ اللحظة الأولى، ولكن عندما وجدوا الجزء الخلفي من المنزل مغطًّى بزهور الياسمين البيضاء، وتنبعث منه رائحةٌ تشبه رائحة أغلى زجاجة عطر على الإطلاق تُهدَى في عيد ميلاد؛ ورأَوا المَرْج البالغ الخضرة والنعومة، والذي يختلف تمامًا عن العشب البني الموجود في حدائق بلدة كامدن؛ ووجدوا الإسطبل ذا الدور العلوي والذي لا يزال فيه بعض القش القديم، صدَق ظنهم وباتوا على يقين من سعادتهم؛ وتلاشَت أي شكوكٍ لديهم في أنهم سيسعدون، وذلك عندما عثر روبرت على

الأرجوحة المكسورة وسقط منها وأُصيبَ جراء ذلك بتورُّم في رأسه بحجم البيضة، وعندما عَلقَت إصبع سيريل في باب القفص الذي كان مُعدًّا على ما يبدو للاحتفاظ بالأرانب داخله، تورَّمت إصبعه.

أفضل جزءٍ في ذلك كله هو أنه لا تُوجد أيُّ قواعد تفرض عدم الذهاب إلى أماكن بعينها وعدم فعل أشياء بعينها؛ ففي لندن، كل شيء تقريبًا موسومٌ بوجوب عدم اللمس وحتى إن كان هذا غير مُعلَن، فهو بالدرجة نفسها من السوء؛ لأنكم تعرفون أن التحذير قائم، وإن لم تكونوا تعرفون، فسرعان ما سيخبرونكم.

كان المنزل الأبيض مطلًّا على حافةِ تل، ومن خلفه غابة، وعلى جانبيه المحجر الطباشيري من جهة وحفرة الحصى من جهةٍ أخرى، وفي أسفل التل كان هناك سهلٌ مستوٍ، فيه مبانٍ بيضاء ذات أشكالٍ غريبة اعتاد الناس أن يحرقوا فيها الجير، وبه مصنع جعةٍ أحمرُ كبير بالإضافة إلى منازلَ أخرى؛ وعندما كان الدخان يتصاعد من المداخن العالية وكانت الشمس تميل إلى الغروب، بدا الوادي وكأنه ممتلئٌ بالضباب الذهبي، وتلمع فيه الأحجار الكلسية وأفران الجير فيما يبدو لك وكأنه مدينةٌ ساحرة خرجت من قصص ألف ليلة وليلة.

والآن وقد فرغتُ من وصف المكان، أشعر أنه باستطاعتي المضي قدمًا في تأليف قصةٍ أكثر تشويقًا حول كل الأشياء المعتادة التي فعلها الأطفال — كتلك الأشياء المعتادة التي تفعلونها أنتم أنفسكم — ولن تجدوا بدًّا من تصديق كل كلمة منها؛ ولو قلتُ إن الأطفال مزعجون، كما تكونون في بعض الأحيان، ربما ستكتب عماتكم في هامش القصة بقلم رصاصٍ تصديقًا على كلامي: «ذلك يحدث بالفعل!» أو «ما أشبه هذا بالحقيقة!» وسترَوْن ذلك وسيصيبكم الانزعاج على الأرجح؛ لذلك سأكتفي فقط بأن أخبركم بالأشياء المذهلة التي حدثت بالفعل، وقد تتركون الكتاب بأمانٍ تمامًا؛ لأنه من غير المحتمل أن تكتب عماتكم أو أعمامكم: «ذلك يحدث بالفعل!» على هامش القصة؛ فالكبار يجدون صعوبةً بالغةً في تصديق الأشياء العجيبة بالفعل، ما لم يكن هناك ما يُسمُّونه دليلًا على حدوثها، لكن الأطفال سوف يُصدِّقون أي شيء تقريبًا، والكبار يعرفون هذا؛ لذا يخبرونكم أن الأرض مستديرة كالبرتقالة، بينما ترَوْن بأم أعينكم أنها مُسطَّحة ووعرة، ولذا يقولون لكم أيضًا إن الأرض تدور حول الشمس، بينما يمكنكم أن ترَوْا بأنفسكم في أي يوم أنها تشرق في الصباح وتخلد إلى النوم ليلًا كما ينبغي لها، بينما لا تبرح الأرض مكانها مثل فأرٍ ساكن في مكانه، لكنني أستطيع القول إنكم تُصدِّقون كل ما قلته حول الأرض والشمس، وإذا كنتم

تصدِّقون ذلك فستجدون أنه من السهل عليكم أيضًا أن تصدِّقوا أنه قبل مضيِّ أسبوعٍ على قدوم أنثيا وسيريل والآخرين إلى القرية كانوا قد عثروا على عفريت. لقد أطلقوا عليه هذا الاسم لأنه عرَّف نفسه بذلك على الأقل؛ وبالطبع كان هو أعلم بنفسه، لكنه لم يكن مثل أي عفريت رأيتموه أو سمعتم به أو قرأتم عنه على الإطلاق.

لقد وجدوه في حُفْرة الحصى، كان قد توجَّب على الأب أن يسافر بعيدًا في رحلة عمل مفاجئة، كما ذهبَت الأم لرعاية الجدة، التي لم تكن على ما يُرام، ذهب الاثنان متعجِّلين، وعندما غادرا، بدا المنزل هادئًا وفارغًا، يتجوَّل فيه الأطفال من غرفةٍ إلى أخرى يتأمَّلون في أجزاء الورق والخيوط على الأرضيات التي خلَّفتْها الحقائب والعبوات، والتي لم تكن قد نُظِّفت بعد، وتمنَّوا لو أن لديهم شيئًا يُمكنهم القيام به، وكان سيريل هو من قال:

«أقول لكم، دعونا نأخذ المجاريف ونذهب لنحفر في حفرة الحصى، يمكننا أن نتظاهر بأننا على شاطئ البحر.»

قالت أنثيا: «قال لي أبي إنها كانت بحرًا ذات يوم، وإن هناك أصدافًا عمرها آلاف السنين.»

وهكذا ذهبوا، بالطبع كانوا قد سبق أن وصلوا إلى حافة حفرة الحصى ونظروا إليها، لكنهم لم يذهبوا إليها خشية أن ينهاهم الأب عن اللعب هناك، ونفس الأمر بالنسبة إلى المحجر الطباشيري، لم تكن حفرة الحصى خطرةً حقًّا إذا كنت لا تحاول النزول إليها من الحواف، بل عليك السير بحذرٍ وبطريقةٍ آمنةٍ على الطريق، كما لو كنت عربةً يجرها حصان.

حمل كلٌّ واحد من الأطفال جاروفَه الصغير، وتناوبوا على حَمْل الحَمَل الصغير (أخيهم الأصغر) أطلقوا عليه لقب الحَمَل الصغير؛ لأن أول ما تلفَّظ به كان صوت الحَمَل «مَاء»، كما أطلقوا على أنثيا لقب «بانثر» (النَّمِرة) وهو ما يبدو سخيفًا عند قراءته، ولكن عند نطقه يصبح قريبًا من نطق اسمها الحقيقي.

كانت حفرة الحصى كبيرةً جدًّا وواسعة، وتنمو الأعشاب والأزهار البرية الجافة ذات اللون الأرجواني والأصفر حول حوافها العليا، كانت تشبه حوضًا عملاقًا لغسل الأيدي، كما كان هناك تلالٌ من الحصى، وتجاويفُ على جانبَيِ الحفرة التي أُخرج منها الحصى، وفي أعالي الجانبين الشديدَي الانحدار تُوجَد فجواتٌ صغيرةٌ هي المداخل الأمامية الصغيرة لأعشاش طيور سُنُونو الرمل الصغيرة.

لقد شيَّد الأطفالُ قلعةً — بالطبع — ولكنَّ بناءَ القلاعِ يخلو من المتعة إلى حدٍّ ما عندما تكون فاقدًا الأمل في أن موجات المد والجزر ستأتي في أي وقتٍ لملء الخندق وغمر جسره المتحرك، لتأتي النهاية السعيدة بأن يبتلَّ الجميع حتى الخصر على الأقل.

أراد سيريل حفْرَ كهفٍ ليلعبوا فيه لعبة الاختباء كالمهرِّبين، لكن البقية اعتقدوا أنه قد يدفنهم أحياء؛ لذا فقد انتهى الأمر بأن تتضافر كل المجاريف لحفر حفرة من القلعة إلى أستراليا. يعتقد هؤلاء الأطفال كما ترى أن الأرض كروية، وأن الفتيان والفتيات الصغار الأستراليين على الجانب الآخر يمشون بطريقةٍ معكوسة، كما يمشي الذباب على السقف، أرجلهم للأعلى ورءوسهم مُعلَّقة في الهواء.

أخذ الأطفال يحفرون ويحفرون ويحفرون، حتى صارَت أيديهم بلونِ الرمل واحمرَّت من سخونته، وغدَت وجوههم رطبةً ولامعة، وأكل الحَمَل الصغير من الرمل، وبكى بشدةٍ عندما وجد أنه لم يكن — كما كان يظن — سُكَّرًا بُنيًّا. لقد أصبح الآن متعبًا، فاستسلم للنعاس على نتوءٍ وثير من الرمال الدافئة وسط القلعة غير المكتملة البناء. سمح هذا لإخوته وأخواته بالعمل الجاد، وسرعان ما أصبح الثقْب الذي كان سيوصل إلى أستراليا عميقًا لدرجة أن جين، التي كانوا يُكنونها باسم «بوسي»، توسَّلت إلى بقيتهم أن يتوقفوا عن الحفر.

قالت: «لنفترض أن قاع الحفرة قد أفضى إلى الجانب الآخر فجأةً وسقطتم وسط الأستراليين الصغار، فسيدخل كل الرمل في أعينهم.»

أجابها روبرت: «أجلْ، وسيكرهوننا، ويقذفوننا بالحجارة، ولن يسمحوا لنا برؤية حيوانات الكنغر، ولا الأبوسوم، ولا نبات الصمغ الأزرق، ولا طائر الإيمو، ولا أي شيء.»

كان سيريل وأنثيا يعلمان أن أستراليا لم تكن قريبة بتلك الدرجة، لكنهما اتفقا على التوقُّف عن استخدام المجاريف والاستمرار في الحفر بأيديهما، كان هذا سهلًا للغاية؛ لأن الرمل الموجود في قاع الحفرة كان ناعمًا جدًّا ورقيقًا وجافًّا، مثل رمل البحر، وكانت ثَمَّةَ أصدافٌ صغيرةٌ بداخله.

قالت جين: «تخيَّلوا أن البحر بكل ما يحتويه كان هنا ذات يوم، مع الأسماك وأَنْقَلِيس البحر والشعاب المرجانية وحوريات البحر.»

قال سيريل: «وصواري السفن وحطام الكنز الإسباني. أتمنى أن نتمكَّن من العثور على دوبلون ذهبية (عملة إسبانية أثرية)، أو شيء من هذا القبيل.»

قال روبرت: «وكيف انجرف البحر بعيدًا؟»

قال شقيقه: «ليس في دلو، يا أبله، يقول أبي إن الأرض أصبحَت ساخنة للغاية من باطنها، مثلما يحدث لك في السرير تحت الغطاء أحيانًا؛ لذا فقد حدبت الأرض أكتافها تمامًا، فانزلق البحر مثل البطانيات التي نسقطها عن أكتافنا فتنكشف، وتحوَّل إلى أراضٍ جافة. دعونا نذهب لنبحث عن أصداف، أعتقد أن الكهف الصغير يبدو مكانًا جيدًا لنجدها فيه، وأرى شيئًا ما بارزًا هناك يبدو كمرساة لسفينةٍ محطمة، كما أن الجو حارٌّ للغاية في الحفرة الأسترالية.»

وافق الآخرون، لكن أنثيا تابعَت الحفر، كانت دائمًا تحبُّ أن تُنهيَ الأشياء ما دامت قد بدأتْها، كما شعرت أنه سيكون من العار تركُ هذه الحفرة دون الوصول إلى أستراليا.

كان الكهف مخيبًا للآمال؛ لأنه لم تكن به أصداف، واتضح أن مرساة السفينة المحطَّمة ليست سوى نهايةٍ مكسورة لمقبض مِعْول. واتفق الذين ذهبوا إلى الكهف على أن الرمال تجعلك أكثر عطشًا عندما لا تكون على شاطئ البحر؛ لذا فقد اقترح أحدهم العودة إلى المنزل لتناول عصير الليمون، وذلك عندما صرخَت أنثيا فجأة:

«سيريل! تعالَ إلى هنا! أوه، تعالَ بسرعة! إنه حي! سوف يفلت! بسرعة!»

عادوا كلهم مسرعين!

قال روبرت: «إنه فأر، بلا شك. يقول أبي إن الفئران تنتشر في الأماكن القديمة — وهذا المكان لا بد أن يكون قديمًا جدًّا — لو صحَّ أن البحر كان هنا منذ آلاف السنين.»

قالت جين وهي ترتجف: «ربما يكون ثعبانًا!»

قال سيريل وهو يقفز داخل الحفرة: «دعونا نكتشف؛ فأنا لا أخشى الثعابين، بل أحبها، ولو اتضح أنه ثعبانٌ فسأروِّضه ليكون حيواني الأليف، وسيتبعني في كل مكان أذهب إليه، وسأدعه ينام ملتفًّا حول رقبتي ليلًا.»

رفض روبرت بصرامة لأنه كان يتشارك مع سيريل الغرفة قائلًا: «لا، لن تفعل ذلك، ولكن سأسمح لك إن كان فأرًا.»

قالت أنثيا: «لا تكن أبله، لا يمكن أن يكون فأرًا، إنه أكبر بكثير من ذلك، وليس ثعبانًا أيضًا؛ فهو لديه قدمان، لقد رأيتهما، ولديه فراء، لا، لا تستخدموا المجاريف، ستجرحونه، بل احفروا بأيديكم.»

قال سيريل وهو ينتزع المجرفة: «وأتركه هو يجرحني بدلًا من ذلك! هذا هو المفترض أليس كذلك؟»

قالت أنثيا: «لا تفعل! أظنه سنجابًا، لا تفعل! ربما يبدو الأمر سخيفًا، لكنه قال شيئًا. إنني صادقة فيما أقول، لقد قال شيئًا ما.»

«ماذا قال؟»

«لقد قال: دعوني وشأني.»

لكن سيريل اعتقد بكل بساطة أن أخته لا بد أن تكون قد أُصيبت بالجنون، وأخذ هو وروبرت يحفران بالمجاريف بينما جلسَت أنثيا على حافة الحفرة، وظلَّت تقفز من الإثارة والقلق. لقد حفروا بحرص، والآن يمكن للجميع أن يرَوْا أن هناك شيئًا ما يتحرَّك في قاع الحفرة الأسترالية.

ثم صرخَت أنثيا: «أنا لست خائفة. دعوني أحفر.» وهوَتْ على ركبتَيها وأخذَتْ تحفر بأظافرها مثلما يفعل الكلب عندما يتذكر فجأةً المكان الذي دَفن فيه عَظْمَتَه.

صرخت وهي ينازعها الضحك والبكاء قائلة: «يا للدهشة! لقد أحسستُ بفراء، لقد شعرتُ بذلك، بالفعل!» وفجأة صدر صوتٌ أجش من الرمال جعلهم يقفزون جميعًا للخلف، بالسرعة نفسها التي قفزت بها قلوبهم كذلك.

قال الصوت: «دعوني وشأني.» سمع الجميع الصوت الآن، ونظر بعضهم إلى بعض ليرَوْا إن كانوا كلهم سمعوه كذلك.

قال روبرت بشجاعة: «لكننا نريد أن نراك.»

قالت أنثيا متشجعة أيضًا: «أتمنى أن تخرج.»

قال الصوت: «حسنًا إن كانت هذه هي أمنيتكم.» ثم تحرَّك الرمل وتحدَّب وانقشع ليظهر من تحته شيءٌ بني اللون بدينٌ ذو فراء يتمايل خارجًا من الحفرة ويتساقط عنه الرمل، ثم جلس هناك يتثاءب ويُدلِّك عينَيه بيدَيه.

قال وهو يتمطى: «أعتقد أنني استغرقتُ في النوم.»

تحلَّق الأطفال حول الحفرة، وهم ينظرون إلى المخلوق الذي اكتشفوه. لقد كان جديرًا بالمشاهدة؛ فعيناه كانتا مرفوعتَين على قرنَين مثلما الحال مع الحلزون، وكان يمكنه تحريكهما للداخل والخارج كالتلسكوب، فيما أشبهت أذناه أذنَي الوطواط. وبدا جسمه كجسم العنكبوت مكسوًّا بفراءٍ كثيف ناعم. كما غطى الفراء رجلَيه وذراعَيه. كانت يداه وقدماه أشبه بيدَي وقدمَي قردٍ.

قالت جين: «ماذا يكون هذا بحق الله؟! هل سنأخذه معنا إلى المنزل؟»

نظر المخلوق إليها بعينَيه المرفوعتَين على قرنَين طويلَين قائلًا: «هل دائمًا ما تتكلم بهذا الهراء، أم إن تلك القمامة التي على رأسها هي سبب بلاهتها؟»

كان يتكلم وهو ينظر إلى قُبعة جين بازدراء.

قالت أنثيا بلطف: «هي لم تقصد أن تكون سخيفة، ولا أحدٌ منا يقصد ذلك، مهما كان ظنك! لا تخف فنحن لا نريد أن نؤذيك.»

قال: «تؤذونني! أنا أخاف؟! هل أنتِ جادة؟ لماذا تتحدثين وكأني نكرة؟» وانتصب شعر فرائه كما لو كان قطًّا يستعد للمشاجرة.

قالت أنثيا بطيبة: «حسنًا، ربما لو عرفنا من أنت بالتفصيل لتمكنَّا من الحديث معك بطريقةٍ لا تدفعك إلى الغضب؛ فكل شيء قلناه يبدو أنه يفعل ذلك، فمنْ أنت؟ ولا تغضب من سؤالي! لأننا لا ندري بصدق.»

قال: «ألا تدرون؟ حسنًا أنا أعلم أن العالَم قد تغيَّر، لكن أتحاولين بحقٍّ أن تخبريني أنكِ بصدقٍ لا تعرفين «السامياد» عندما ترَيْن أحدَهم؟»

«السامياد، هذا الاسم يبدو لي إغريقيًّا.»

قال المخلوق بحدة: «وهكذا يبدو للجميع، حسنًا بالإنجليزية الواضحة يعني عفريت الرمال، ألا تعرفون عفريت الرمال إذا رأيتموه؟»

بدا عليه الحزن والألم لدرجة أن جين سارعَت إلى القول: «بالطبع أنا أراك على هذا النحو الآن. إنه أمرٌ عادي تمامًا الآن أن يدرك المرء أنه ينظر إليك.»

قال بغضب وهو يتوغل في الرمل مرةً أخرى: «أنتم تنظرون إليَّ وتتجاذبون معي أطرافَ الحديث منذ فترة، ومع ذلك لم تعرفوني.»

صرخ روبرت: «لا تذهب مرةً أخرى، تحدَّث إلينا أكثر، لم أعرف أنك عفريت رمال، لكنني علمت فورًا عندما رأيت أنك أروع شيءٍ وقعتْ عينِي عليه في حياتي.»

بدا عفريت الرمال أقل تضايقًا بعد ذلك.

وقال: «لا أقول إني أمانع التحدُّث إليكم، ما دمتم مهذَّبين كما ينبغي، لكنني لن أحدِّثكم بالطريقة نفسها، فإذا تحدَّثتم معي بلياقة، ربما أجبتُكم، وربما لا، والآن فلتقولوا شيئًا.»

بالطبع لم يكن لدى أيٍّ منهم شيءٌ ليقوله، لكن روبرت أخيرًا فكَّر وسأله على الفور قائلًا: «كم لبثتَ في هذا المكان؟»

رد عفريت الرمال قائلًا: «ياه! منذ دهور، عدة آلاف من السنين.»

«أخبِرنا عنها، هيا افعل.»

«كلها مذكورة في الكتب.»

قالت جين: «لكنك غير مذكور بها، أوه، أخبرنا بكل ما تستطيع عن نفسك! فنحن لا نعرف أي شيء عنك، وأنت لطيفٌ للغاية.»

مسَّد عفريت الرمال شاربَيه الطويلَين اللذَين يشبهان شوارب الفئران وتبسَّم ثغره من بينهما.

قال الأطفال في صوتٍ واحد: «أرجوك أخبرنا.»

إنه لأمرٌ رائع أن تعتادوا على الأشياء سريعًا، حتى على أكثرها إثارة للدهشة؛ فقبل خمس دقائق، لم يكن ما يعلمه الأطفال عن أن هناك ما يُدعى عفريت الرمال في العالم يفوق ما تعرفونه، والآن صاروا يتحدَّثون إليه وكأنهم يعرفونه طوال حياتهم.

غطَّى عينَيه وقال: «يا له من يومٍ مشمس، تمامًا كما في الأيام الخوالي، من أين تحصلون على حيوان الميجاثيريم الآن؟»

قال الأولاد معًا: «ماذا؟» من الصعب دائمًا تذكُّر أن كلمة «ماذا» ليست مهذبة، لا سيما في لحظات المفاجأة والانفعال.

استأنف عفريت الرمال حديثه قائلًا: «هل ديناصور البتيروداكتيلوس الطائر موجود بكثرة هذه الأيام؟»

لم يستطع الأطفال الإجابة.

قال عفريت الرمال باستعجال: «ماذا لديكم للفطور؟ ومن يعطيكم إياه؟»

«بيض ولحم خنزير مقدَّد، وخبز وحليب، وعصيدة وأشياءُ أخرى، وأمُّنا هي من تعطينا إياه، ما هو الميجا ... ما اسمه؟ والبتيرو ... بماذا تدعوه؟ وهل يتناولها أحد على الإفطار؟»

«لماذا؟ كان الجميع تقريبًا لديهم بتيروداكتيلوس على الإفطار في زمني! البتيروداكتيلوس كانت طيورًا تشبه التماسيح — أظن أنها كانت طيبة المذاق حين تُشوى. حسنًا، كانت بذلك الشكل: بالطبع كانت هناك أعدادٌ كبيرة من عفاريت الرمال في ذلك الوقت، وكنتم في الصباح الباكر تخرجون وتبحثون عنهم، وإذا عثرتم على أحدهم كان يحقق لكم أمنية. واعتاد الناس إرسال أولادهم الصغار إلى شاطئ البحر في الصباح الباكر قبل الإفطار للحصول على أمنيات اليوم، وفي كثير من الأحيان سيُطلب من الصبي الأكبر في العائلة أن تكون رغبته الحصول على بتيروداكتيلوس جاهز للطهي. كان كبيرًا مثل الفيل؛ ولذلك كان يحتوي على قدْرٍ كبير من اللحم. وإذا أرادوا السمك فسيتمنَّوْن إكتيوسوروس — كان طوله يتراوح ما بين عشرين قدمًا وأربعين قدمًا؛ لذا كان هناك الكثير منه. وبالنسبة إلى الدواجن كان هناك بليسيوسوروس. كانت ثَمَّةَ اختياراتٌ كثيرة؛ ومن ثمَّ كان بمقدور الأطفال تمنِّي أشياءَ متنوعة، ولكن عندما كان الناس يقيمون حفلات

العشاء، كان هناك دائمًا الميجاثيريم والإكتيوسوروس، حيث كانت زعانف الأخير شهية المذاق كما كان يُصنع من ذيله الحَسَاء.»

قالت أنثيا التي كان مقدرًا لها أن تكون مدبرةَ منزلٍ جيدة يومًا ما: «لا بد أنه كانت هناك أكوام وأكوام من اللحوم المتبقية بعد تلك الحفلات.»

قال عفريت الرمال: «لا لا، هذا ما كان ليحدث؛ لأنه بالطبع عند غروب الشمس، يتحوَّل ما تبقى إلى حجارة، ويمكنكم العثور على عظام الميجاثيريم الحجرية وتلك الأشياء باقية في كل مكانٍ من حولنا حتى الآن، كما قيل لي.»

قال سيريل: «من الذي أخبرك بذلك؟» لكن عفريت الرمال غضب وأخذ يحفر في الأرض بسرعة بيدَيه المكسُوَّة بالفِراء.

صرخوا جميعًا: «لا تذهب، أخبرنا بالمزيد عن الزمان الذي كان يُتناوَل فيه الميجاثيريم كوجبة إفطار! هل كان العالَم مثلما هو عليه الآن؟»

هنا توقف عفريت الرمال عن الحفر.

قال: «لا على الإطلاق، لقد كان المكان الذي عشتُ فيه كله رمال، وكان الفحم ينمو على الأشجار، وكانت الحلزونات كبيرة مثل أكواب الشاي — تجدونها الآن قد تحوَّلت إلى حجارة. كنا نحن عفاريت الرمال نعيش على شاطئ البحر، وكان الأطفال يأتون بمجاريفهم ودلائهم الحجرية ويصنعون القلاع لنا لكي نعيش فيها، ومع أن ذلك كان منذ آلاف السنين، فإنني أسمع أن الأطفال لا يزالون يبنون القلاع على الرمال، فمن الصعب أن يتخلص المرء من عاداته.»

قال روبرت: «ولماذا لم تعد تسكن على شاطئ البحر؟»

قال عفريت الرمال: «إنها قصةٌ حزينة؛ حدث ذلك لأنهم كانوا يبنون خنادق للقلاع، وكان البحر الشرير البارد يتسرَّب إلينا ماؤه، وبالطبع بمجرد أن يصبح عفريت الرمال مبللًا، فقد يصاب بنزلة برد، وغالبًا ما يموت، وهكذا أخذت أعدادنا تتناقص. وكلما وجدتم عفريت رمال وكانت لديكم أمنية، كنتم ترغبون في الحصول على الميجاثيريم، وتناول الطعام بالكمية التي ترغبون فيها؛ لأن الأمر قد يستغرق أسابيع قبل أن تُحقق لكم أمنيةٌ أخرى.»

قال روبرت متسائلًا: «وهل أُصبتَ بالبلل؟»

ارتعد عفريت الرمال قائلًا: «مرةً واحدة فقط ابتلَّت نهاية الشعرة الثانية عشرة من شاربي الأيسر من أعلى. أشعر أن المكان ما زال رطبًا. حدث ذلك مرةً واحدة فقط، لكنها

كانت كافيةً لي. ابتعدتُ وبمجرَّد أن جفَّفَت الشمس شعري العزيز المسكين. هرعتُ بعيدًا إلى الجزء الخلفي من الشاطئ، وحفرتُ لنفسي منزلًا عميقًا في الرمال الجافة الدافئة، ومكثتُ فيها منذ ذلك الحين. ثم غيَّر البحر مكانه في النهاية. والآن لن أخبركم بشيءٍ آخر.»

قال الأطفال: «سؤالٌ أخير من فضلك، هل ما زال في إمكانك تحقيق الأمنيات الآن؟»

«بالطبع، ألم أحقِّق لكم أمنيتكم منذ دقائق، عندما قلتم نتمنَّى أن تخرج، وقد خرجت.»

«أرجوك، ألا يمكننا طلب أمنيةٍ أخرى؟»

«نعم، لكن أسرعوا في طلبها، فلقد سئمتُ منكم.»

أحسب أنك كثيرًا ما فكرت فيما كنت ستطلبه إذا مُنحتَ ثلاث رغبات لتحقيقها، مزدريًا رأي الرجل العجوز وزوجته في قصة البودنج الأسود، وأنك شعرتَ بثقتك، أنه إذا مُنحت الفرصة، فسيكون بمقدورك التفكير في ثلاثِ رغبات نافعة على الفور دون تردُّد. كثيرًا ما تحدَّث هؤلاء الأطفال عن هذا الموضوع، لكن الآن وقد أُتيحت لهم الفرصة فجأة، لم يتمكنوا من إعمال أذهانهم.

قال عفريت الرمال بانفعال: «أسرعوا.» لكن ما من أحدٍ استطاع أن يفكر في شيء، فقط أنثيا هي التي استطاعت أن تتذكر رغبةً خاصة بها وبجين والتي لم يخبروا بها الأولاد قبل ذلك؛ لأنها أدركَت أن الأولاد لن يكترثوا بها، لكنها أفضل من ألا يطلبوا أي شيء.

قالت متعجلة: «أتمنى أن نصبح غاية في الجمال!»

نظر الأطفال بعضهم إلى بعض، ولكن رأى كلُّ واحدٍ منهم أن الآخرين لم يتحسَّن مظهرهم عن المعتاد. لقد دفع عفريت الرمال عينَيه إلى الخارج، وبدا وكأنه يحبس أنفاسه ويتضخَّم إلى أن صار ضِعْفَي حجمه السابق. وفجأة أرسل أنفاسه وتنهَّد.

قال بحزنٍ: «يُؤسفني بحقٍّ أنَّني لن أستطيعَ تحقيقَ رغبتك، لا بد أنني أحتاج تدريبًا.»

بدا أن الأولاد أُصيبوا بخيبة أملٍ مريعة!

قالوا: «أوه، حاول مجددًا.»

قال عفريت الرمال: «حسنًا، في الحقيقة كنتُ أحتفظ ببعض القوَّة من أجل تحقيق الرغبات الثلاث، فلو أنَّكم تراضَيْتم فيما بينكم على رغبةٍ واحدة، فيمكنني أن أقول إنني سأعمل جاهدًا على تحقيقِها، هل توافقون على ذلك؟»

قالت جين وأنثيا: «نعم، نعم!» بينما أومأ الولدان موافقَيْن؛ فلم يكونا يعتقدان أن عفريت الرمال بإمكانِه تحقيقُ الأمنيات. يمكنك دومًا أن تجعل الفتيات يصدقْنَ شيئًا ما أسرع من الأولاد.

فتح عفريت الرمال عينَيه عن آخرهما، وانتفخ وانتفخ وانتفخ.

قالت أنثيا: «أرجو ألَّا يؤذيك ذلك.»

قال روبرت قلقًا: «أو يُشقِّق لك جِلدَك.»

شعر الجميع براحةٍ كبيرةٍ عندما أُطلق عفريت الرمال أنفاسه وعاد إلى حجمه السابق بعد أن كان منتفخًا حتى كاد أن يملأ الفجوة التي في الرمال!

قال عفريت الرمال: «لا بأس بذلك، سيغدو الأمر غدًّا أيسر.»

سألَته أنثيا: «هل كان مؤلمًا للغاية؟»

«فقط كان مؤلمًا لشاربي المسكين، شكرًا لسؤالِك، أنتِ فتاةٌ طيبة وحسنة الاهتمام بالآخرين، يومًا سعيدًا.»

وفجأةً أخذ يحفر بيدَيه وأرجله بقوة، واختفى في الرمال. عند ذلك نظر الأطفال إلى بعضهم البعض، وفوجئ كلٌّ منهم بكونه وحيدًا مع ثلاثة غرباء تمامًا، كلهم فائقو الجمال.

وقفوا لبعض اللحظات في صمتٍ تام. اعتقد كلٌّ منهم أن إخوانه وأخواته قد فُقدوا، وأن هؤلاء الأطفال الغرباء قد تسلَّلوا خُلْسةً دون أن يلاحظهم أحد أثناء مشاهدتهم مشهدَ انتفاخِ عفريت الرمال. تحدثَت أنثيا أولًا.

وجَّهت كلامها بأدبٍ بالغ لجين — التي لديها الآن عينان زرقاوان وظلة من الشعر الأصهب — قائلة «من فضلك، هل رأيتِ ولدينِ وفتاةً صغارًا في أي مكان؟»

قالت جين: «كنتُ على وشك طرح السؤال ذاته عليكِ.» عند ذلك صرخ سيريل قائلًا:

«يا للهول! إنه أنت! عرفتُكِ من النقرة التي في ثوبك، أنتِ جين! أليس كذلك؟ وأنتِ النَّمِرة، يمكنني رؤية منديلكِ الملطَّخ بالدماء الذي نسيتِ تغييرَه بعد أن جُرحت إبهامك، يا إلهي! لقد تحقَّقت هذه الأمنية رغم كل شيء، أقول لكم: هل صرتُ وسيمًا كما صِرتُن جميلات؟»

قالت أنثيا مؤكِّدة: «إذا كنتَ سيريل، فقد أعجبني أكثر شكلك السابق؛ فأنت تبدو نسخة من أحد شباب الجوقة، بشعرك الذهبي هذا؛ سوف تموت وأنت لا تزال شابًّا، دون ريب. وإذا كان هذا هو روبرت، فهو يبدو كعازف أورجن يدوي إيطالي أسود الشعر.»

قال روبرت في غضب: «أنتما فتاتان تشبهان البنات المرسومات على بطاقات عيد الميلاد — هذا كل ما في الأمر — بطاقات عيد الميلاد السخيفة، وشعر جين يشبه الجزر تمامًا.»

كان هذا اللون، في الواقع، هو اللون الفينيسي الذي استحوذ على إعجاب الكثير من الفنانين.

قالت أنثيا: «لا فائدة من البحث عن عيوب كلٍّ منا، هيا بنا لنأخذ الحَمَل الصغير، ونذهب به إلى المنزل لنتناول الغداء، وسينال مظهرنا الجديد إعجاب الخادمات، وسترَوْن.»

كان الرضيع قد استيقظ لتوِّه عندما وصلوا إليه، وما من أحدٍ منهم إلا وشعَر بالارتياح عندما لم يجدوه في غاية الجمال الذي اكتسبوه بل ظلَّ كما هو على حاله.

وقالت جين: «أظن أن شكله لم يتغير؛ لأنه أصغر من أن يكون لديه رغباتٌ بطبيعة الحال.»

قالت أنثيا وهي تركض إلى الأمام وتمد إليه ذراعَيها:

«يجب أن نخصَّه بالذكر في المرة القادمة، تعالَ إلى حضْن نَمِرتك يا عزيزي.»

نظر الرضيع إليها باستغرابٍ شديد، ووضع إصبعه الوردي المغطَّى بالرمل في فمه. لقد كانت أنثيا أخته المفضَّلة.

قالت: «هيا، تعالَ إليَّ!»

قال الرضيع: «اذهبي بعيدًا.»

قالت جين: «تعالَ إليَّ، أنا بوسي.»

قال الرضيع في يأسٍ وقد ارتعدَت شفتاه: «أريد نَمِرتي.»

قال روبرت: «تعالَ إلى هنا أيُّها المحارب، تعالَ لنلعب معًا.»

تمتم الرضيع بكلمات تدل على الغضب وهو يبتعد عنهم جميعًا. عند ذلك علم الأطفال أسوأ ما في الأمر، وهو أن الرضيع لم يعرفهم!

نظروا إلى بعضهم البعض في حالة من اليأس، وكان أمرًا فظيعًا لكل واحدٍ منهم — في تلك الحالة الطارئة الوخيمة — أن ينظر في العيون الجميلة للغرباء المثاليين، بدلًا من العيون الصغيرة المرحة والودودة والمألوفة واللامعة والمبهجة لإخوانه وأخواته.

قال سيريل عندما حاول رفع الحَمَل الصغير فخدشه مثل القط وخار مثل الثور: «يا له من متوحش! علينا أن نكوِّن صداقة معه! فأنا لا أستطيع حَمْله وهو يصرخ بهذه الطريقة. لم أظن يومًا أننا سنحتاج إلى تكوين صداقاتٍ مع رضيعنا! — إنه أمرٌ سخيفٌ للغاية.»

على كل حال؛ فقد كان هذا بالضبط ما يتعيَّن عليهم القيام به. استغرق الأمر أكثرَ من ساعة، وما جعل المهمةَ أصعبَ حقيقةً أن الحَمَل الصغير كان في هذا الوقت جائعًا كالأسد وظامئًا كالصحراء.

وأخيرًا، وافقَ على السماح لهؤلاء الغرباء أن يحملوه إلى المنزل بالتناوب، ولكن عندما كان يرفض أن يتعلق بهؤلاء المعارف الجُدد كان وزنه يصير ثقيلًا ومُنهِكًا لأقصى درجة.

قالت جين وهي تدخل مترنِّحة عبر البوابة الحديدية حيث وقفتِ الخادمة مارثا عند الباب الأمامي مُظلِّلة بيدها على عينَيها وهي تنظر بقلق: «الحمد لله، ها قد عدنا إلى المنزل! هاكِ! خذي الرضيع!»

تلقَّفت مارثا الطفل من يدَيها. وقالت:

«شكرًا على إعادته سالمًا، لكن أين الباقون، ومن أنتم أيُّها الكرام اللطفاء؟»

قال روبرت: «نحن هم بالطبع!»

قالت مارثا بتهكُّم: «ماذا تقصدون بهُمْ؟ وبماذا تُسمَّوْن في بيوتكم؟»

قال سيريل: «أقول لكِ إننا نحن، غير أننا في غاية الجمال، أنا سيريل وهؤلاء هم الباقون. نحن نتضوَّر جوعًا فدعينا ندخل ولا تكوني سخيفةً حمقاء.»

لم تُبدِ مارثا غير الاحتقار لوقاحة سيريل وحاولَت أن تغلق الباب في وجهه.

قالت أنثيا: «أنا أعلم أننا نبدو مختلِفين، لكنني أنثيا، ونحن متعبون للغاية، وقد مرَّ وقتٌ طويلٌ على موعد تناول الغداء.»

قالت: «عودوا لبيوتكم إذن وتناولوا الغداء، أيًّا كانت أسماؤكم، ولو كان الأولاد هم من أرسلوكم لتقوموا بهذه التمثيلية، فيمكنكم إخبارُهم أنني سأنال منهم، وهم يعرفون ما سيكون في انتظارهم.» ثم أغلقَت الباب بقوة. دقَّ سيريل الجرس بعنفٍ، ولكن أحدًا لم يُجبْه، وفي التوِّ أخرجَت الطاهية رأسُها من نافذة حجرة النوم وقالت:

«إذا لم تغربوا بطلعاتكم البهية من هنا فسأستدعي لكم الشرطة.» وأغلقت النافذة بعنف.

قالت أنثيا: «لا فائدة، يا إلهي، لنذهب قبل أن يُزَجَّ بنا إلى السجن!»

قال الأولاد إن ذلك محضُ هُراء، وإن قانون إنجلترا لا يضع أحدًا بالسجن لكونه في غاية الجمال، ومع ذلك فقد تبع بعضهم بعضًا مبتعدين عن المنزل إلى الطريق الضيق.

قالت جين: «أظن أننا سنعود لهيئتنا بعد غروب الشمس.»

قال سيريل بحزن: «لا أعرف، قد لا يكون الأمر كذلك الآن — لقد تغيرت الأمور كثيرًا منذ عصور الميجاثيريم.»

صرخَت أنثيا فجأة قائلةً: «يا إلهي، ربما سنتحول إلى أحجار عند غروب الشمس، مثلما فعلت الميجاثيريم، بحيث لا يتبقى أيٌّ منا في اليوم التالي.»

وبدأَت في البكاء، وكذلك فعلَت جين. حتى الأولاد بدا عليهم الشحوب. ولم يعد أحدٌ لديه الرغبة في أن يقول شيئًا.

كانت ظهيرة هذا اليوم رهيبة. ولم يكن هناك منزلٌ قريب يمكن للأطفال أن يتسوَّلوا منه قطعةً من الخبز أو حتى كوبًا من الماء. كانوا خائفين من الذهاب إلى القرية؛ لأنهم رأوا مارثا ذاهبة إليها ومعها سلة، وكان هناك شرطيٌّ محلي. صحيحٌ أنهم كانوا في غاية الجمال، لكن لا ينفع الجمال بشيء عندما تكون جائعًا مثل حيوان مفترس وظمآنَ مثل الإسفنج.

لقد حاولوا ثلاثَ مراتٍ دون طائلٍ أن يُجبِروا خدم المنزل الأبيض على السماح لهم بالدخول والاستماع إلى حكايتهم. ثم ذهب روبرت بمفرده، على أمل أن يتمكَّن من الصعود إلى إحدى النوافذ الخلفية؛ ومن ثمَّ يفتح الباب أمام الآخرين، لكنَّ جميع النوافذ كانت بعيدة المنال، وأفرغَت مارثا وعاءً من الماء البارد فوقه من نافذة عليا، قائلةً:

«تستحق هذا أيُّها القرد الإيطالي الصغير!»

انتهى بهم الأمر أخيرًا إلى الجلوس في صفٍّ واحد تحت سياج من الشجيرات، وأقدامهم في قناة مياهٍ جافة، في انتظار غروب الشمس، وهم يتساءلون عما إذا كانوا — عندما تغرب الشمس — سيتحولون إلى أحجار، أم سيتحولون من جديد إلى طبيعتهم القديمة ذاتها. لا يزال كلُّ واحدٍ منهم يشعر بالوحدة وأنه بين أشخاصٍ غُرباء، وكل واحدٍ منهم يحاول ألَّا ينظر إلى غيره؛ لأنه على الرُّغمِ مِن أن أصواتهم كانت هي أصواتهم ولم تتغير، إلا أن وجوههم كانت جميلةً ساطعة لدرجة أنها تُزعج بشدَّةٍ من ينظر إليها.

قال روبرت وهو يكسر الصمت البائس الطويل: «لا أعتقد أننا سنتحوَّل إلى أحجار؛ لأن عفريت الرمال قال إنه سيحقق لنا رغبةً أخرى في الغد، ولن يكون بمقدوره فعلُ ذلك إذا صرنا أحجارًا، هل يمكنه ذلك؟»

قال الآخرون: «لا.» لكنهم لم يشعروا بأي قدْرٍ من الارتياح.

كسر سيريل صمتًا آخر أطول وأشد بؤسًا بقوله المفاجئ: «لا أريد أن أُخيفكن يا بنات، لكنني أعتقد أن ما نخشاه قد بدأ معي بالفعلح فقدمي قد تخدَّرت تمامًا. إنني أتحوَّل إلى حجارة، إنني متأكد من ذلك، سأتحول إلى حجارة في غضون دقيقةٍ واحدة.»

قال روبرت بلطف: «لا تهتم، ربما ستكون المتحجِّر الوحيد، وسيكون بقيتنا على ما يرام، وسنرعى تمثالك ونعلِّق عليه أكاليل الزهور.»

لكن عندما اتضح أن قدم سيريل تخدَّرت جرَّاء جلوسه عليها لفترةٍ طويلة، ولما بدأ يشعر بها وبآلامها التي كانت كالمسامير والإبر، غضب الآخرون بشدة.

قالت أنثيا: «أفزعتنا بلا سبب!»

كسَرَت جين الصمت الثالث والأكثر بؤسًا بقولها: «إذا خرجنا من هذا كله بسلام، فسوف نطلب من عفريت الرمال إذا حقق رغبةً ما ألَّا يلاحظ الخدم شيئًا مختلفًا، مهما كانت رغباتنا.»

تذمر الآخرون فقد كانوا بائسين للغاية حتى لاتخاذ قراراتٍ جيدة.

في النهاية كان الجوع والخوف والغضب والإرهاق — أربعة أشياءَ سيئةٍ للغاية — قد امتَزجَت جميعًا فأنتجَت شيئًا لطيفًا، هو النوم. بدأ الأطفال ينامون على التوالي، مُغمِضين عيونهم الجميلة وفاغرين أفواههم الجميلة. كانت أنثيا أوَّل من استيقظ. وكانت الشمس تميل إلى الغروب، وكان الشفق يلوح في الأفق.

قرصَت نفسها بقوة لتطمئن، وعندما وجدَت أنها لا يزال بإمكانها الإحساس بالقرص تأكدَت من عدم تحوُّلها إلى حجارة، ثم عند ذلك قرصَت الآخرين وكانت أجسادهم هم أيضًا غضَّة.

قالت وهي تكاد تبكي من الفرحة: «استيقظوا، كلُّ شيء على ما يرام، نحن لسنا أحجارًا. أوه يا سيريل، ما أَلْطفَك وأنت قبيح! مع النمش القديم وشعرك البني وعينَيك الصغيرتين.» ثم أردفَتْ لكيلا يشعر أحدهم بالغيرة: «كلكم أيضًا كذلك.»

وعندما وصلوا إلى المنزل تعرَّضوا للتوبيخ الشديد من قِبل مارثا، التي أخبرتهم عن الأطفال الغرباء.

قالت عنهم: «ثلَّةٌ من الأولاد حسان المظهر، ولكنهم سيئو الأخلاق.»

قال روبرت الذي علم عن طريق التجربة كم هو مستحيل محاولة شرح الأمور لمارثا: «أعلمُ ذلك.»

«وأين بحق الله كنتم طوال هذا الوقت أيُّها الصغار الأشقياء؟»

«عند أحد منعطفات الطريق.»

«ولماذا لم تعودوا إلى المنزل منذ ساعات؟»

قالت أنثيا: «لم نستطع العودة بسببهم.»

«بسبب من؟»

«الأولاد الذين كانوا في غاية الجمال، لقد احتجزونا هناك حتى غروب الشمس، ولم نستطع العودة حتى انصرفوا، ليس لديك فكرةٌ كم كرهناهم، أوه! اذهبي هيا وآتينا طعام الغداء فنحن نتضور جوعًا.»

قالت مارثا بغضبٍ: «جوعى! كان يجب أن أفكِّر في ذلك؛ فقد كنتم بالخارج طوال اليوم، آمل أن يكون هذا درسًا لكم ألَّا تتسكَّعوا مع أطفالٍ غرباء — كي لا تُصابوا

بالحصباء، على الأرجح هذا ما سيحدث! الآن احذروا، إذا رأيتموهم مرةً أخرى، فلا تتحدَّثوا إليهم — لا تُكلِّموهم ولا تنظروا إليهم — لكن تعالَوْا مباشرة وأخبروني. وأنا سأُفسد لهم جمالهم!»

قالت أنثيا: «لو رأيناهم مرةً أخرى فسنُخبرك.»

وقال روبرت بنبرةٍ صادقةٍ وهو مثبِّت عينَيه بتوقٍ على اللحم البقري البارد الذي أتَت به الطاهيةُ على صينية: «وسنحرص كلَّ الحرص ألَّا نراهم مرةً أخرى.»

وهو ما لم يحدث بعد ذلك قَط.

الفصل الثاني

الجنيهاتُ الذهبية

استيقظَت أنثيا في الصباح من حُلمٍ أقربَ ما يكون إلى الحقيقة، حيث كانت تمشي في حديقة الحيوان في يومٍ ماطر بلا مظلة مطر. بدت الحيوانات حزينة للغاية بسبب المطر، وكانت جميعها تزمجر غاضبة. وعندما استيقظت، استمرَّت زمجرة الحيوانات وهطول المطر كما كانا في الحلم. كان صوت الزمجرة في الحقيقة هو صوت التنفُّس الشاق المنتظم لشقيقتها جين، التي كانت تعاني من نزلةِ بردٍ خفيفة وكانت لا تزال نائمة. أما المطر فكان يتساقط في قطراتٍ متباعدةٍ على وجه أنثيا من الطرف المبلَّل لمنشفة الاستحمام التي كان شقيقها روبرت يضغط عليها بلطفٍ لتُسقِط قطراتِ الماء لإيقاظها، كما تبيَّن لها ذلك الآن.

قالت بغضب: «ألقِها!» فألقاها إذ لم يكن بالأخ القاسي، على الرغم من أنه مبدع جدًّا في مقالب ثني أغطية الأَسرَّة فيظن النائم أنها قصيرة، وفي الشراك الخادعة، والأساليب المبتكرة لإيقاظ أفراد أسرته من النوم، بالإضافة إلى مآثره الصغيرة الأخرى التي تُضفِي سعادةً على المنزل.

قالت أنثيا: «رأيتُ حُلمًا غريبًا!»

قالت جين، التي استيقظت فجأة ودون سابق إنذار: «وأنا أيضًا، حلمتُ أننا وجدنا عفريت رمالٍ في حفرة الحصى، وقال إن اسمه «سامياد»، وقد يحقق لنا رغبةً جديدة كل يوم، و…»

قال روبرت: «ولكن هذا ما حلمتُ به أنا أيضًا، كنت على وشك إخباركم — وقد حقَّق لنا الرغبة الأولى في الحال. ولقد حلمتُ أنكما كنتما بالغباء الكافي لتطلبا أن نصبح جميعًا في غاية الجمال، فتحولنا إلى ذلك، وكان الأمر في منتهى السوء.»

قالت أنثيا، وهي جالسة على السرير: «لكن هل يمكن لأناسٍ مختلفين أن يحلموا بالشيء نفسه؟ لأنني حلمتُ بكل ذلك وكذلك حلمتُ بحديقة الحيوان والمطر؛ والرضيع لم يعرفنا في حُلمي، ومنعنا الخدم من دخول المنزل لأن وهج جمالنا غيَّر أشكالنا تمامًا، و...»

انطلق صوت الأخ الأكبر ليتردد في أرجاء الممر قائلًا:

«هيا يا روبرت، سوف تتأخر عن الإفطار مرةً أخرى ما لم يكن قصدك أن تتجنَّب الاستحمام كما فعلتَ يوم الثلاثاء.»

ردَّ روبرت عليه قائلًا: «أقول لك إنني لم أتهرَّب، لقد استحممتُ بالفعل بعد أن تناولتُ طعام الإفطار في حجرة الملابس الخاصة بأبي؛ لأن حجرتنا كانت قد أُفرغت.»

ظهر سيريل في المدخل وهو يرتدي بعض ملابسه.

قالت أنثيا: «انظر هنا، لقد حلمنا بهذا الحلم الغريب. لقد حلمنا جميعًا أننا وجدنا عفريت رمال.»

خفَت صوتها أمام نظرة سيريل المُتهكِّمة والذي قال: «هل تقولون حلم؟ أيُّها الصغار البلهاء، إنها حقيقة، أنا أؤكد لكم أن كل هذا حدث؛ لهذا السبب أنا حريصٌ على الخروج مبكرًا. سنذهب إلى هناك مباشرةً بعد الإفطار، لكي نحقِّق أمنيةً أخرى، لكننا يجب أولًا أن نفكِّر جيدًا، ونحدِّد قبل أن نذهب ما نريده بالفعل، وعلى كل واحدٍ منا ألَّا يطلبَ أيَّ شيء ما لم يحصل على موافقة الباقين أولًا، فلنحذر أن يطلب أحدنا أن يُمنح هذا الطفل جمالًا فريدًا هو الآخر. هذا كافٍ، ينبغي أن نكون واعين.»

ارتدى الثلاثة الآخرون ملابسهم فاغرين أفواههم من الدهشة؛ فلو كان كل هذا الحلم حول عفريت الرمال حقيقيًّا، لبدت كل هذه الملابس الحقيقية كأنها حلم، كما اعتقدتِ الفتاتان. شعرت جين أن سيريل كان على حق، لكن أنثيا لم تكن متأكدة، إلى أن رأوا مارثا وأسمعتْهم تذكيراتٍ كاملةً وواضحةً حول سلوكهم المشاغب في اليوم السابق. عند ذلك صدَّقت أنثيا ما حدث؛ لأنه — كما قالت: «لا يحلم الخدم أبدًا بأي شيء سوى بالأشياء الموجودة في كتاب الأحلام، كالثعابين والمحار والذهاب إلى حفل زفاف — وهم يُفسِّرون ذلك بجنازة، والثعابين يفسرونها بصديقةٍ كاذبة، والمحار بالأطفال.»

قال سيريل: «بما أنكِ ذكرتِ الأطفال، أين الحَمَل الصغير إذن؟» قالت جين: «ستأخذه مارثا إلى روتشستر لرؤية أبناء عمومتها. قالت والدتي إن بإمكانها أن تأخذه معها، وهي تُلبِسه ملابسه الآن مع أفضل معطف وقبعة. أريد خبزًا وزبدةً، من فضلك.»

قال روبرت في نبرة تعجُّب: «يبدو أنها تحب أخذه معها أيضًا.»

قال سيريل: «تحب الخادمات اصطحاب الأطفال معهن عند زيارة أقاربهن، لقد لاحظتُ ذلك، كما لاحظتُ حرصهن على أن يُلبسنهم أفضل الملابس.»

قالت جين وهي حالمة تتناول مُربَّى المرملاد: «أعتقد أنهن يتظاهرن بأن الأطفال أولادهن، وأنهن لسْنَ بخادماتٍ على الإطلاق، بل متزوجات بأدواقٍ نبلاء من أعلى المستويات، وأنهن يقُلْنَ إن الأطفال أدواق ودوقاتٌ صغار، أتوقع أن هذا ما ستقوله مارثا لابن عمها. وسوف تستمتع بذلك أيُّما استمتاع.»

قال روبرت: «إنها لن تستمتع كثيرًا وهي تحمل دوقنا الصغير إلى روتشستر. لو كانت تفكر مثلي، لما فعلَت.»

قال سيريل متفقًا مع روبرت: «تخيَّل المشي إلى روتشستر وأنت تحمل الحَمَل الصغير على ظهرك! يا إلهي!»

قالت جين: «بل ستذهب بالعربة، فلنكن في وداعهما. هذه ستكون لفتةً طيبة ومهذبةً منا وفي الوقت ذاته سنتأكد من أننا تخلَّصنا منهما لسائر اليوم.»

وفعلوا ذلك.

ارتدَتْ مارثا فستانها الخاص بيوم الأحد، والذي يحمل درجتَين من اللون الأرجواني. كان الفستان ضيقًا للغاية عند منطقة الصدر للدرجة التي جعلتها تتقوس بدرجةٍ ما. كما ارتدت قبعةً زرقاء مزدانة بأزهارٍ قرنفلية اللون وشريطٍ أبيض. وضعَت حول ياقتها طوقًا من الدانتيل الأصفر بتقوُّسٍ أخضر. وكان الحَمَل الصغير بالفعل يرتدي أفضل معطف وقُبعة حريرية بلون القشدة. لقد كانت صحبةً متأنقة حقًّا تلك التي أقلتها العربةُ عند تقاطُع الطرق. وحين اختفت العربة بقُبتها البيضاء وعجلاتها الحمراء ببطء في دوامة من الغبار الطباشيري.

قال سيريل: «والآن هيا بنا إلى عفريت الرمال!» فانطلقوا من فورهم.

اتفقوا في طريقهم على الأُمنية التي يريدون أن يطلبوا تحقيقها. على الرغم من أنهم كانوا في عجلةٍ كبيرة من أمرهم، فإنهم لم يحاولوا النزول من جانبَي حفرة الحصى، بل ذهبوا عبر الطريق السفلي الآمن، كما لو كانوا عربات تجرها أحصنة. لقد صنعوا — في المرة السابقة — حلقةً من الحجارة حول المكان الذي اختفى فيه عفريت الرمال؛ لذلك وجدوا المكان هذه المرة بسهولة. كانت الشمس متقدةً وساطعة، وكانت السماء زرقاءَ صافية بدون غيوم. وكانت الرمال ساخنة جدًّا بحيث يصعُب لمسها.

قال روبرت بينما كان الأولاد يُخرِجون جواريفهم من كومة الرمل التي أخفَوْها بها ويبدءون في الحفر: «أوه — أعتقد أنه كان مجرد حلم، رغم كل شيء.»

قال سيريل: «يا لك من صبيٍّ عاقل تخبرنا بأن كلا الاحتمالَين واردان بالدرجة نفسها!»

رد روبرت بسرعة قائلًا: «أعتقد أنه من الأفضل أن تُبقي فمك المهذب مغلقًا.»

قالت جين ضاحكة: «أرى أننا نحن الفتيات من سيتحدث إلى العفريت؛ فأنتم أيُّها الأولاد سريعو الغضب.»

قال روبرت، الذي أصبح الآن غاضبًا حقًّا: «أرى ألا تُقحمن أنفسكن في الأمر.»

قالت أنثيا بسرعة: «لن نفعل يا عزيزي روبرت، لا تغضب — لن نقول كلمة واحدة، ستكون أنت الشخص الذي سيتكلم مع عفريت الرمال ويخبره بما قررناه. ستتكلَّم أفضل بكثيرٍ مما كنا سنفعل.»

قال روبرت وقد سكن غضبه: «أعتقد أنه ينبغي عليكِ أن تتركي تمثيل دور المتواضعة، انتبهوا، احفروا بأيديكم الآن!»

وهكذا فعلوا، حتى كشفوا عفريت الرمال بجسمه البني المشعر الذي يشبه جسم العنكبوت، وبذراعَيه ورجلَيه الطويلتَين وبأُذنَيه الأشبه بأُذنَي الوطواط وبعينَيه الأقرب إلى عينَي الحلزون. عند ذلك تنفس كلٌّ منهم الصُّعَداء إذ أيقنوا أن ما حدث بالأمس لم يكن حُلمًا.

نهض عفريت الرمال وانتفض ليتخلَّص من الرمل العالق بفِرائه.

قالت أنثيا بلطف: «كيف حال شاربك الأيسر هذا الصباح؟»

قال مجيبًا: «ما من شيء لأفخر به، لقد عانى من ليلةٍ مؤرقة إلى حدٍّ ما، ولكن شكرًا لسؤالك.»

قال روبرت: «أودُّ أن أسألك، هل تشعر برغبتك في تحقيق الأمنيات اليوم؟ فنحن نرغب بشدة في أمنيةٍ إضافية بجانب الأمنية المعتادة.» ثم أردف مطمئنًا له: «والأمنية الإضافية أمنيةٌ بسيطة.»

قال: «هممم! يُخال لي أني سمعتكم تتحدثون فيما بينكم وأنكم اختلفتم، أعتقد حقًّا أنني قد حلمتُ بكم جميعًا؛ فلديَّ أحلامٌ غريبة في بعض الأحيان.»

سارعت جين بسؤاله هربًا من التطرق إلى موضوع الخلاف: «صحيح؟ كم أتمنى لو تخبرنا عما تحلم به، لا بد أنها أحلام في غاية الروعة والتشويق.»

قال عفريت الرمال متثائبًا: «هل هذه أمنية اليوم؟»

تمتم سيريل بشيءٍ أقرب إلى «هذا ما يُنتظَر منكن يا بنات حواء»، في حين ظلَّ الباقون صامتين؛ فلو قالوا «نعم»، فوداعًا للأمنيات الأخرى التي قرروا طلبها. ولو قالوا «لا»، فسيكون ذلك في غاية الوقاحة. لقد شبُّوا جميعًا على الأخلاق الحميدة، وفي الوقت ذاته، هم متطلعون إلى اكتساب المزيد من المعرفة وشتان بين هذا وذاك. تنفَّسوا الصعداء جميعهم عندما قال عفريت الرمال:

«لو فعلتُ، فلن أمتلك القوة التي تمكنني من تحقيق أمنيةٍ أخرى لكم؛ فلا رباطة جأش، ولا تفكير سليم، ولا أسلوب راقٍ، ولا أي شيء من هذا القبيل.»

قال سيريل بتلهُّف بينما نظر الجميع إلى بعضهم بعضًا شاعرين بالندم وآملين ألَّا يتمسك عفريت الرمال بحديثه عن رباطة الجأش، بل يمنحهم دفعةً قوية ثم يكون قد أدَّى ما عليه: «لا نريدك أن تُحمِّل نفسك عناء هذه الأمور على الإطلاق؛ فيمكننا تدبُّرها جيدًا بأنفسنا.»

قال عفريت الرمال وقد مدَّ القرنَين اللذين يحملان عينَيه فجأة حتى كاد أحدهما يفقأ عينَي الفتى روبرت المستديرتَين: «حسنًا، لنبدأ بالأمنية الصغيرة أولًا.»

قال روبرت: «لا نريد أن تلاحظ الخادمات الأمنيات التي تُحقِّقها لنا.»

قالت أنثيا هامسة: «التي تتفضل بتحقيقها لنا.»

قال روبرت: «أعني التي تتفضل بتحقيقها لنا.»

نفخ عفريت الرمال جسمه قليلًا، ثم أطلق أنفاسه وقال:

«لقد فعلتُ لكم ذلك، كان سهلًا. الناس لا يلاحظون الأشياء بذلك القدر على أية حال، ما أمنيتكم التالية؟»

قال روبرت بتمهلٍ: «نريد أن نصير على درجةٍ من الغنى تفوق ما يحلم به أي شخصٍ آخر.»

قالت جين: «جشع.»

قال عفريت الرمال على غير المتوقع: «فليكن ذلك إذن.» ثم تمتم لنفسه قائلًا: «لكن هذا لن يُفيدَك كثيرًا، المال مجرد نعمةٍ واحدة من نعمٍ كثيرة.» وبعدها قال: «اسمعوا، لا يمكنني أن أتجاوز الأحلام، كما تعلمون. أخبروني إذن كم المبلغ الذي تريدونه، وهل تريدونه ذهبًا أم أوراقًا نقدية؟»

«ذهبًا أرجوك، ونريد منه الملايين.»

قال عفريت الرمال بعفوية: «هل سيكون ملء حفرة الحصى كافيًا؟»

«أجل!»

«إذن فاخرجوا قبل أن أبدأ، وإلا فستُدفنون أحياءً فيها.»

أطال ذراعَيه النحيفتَين بشدة، ولوَّح بهما على نحوٍ مخيف، لدرجة أن الأطفال ركضوا بقوةٍ قدْر استطاعتهم نحو الطريق الذي اعتادَت أن تأتيَ منه العربات إلى حفرة الحصى. كانت أنثيا وحدها لديها ما يكفي من التعقُّل لإلقاء صيحةٍ خجولة وهي تجري قائلة: «صباحك جميل، وآمل أن تكون شواربك أفضل حالًا في الغد.»

وبينما يسيرون في الطريق، التفتوا ونظروا من خلفهم، واضطُروا إلى أن يُغمِضوا أعينهم وأن يفتحوها رويدًا رويدًا؛ لأن المشهد كان مبهرًا للغاية بحيث لا تستطيع عيونهم تحمُّله. كان الأمر أشبه بمحاولة إلقاء نظرة على الشمس وقت الظهر في أحد أيام منتصف الصيف. لقد كانت الحفرة الرملية ممتلئةً بالكامل، حتى الحافة، بقطعٍ ذهبية متلألئة جديدة، وكانت جميع الأبواب الأمامية الصغيرة لعشش طائر سنونو الرمال مغطاةً تمامًا بها. وحيثما انحدر طريق العربات ملتويًا إلى حفرة الحصى، كان الذهب موضوعًا في أكوامٍ مثل حجارةٍ قابعة على جانبَي الطريق، كما كان هناك جرفٌ كبير من الذهب اللامع ينحدر للأسفل حتى يصير مسطحًا ومستويًا بين الجوانب المرتفعة من حفرة الحصى. وكانت كل الأكوام اللامعة من الذهب المسكوك. وعلى جوانبِ وحوافِّ هذه العملات التي لا تُعد ولا تُحصى، تُشرِق شمس النهار وتلمع وتتوهج وتشِعُّ حتى بدا المحجر وكأنه فُوَّهة فُرن الصهر، أو أحد القصور التي يُخال لك أحيانًا أنها في السماء وقت غروب الشمس.

ظل الأولاد واقفين هناك فاغرين أفواههم ولم ينبسوا ببنتِ شَفَة.

أخيرًا، توقَّف روبرت والتقط إحدى القطع النقدية الكثيرة من حافة الكومة بجانب طريق العربات، وأخذ ينظر إليها. تأملها من كلا الوجهَين. ثم قال بصوتٍ منخفض، يختلف تمامًا عن صوته الحقيقي: «إنها ليست جنيهًا ذهبيًّا إنجليزيًّا.»

قال سيريل: «إنه ذهبٌ على أي حال.» وصاروا يتحدَّثون جميعًا في وقتٍ واحد. لقد حثَوْا جميعًا الكنز الذهبي بملء أيديهم، وجعلوه يتساقط من خلال أصابعهم مثل الماء، وكان صوت الرنين الذي تصدره العملات عند سقوطها كالموسيقى الرائعة. في البداية نسُوا تمامًا التفكير في إنفاق المال؛ فاللعب به كان ممتعًا حقًّا؛ فقد جلسَت جين بين أكوامٍ من الذهب وبدأ روبرت في دفنها، كما تدفن والدك في الرمال عندما تكون على شاطئ

البحر وقد استغرق في نومه على الشاطئ واضعًا صحيفته على وجهه. لكن جين لم يكد يُدفن نصف جسدها حتى صرخَت قائلة: «أوه، توقَّف، إنها ثقيلة للغاية! هذا مؤلم!»

قال روبرت: «هُراء!» ثم استأنف دفنها.

صرخَت جين: «أقول لك دعني أخرج!» ثم أخرجوها وهي شاحبةٌ وترتجف قليلًا.

قالت: «ليس لديك أيةُ فكرة كيف يبدو الأمر، إنها كالحجارة إذا وُضعَت عليك أو مثل الجنازير.»

قال سيريل: «انتبهوا هنا، إذا كان في هذا الأمر أي منفعةٍ، فلا جدوى من بقائنا مُنبهِرين به على هذا النحو. دعونا نملأ جيوبنا ونذهب ونشتري الأشياء. لا تنسَوا أنها لن تدوم بعد غروب الشمس. تمنيتُ لو كنا طلبنا من عفريت الرمال ألا تتحول الأشياء إلى حجارة. دعوني أخبركم بشيء؛ هناك حصانٌ وعربة في القرية.»

قالت جين: «أتودُّ أن تشتريهما؟»

«لا أيتها البلهاء، سنستأجرهما؛ وعندئذٍ سنذهب إلى روتشستر ونشتري أكوامًا وأكوامًا من الأشياء، انتبهوا إليَّ! فليأخذ كلٌّ منا أقصى ما في استطاعته حمله، ولكنها ليست عملةً إنجليزية؛ فعلى أحد وجهَيها رأس رجل، وعلى الوجه الآخر علامة البستوني، املئوا جيوبكم وتعالَوا بسرعة. يمكنكم أن تثرثروا في الطريق، إن كنتم لا بد فاعلين.»

جلس سيريل وبدأ يحثو الذهب في جيوبه. وقال: «لقد سخرتم مني عندما جعلت أبي يصنع لي تسعة جيوب في سترتي، حسنًا فانظروا إليَّ الآن.»

ونظروا إليه بالفعل. وعندما ملأ سيريل جيوبه التسعة ومنديله والفراغ بينه وبين قميصه من الأمام بالقطع الذهبية كان عليه أن يقف، لكنه تعثر فاضطر أن يجلس مرةً أخرى بسرعة.

قال روبرت: «أفرغ بعض الشحنة يا فتى، وإلا أصابك مكروهٌ بسبب جيوبك التسعة.»

وهكذا اضطُر سيريل إلى أن يمتثل لما قاله روبرت.

ثم انطلقوا سائرين إلى القرية. كانت المسافة أكثر من ميل، وكان الطريق مليئًا بالغبار حقًّا، وبدا أن الشمس تزداد سخونة أكثر فأكثر، والذهب في جيوبهم يصبح أثقل فأثقل.

كانت جين هي من قال: «لا أفهم كيف يمكننا أن ننفق كل هذا. لا بد أن يكون مجموع ما لدينا آلاف الجنيهات. سأترك بعضًا مما لديَّ خلف جذع الشجرة في هذا

السياج. وحالما نصل إلى القرية سنشتري بعض البسكويت؛ أعلم أنه لا يزال هناك وقتٌ طويلٌ حتى يحينَ موعد الغداء.» وأخرجَت حفنة أو اثنتَين من العملات الذهبية وأخفَتها في تجويف شجرة الزان الأبيض. قالت جين: «كم هي مستديرة وصفراء. ألا تتمنَّون لو أنها كانت كعكاتِ زنجبيل نتناولها؟»

قال سيريل: «حسنًا إنها ليست كعكات زنجبيل، ونحن لن نأكلها. هيَّا.»

لكنهم تابعوا المسير مُرهَقين وضَجِرين. وقبل أن يصِلوا إلى القرية، كان هنالك أكثر من جذعٍ يخفي في جوفه جزءًا من الكنز. ورغم ذلك فقد وصلوا إلى القرية ومعهم ألفٌ ومائتا جنيهٍ ذهبي في جيوبهم تقريبًا، لكن على الرغم من حيازتهم لهذه الثروة المُخبَّأة في جيوبهم، بدا مظهرهم عاديًّا للغاية، ولم يكن أحدٌ ليعتقد أنهم يمتلكون أكثر من نصف شلن. وأسهمت الحرارة العالية والدخان الأزرق الناتج عن احتراق الأخشاب في صنع سحابةٍ ضبابية داكنة اللون فوق الأسطُح الحمراء للقرية. ارتمَتْ أجسادُهم الأربعة الثقيلة على أول مقعدٍ وصلوا إليه؛ وصادف أن يكون هذا المقعد أمام حانةٍ تُدعى «بلو بور».

قرَّروا أن يذهب سيريل إلى حانة «بلو بور» ويطلب جِعَة الزنجبيل لأنه، كما قالت أنثيا: «ليس محظورًا أن يذهبَ الرجالُ إلى الحانات، وإنما يُحظر ذلك على الأطفال. وسيريل أقربنا إلى أن يكون رجلًا؛ كونه يكبَرنا سنًّا.» لذا فقد ذهب هو، بينما جلس الآخرون في الشمس وانتظروا.

قال روبرت: «يا إلهي! ما أحرَّ القبعات! تُخرج الكلاب ألسنتها عندما ترتفع حرارتها، أتساءل عما إذا كان إخراجُ ألسنتنا مثلها سيُلطِّف من حرارتنا.»

قالت جين: «فلنجرِّب.» وأخرجوا جميعًا ألسنتهم بأقصى ما يستطيعون، حتى تمدَّدَت حلوقهم تمامًا، لكن اتضح أن هذا يجعلهم أكثر عطشًا من ذي قبل، بجانب أن ذلك أزعج كلَّ من مرَّ بهم؛ لذلك أدخلوا ألسنتهم مرة أخرى، وفي الوقت نفسه، عاد سيريل يحمل جِعَة الزنجبيل.

قال: «كان عليَّ أن أدفع ثمنها من الشلنَين والبنسات السبعة الخاصة بي، تلك التي كنتُ سأشتري بها الأرانب، إنهم لم يرغبوا في صرف الذهب. وعندما أخرجتُ من جيبي حفنةً، ضحك الرجل وقال إن تلك العملات صوريةٌ لا تختلف عن أوراق اللعب. بالمناسبة اشتريت أيضًا بعض الكيك الإسفنجي، من وعاءٍ زجاجي عند البائع الواقف أمام البار. وبعض البسكويت الممزوج بالكراوية.»

كان الكيك الإسفنجي طريًّا وجافًّا كما كان البسكويت جافًّا أيضًا، إلا إنه كان طريًّا، وهو ما يجب ألا يكون عليه البسكويت. لكن جعة الزنجبيل عوَّضت كل شيء.

قالت أنثيا: «حان دوري الآن لمحاولة شراء شيء بالمال؛ فأنا الثانية بينكم سنًّا. أين أجدُ العربة الصغيرة التي يجرُّها الحصان؟»

كان المكان المقصود هو حانة «شيكرز»، فذهبَت أنثيا عبر الطريق الخلفي إلى الفناء؛ لأنهم كانوا يعلمون جميعًا أنه ينبغي على الفتيات الصغيرات ألا يذهبْن إلى الحانات. وعندما خرجَت منه، كانت — كما قالت بنفسها — «سعيدة ولكن ليست فخورة.»

قالت أنثيا: «سيكون جاهزًا في التوِّ — كما قال — ويجب أن يحصل على جنيهٍ ذهبي — أو أيًّا كان — ليذهب بنا إلى روتشستر ويعود، إضافة إلى الانتظار هناك حتى نشتري كلَّ ما نريده. أعتقد أنني تدبَّرتُ الأمر جيدًا جدًّا.»

قال سيريل في تجهُّم: «أعتقد أنكِ تظنين نفسك ذكية جدًّا، كيفَ فعلتِ ذلك؟»

ردَّت أنثيا قائلة: «حسنًا، لم أكن ذكيةً بالقدْر الذي يجعلني أُخرِج من جيبي حفنة من الذهب ليظهر كأنه بلا قيمة، كل ما في الأمر أنني وجدت فتًى يصنع شيئًا ما بساق حصانٍ مستخدمًا إسفنجة ودلو، فأخرجت جنيهًا ذهبيًّا وقلت له: «هيه، أتعلم ما هذا؟» فقال: «لا.» ثم نادى على والده، فجاء الرجل العجوز فقال إنه جنيهٌ ذهبي قديم، ثم سألني إن كان هذا الجنيه ملكًا لي وما إذا كان يمكنني التصرف فيه كما أشاء؟ فأجبته: نعم، ثم سألته عن العربة، وقلت له يمكنه الحصول على الجنيه الذهبي لو نَقلَنا إلى روتشستر، قال إن اسمه إس كريسبن، وقال لي: «أوه، حسنًا».»

كان شعورًا جديدًا أن تنطلق في عربةٍ أنيقةٍ يجرُّها حصان على طول الطرق الريفية الخلَّابة. لقد كان إحساسًا لطيفًا جدًّا (وهذا ليس هو الحال دائمًا مع الأحاسيس الجديدة)، بصرف النظر عن الخطط الجميلة لإنفاق النقود التي أعدَّها كل واحد منهم أثناء انطلاقهم — في صمت بالطبع وبينهم وبين أنفسهم — لأنهم شعروا أنه من المستحيل أن يسمحوا للعجوز صاحب النُّزل أن يَسمعَهم يتحدثون عن الثراء الذي كانوا يفكرون به. أنزلهم الرجل العجوز على الجسر بناءً على طلبهم.

سأله سيريل كما لو أنه يبحث عن شيء ليقوله: «إذا كنتَ تريد شراءَ عربة وخيول، فأين ستذهب؟»

قال الرجل العجوز على الفور: «بيلي بيسمارش، عند فندق ساراسين هيد، على الرغم من أنه حاشاني أن أُوصي بأحدٍ عندما يتعلق الأمر بالخيول، كما أنني أمتنع عن قَبول

توصيةٍ من أي شخص إذا كنتُ سأشتريها، لكن إذا كان والدكم يفكر في شراء أي نوع منها، فلن يكون هناك رجل أوثق ولا أفضل سمعةً في روتشستر من بيلي.»

قال سيريل: «شكرًا لك، عند فندق ساراسين هيد.»

والآن بدأ الأطفال يشاهدون أحد قوانين الطبيعة وهو ينقلب رأسًا على عقب ويقف على رأسه كالبهلوان. سيخبرك أي شخصٍ راشد أن المال صعب المنال وسهل الإنفاق، ولكن كان المال الذي أعطاهم إياه عفريت الرمال سهل المنال، ولم يكن الإنفاق صعبًا فحسب، بل كان من المستحيل تقريبًا. لقد بدا أن أصحاب المتاجر في روتشستر قد اختُزلوا في شخص تاجر واحد، بسبب النقود الذهبية اللامعة (والتي أطلق أغلبهم عليها النقود الغريبة). في البداية، أرادت أنثيا — التي كانت تعاني من سوء الحظ الذي جعلها تجلس على قبعتها في وقتٍ سابق من اليوم — شراء قبعةٍ أخرى، فاختارت واحدةً جميلة جدًّا، مُزيَّنة بالزهور الوردية وطاووس أزرق الصدر. وُضع عليها في النافذة لافتةٌ مكتوب عليها: «تصميم باريسي، بثلاثة جنيهات.»

قالت أنثيا: «أنا سعيدة أنها مكتوب عليها كلمة جنيهات وليس جنيهات إنجليزية حديثة فهي ليست بحوزتنا.»

ولكن عندما أخذت ثلاثة جنيهاتٍ ذهبية في يدها — والتي أصبحت متسخة بحلول هذا الوقت بسبب عدم ارتدائها القفازات قبل ذهابها إلى حفرة الحصى — نظرت الفتاة الشابة التي كانت ترتدي ثيابًا من الحرير الأسود في المتجر إليها بشدة ثم ذهبَت وهمسَت بشيء إلى سيدةٍ أكبر منها وأقبح، تلك التي ترتدي أيضًا ثيابًا من الحرير الأسود، وبعد ذلك أعادوا إليها المال وقالوا إنها ليست عملةً سارية.

قالت أنثيا: «إنها نقودٌ صحيحة وهي ملكٌ لي.»

قالت السيدة: «يمكنني اعتبار ذلك صحيحًا، لكنها نقودٌ ليست متداولةً الآن، ونحن غير مهتمِّين بأخذها.»

قالت أنثيا وهي تنضم للآخرين الواقفين في الشارع: «أعتقد أنهم يظنُّون أننا سرَقْناها؛ ولو كنا نرتدي القفازات لما ظنُّوا أننا مخادعون، إن السبب في ملء رءوسهم بالشكوك لهي يداي المتسختان.»

بعد ذلك، اختاروا متجرًا متواضعًا، واشترت منه الفتاتان قفازاتٍ قطنية، يبلغ سعرها ستة بنسات وثلاثة أرباع البنس، ولكن عندما عرضتا نقودهما، نظرت إليهما المرأة من خلال نظاراتها وقالت إنها لن تقبل هذه النقود؛ لذلك كان يتعين دفع ثمن القفازات

من الجنيهين والبنسات السبعة الخاصة بسيريل التي كان يعتزم شراء الأرانب منها، وكذلك شنطة يد جلد التمساح الأخضر المقلدة بتسعة بنسات ونصف التي اشترَوها في الوقت نفسه. لقد حاولوا مع العديد من المتاجر في المنطقة المجاورة، تلك التي يُشترى فيها الألعاب والعطور والمناديل الحريرية والكتب وعُلب الأدوات المكتبية الفاخرة والصور الفوتوغرافية للأشياء ذات الأهمية، لكن لم يهتم أحدٌ بأخذ النقود الذهبية منهم في ذلك اليوم في روتشستر. وبينما كانوا ينتقلون من متجر إلى آخر، كانوا يزدادون اتساخًا، ويصبح شعرهم أكثر شعوثة. كما انزلقت جين وسقطت على جزء من الطريق كانت قد مرت منه عربة رش الماء. كذلك فقد شعروا بالجوع الشديد، لكنهم لم يجدوا أحدًا يُعطيهم ما يأكلونه مقابل نقودهم تلك. وبعد المحاولة مع اثنَين من متاجر بيع الكعك دون جدوى، أصبحوا جائعين للغاية، ربما من رائحة الكعك التي في المتاجر — كما رجَّح سيريل — ما دفعهم — وهم يهمسون — إلى تشكيل خطة هجومية ونفَّذوها في يأس. ساروا نحو محلِّ كعكٍ ثالث — كان اسمه «بيل» — وقبل أن يتدخَّلَ الأشخاص الذين يقفون وراء الطاولة، كان كل طفل قد استولى على ثلاثِ كعكات الواحدة منها تُباع ببنس، وضمَّ الثلاثة معًا بين يديه المتَّسختَين، وأخذ قضمةً كبيرةً من الشطيرة الثلاثية، ثم وقفوا جميعًا على مسافةٍ آمنة وفي أيديهم اثنتا عشرة كعكة بينما تمتلئ أفواههم عن آخرها بالفعل. اتجه بائع الكعك مسرعًا نحوهم.

قال سيريل وهو يحاول أن يتحدَّث بأقصى ما يستطيع من الوضوح ممسكًا بالعملة الذهبية التي جهَّزَها قُبَيل دخولِه المتجر: «هاك، خذ ثمنها من هذه.»

انتزع السيد بيل العملة منه، وعضَّ عليها، ثم وضعها في جيبه.

ثم صاح فيهم قائلًا: «اذهبوا بعيدًا!»

قالت أنثيا التي كانت مغرمة بالتوفير: «ولكن ماذا عن الباقي؟»

قال الرجل: «الباقي؟ أنتم محظوظون أنني سأدعكم تمضون دون أن أستدعيَ لكم الشرطة لتكتشف حقيقة هذه النقود ومن أين أتيتم بها!»

فرغ هؤلاء المليونيرات من تناول الكعكات، وعلى الرغم من أن الكعكات كانت طريةً ولذيذةَ المذاق ولها مفعول السحر في رفع معنويات المجموعة، فإنه حتى أكثر القلوب شجاعة تُرهبُه فكرة المغامرة بالذهاب والتحدُّث إلى السيد بيلي بيسمارش عند فندق ساراسين هيد بخصوص موضوع العربة والحصان؛ فقد تخلى الولدان عن الفكرة، لكن جين كانت دائمًا فتاةً مفعمةً بالأمل، أما أنثيا فكانت بوجهٍ عامٍّ فتاةً عنيدة؛ لذا كانت الغلبة لحماستهما.

كانت المجموعة برمتها في حالة اتساخٍ تام؛ ومن ثم توجَّهوا إلى فندق ساراسين هيد. وبما أن الأسلوب الذي اتبعَتْه أنثيا في فناء شيكرز قد آتى ثماره، فإنهم جرَّبُوه مرةً أخرى هنا. كان السيد بيسمارش في الفِناء عندما افتتح روبرت حديثه بهذه الكلمات:

«أخبروني أنَّ لديك الكثير من الخيول والعربات للبيع.» لقد اتفق الأولاد فيما بينهم على أن يكون روبرت هو المتحدث؛ لأنه في الكتب دائمًا ما يكون الرجال هم الذين يشترون الخيول، وليس السيدات، وكان سيريل قد أخذ دوره في حانة «بلو بور».

قال السيد بيسمارش: «صدقًا أخبروك أيُّها الشاب.» كان رجلًا نحيلًا طويلًا وله عينان زرقاوان جدًّا وفمٌ صغيرٌ وشفتان مزمومتان.

قال روبرت بأدب: «نودُّ شراء بعضها من فضلك.»

«أحسب ذلك.»

«هلَّا أريتَنا بعضها من فضلك لنختار منها؟»

قال السيد بيسمارش متسائلًا: «ابن من أنت؟ وهل أرسلوك لتُبلغني رسالةً ما؟»

قال روبرت: «قلتُ لك إننا نريد شراء بعض الخيول والعربات، وثَمَّةَ مَنْ أخبرنا أنك رجلٌ نزيه وودود، لكنني أتساءل ما إذا كان قد أخطأ.»

قال السيد بيسمارش: «إن ذلك لمن دواعي سروري، هل تحب أن أُخرج الإسطبل كله على شرف سموك لتتخير منه ما تشاء؟ أم هل تحب أن أرسل للأسقف لأرى إن كان لديه حصان أو اثنان يرغب في بيعهما.»

قال روبرت: «من فضلك، إذا لم يكن في ذلك مشكلةٌ كبيرة. سيكون هذا لطفًا منك.»

وضع السيد بيسمارش يديه في جيبَيه وضحك، ولم ترُق لهم الطريقة التي فعل بها ذلك. ثم صاح مناديًا: «وِيلَم!»

فظهر سائس خيلٍ أحدب عند باب الإسطبل.

«تعالَ وانظر يا ويلم إلى هذا الدوق الصغير هنا، إنه يرغب في شراء كل الجياد والأقفال والمخزون والبراميل، ولا يُوجد في جيبه بنسان يشفعان له، ولكني سأضمنه في ذلك.»

تبعَت عينا ويلم أصابعَ سيده التي كانت تشير للصبي باهتمامٍ يشي بالازدراء، وقال: «هل يرغب في ذلك حقًّا؟»

لكن روبرت بالرغم من أن الفتاتَين كانتا تجذبانه من سترته وتترجَّيانِه المضي معهما، قال وكان في غضبٍ شديد:

«أنا لستُ دوقًا صغيرًا، ولم أتظاهر بذلك قط، وبالنسبة إلى مسألة البنسَين، فماذا تسمي هذا؟» وقبل أن يُسكته الآخرون كان قد أخرج حفنتَين من الجنيهات الذهبية، وأراهما للسيد بيسمارش لينظر إليهما، وقد فعل؛ فقد التقط قطعة بأصبعَيه وعضَّ عليها وتوقعَت جين أن يقول: «إن أفضل حصان في إسطبلي سيكون في خدمتكم.» ولكن الآخرين كانوا أعلم منها. ومع ذلك فقد كان ما قاله بإيجاز صفعةً حتى على وجوه أشد المتشائمين:

«ويلَم، أغلق أبواب الفناء.» فابتسم ويلَم وذهب ليغلق الأبواب.

قال روبرت متعجلًا: «مساء الخير؛ قل ما شئتَ الآن فلن نشتريَ أيًّا من خيولك، وآمل أن يكون هذا درسًا لك.» كان قد رأى بوابةً جانبية صغيرة مفتوحة، وكان يتحرَّك نحوها وهو يتكلَّم، لكن بيلي بيسمارش اعترض طريقه قائلًا:

«ليس بهذه السرعة، أيُّها المنبوذ، اذهب يا ويلَم فاستدعِ الشرطة.»

ذهب وِيلَم، وتجمَّع الأطفال معًا كالخراف المذعورة، وتحدَّث إليهم السيد بيسمارش حتى وصلتِ الشرطة، لقد قال لهم أشياءَ كثيرة، وكان من بين ما قاله:

«يا لكم من عصابةٍ بارعة! تأتون بجنيهاتكم الذهبية لتغووا بها الرجال الشرفاء!»

قال سيريل بجرأة: «إنها نقودنا بالفعل!»

«آه بالطبع نحن لا نعلم كل شيء بهذا الشأن، لا، لا نعرف، بالطبع لا! كما أنكما أقحمتما الفتاتَين في هذا الأمر أيضًا، اسمعا سأترك الفتاتَين تذهبان إذا أتيتما معي بهدوء إلى الشرطة.»

قالت جين ببسالة: «لن نذهب إلى أي مكان، ليس بدون أخوَينا، إنها نقودنا كلنا، ولنا فيها مثلُ ما لهما، أيُّها العجوز الشرير.»

قال الرجل وقد خفَّف من نبرته الحادة وألانَ الكلام وهو ما لم يكن ما يتوقَّعه الأولاد عندما بدأت جين في شتمه: «من أين حصلتم عليها؟»

ألقت جين نظرةً كئيبة إلى بقية الأولاد.

«هل قُطع لسانك؟ كان يعمل بسرعةٍ كافية عندما كنتِ تطلقين به الشتائم! هيا، انطقي! من أين حصلتم على النقود؟»

قالت جين الصادقة: «أتينا به من حفرة الحصى.»

قال الرجل: «أكملي.»

قالت جين: «أقول لك إننا وجدناه هناك، هنالك عفريت، يمتلئ جسده بالفراء، له أذنا وطواط وعينا حلزون، وهو يُحقِّق لك كل يوم أمنية، وكلها تحقَّقَت.»

قال الرجل بصوتٍ خفيض: «إنها ممسوسةٌ في عقلها، العار عليكما أيُّها الفتيانِ أن أقحمتما مثل هذه الفتاة البائسة في سطوِكما الآثم.»

قالت أنثيا: «إنها ليست مجنونة؛ إن ما قالتْه صحيح. هناك عفريت. إذا رأيته مرةً أخرى فسأتمنى لك شيئًا ما؛ أو ذلك ما كنت سأفعله لو لم يكن الانتقام شرًّا — هذه هي الحقيقة!»

قال بيلي بيسمارش: «يا إلهي! وأنت أيضًا مصابةٌ بمسٍّ في عقلك. تُرى من منكم أيضًا؟!»

بعد قليل عاد ويلَم وقد تجهَّم وجهه، وكان بصحبته شرطي يمشي وراءه، وقد تحدَّث إليه السيد بيسمارش طويلًا بصوتٍ غليظٍ جاد.

قال الشرطي أخيرًا: «أستطيع القول إنك على صواب. على أية حال، سأحتجزهم بتهمة الحيازة غير القانونية للنقود، وسننتظر ما يُسفر عنه الاستجواب. وسيتولَّى القاضي النظر في القضية. وعلى الأرجح أن الفتاتَين المصابتينِ ستعودان إلى المنزل، وأن الولدَين سيذهبان إلى الإصلاحية. والآن، هيا أيُّها الشابان! لا فائدة من إحداث ضجة. اصطحب أنت الفتاتَين يا سيد بيسمارش، وسأقتاد أنا الفتيَيْن.»

وهكذا اقتيد الأطفال الأربعة عبر شوارع روتشستر وقد أخرسهم الغيظ والفزع، وأعمتْهم دموع الغضب والخزي، لدرجة أنه عندما تقابل روبرت صدفةً مع واحدة من عابري الطريق والتي لم يستطع أن يميِّزها حتى سمع صوتها المعروف جيدًا له يقول: «يا إلهي! ماذا صنعْتَ هذه المرة يا سيد روبرت؟» وقال صوتٌ آخر: «بانثيا، أريد الذهاب إلى بانثيا!»

لقد قابلوا مصادفة مارثا والرضيع.

تصرَّفَت مارثا على نحوٍ يثير الإعجاب؛ فلقد رفضَتْ أن تصدِّق كلمةً واحدة من رواية الشرطي، أو رواية السيد بيسمارش أيضًا، حتى عندما جعلا روبرت يُفرغ جيبيه في أحد الممرات ويُريها جنيهًا ذهبيًّا.

قالت: «لا أرى شيئًا على الإطلاق، لقد فقد كلاكما عقله! لا يُوجد أي ذهب هنا؛ فقط أيدي الطفل المسكين، التي تُغطِّيها الأوساخ والطين، لقد صار كالمدخنة الصغيرة. لم أكن أتمنى أن أرى يومًا كهذا!»

لقد ظنَّ الأطفال أن مارثا تتعامَل معهم بنبل، حتى لو كانت شريرةً إلى حدٍّ ما، إلى أن تذكروا كيف وعدهم عفريت الرمال ألا يلاحظ الخدم أبدًا أيًّا من هداياه. وبالتأكيد، لم

تتمكن مارثا من رؤية الذهب، وهكذا فقد كانت تتحدث فقط عن الحقيقة التي تراها، وكان ذلك صحيحًا تمامًا، بالطبع، لكنه لم يكن عملًا نبيلًا للغاية.

كان قد حلَّ المساء عندما وصلوا إلى قسم الشرطة. وقصَّ الشرطي روايته على المفتش، الذي جلس في غرفةٍ كبيرةٍ خاليةٍ ليس بها سوى شيء، مثل الحاجز الذي يلعب خلفه الأطفال الصغار في المنزل، لوضع السجناء فيه. تساءل روبرت عما إذا كانت زنزانة أم قفص اتهام.

قال المفتش: «أرني النقود أيُّها الشرطي.»

قال الشرطي: «أفرغوا جيوبكم.»

أدخل سيريل يديه في جيوبه، ووقف لحظة، ثم بدأ يضحك؛ وهو نوعٌ غريب مؤلمٌ من الضحك أشبه بالبكاء. لقد كانت جيوبه فارغة. وكذلك كانت جيوب الآخرين. بالطبع عند غروب الشمس، اختفى كل ذهب عفريت الرمال.

قال المفتش: «أفرغ ما في جيوبك وتوقف عن إحداث هذه الجلَبة.»

أخرج سيريل جيوبه التسعة المزودة في سترته واحدًا تلو الآخر، وكان كل جيب منها فارغًا.

قال المفتش: «حسنًا.»

«لا أدري كيف فعلها أولئك المتسولون! لقد كانوا يمشون أمامي طوال الطريق، لئلا يغيب أحدهم عن ناظري ولكيلا ألفت انتباه الحشود أو أعرقل حركة السير.»

قال المفتش عابسًا: «رائعٌ جدًّا.»

قالت مارثا: «إذا كنتَ قد أنهيتَ إرهابك لهؤلاء الأطفال الأبرياء، فسأستأجر عربةً خاصة وسنذهب إلى منزل أبيهم الفخم، ولسوف تسمع عن هذا مرةً أخرى أيُّها الشاب! لقد أخبرتك أنهم لم يكن معهم أي ذهب، عندما ادعيتَ رؤيته في أيديهم البائسة المسكينة. أليس من العيب ألَّا يستطيع شرطي أن يثق فيما تراه عيناه؟ أما بالنسبة إلى الرجل الآخر، فخير الكلام ما قلَّ ودلَّ. إنه يُطيل المكوث في حانة ساراسين هيد، وهو يعرف أفضل من غيره ما نوع المشروبات التي يتعاطاها.»

قال المفتش: «خذيهم بعيدًا، بحق الله!» وبعدما غادروا مخفر الشرطة، قال للشرطي وللسيد بيسمارش «وماذا بعد!» لكنه قال ذلك بغضبٍ يفوق ما كان يخاطب به مارثا بعشرين مرة.

كانت مارثا على قدْر كلمتها؛ فقد نقلتهم إلى المنزل في عربةٍ كبيرة للغاية؛ لأن العربة التي كانت ستقلُّها قد فاتت، وعلى الرغم من أنها وقفت إلى جانبهم بكل شرف أمام

الشرطة، إلا أنها — وبمجرد ما أصبحوا وحدهم — صبَّت جام غضبها عليهم بسبب «تسكُّعهم وحدهم في روتشستر»، ولم يجرؤ أيٌّ منهم على ذكر رجل القرية العجوز وعربته وهو الذي كان ينتظرهم في روتشستر. وهكذا، بعد يوم واحد من الثراء الذي لا حدود له، وجد الأطفال أنفسهم يُمضَى بهم إلى الفراش في خزيٍ عميق، وليس بأياديهم من تلك الرحلة شيءٌ إلا أزواج من القفازات القطنية، المتسخة من الداخل بسبب حالة أيديهم التي لبسوا القفازات للتغطية عليها، وحقيبة من جلد التمساح المُقلَّد، واثنتا عشرة كعكة هُضمت منذ زمنٍ بعيد.

أكثر شيء أثار قلقهم هو خوفهم من أن يكون الجنيه الذهبي الذي أعطَوْه للرجل العجوز قد اختفى عند الغروب كبقية الجنيهات الأخرى؛ لذلك ذهبوا إلى القرية في اليوم التالي للاعتذار لعدم مقابلته في روتشستر، وللتأكد من ذلك، فعاملهم ببالغ الود، ووجدوا أن الجنيه الذهبي لم يختفِ، وقد صنع به ثقبًا وعلقه في سلسلة ساعته. أما بالنسبة إلى الجنيه الذي أخذه الخبَّاز، فقد شعر الأطفال بعدم الاهتمام بما إذا كان قد اختفى أم لا، وهو شعورٌ لم يكن نبيلًا، ولكن من ناحيةٍ أخرى كان شعورًا طبيعيًّا. ولكن بعد ذلك، استحوذ هذا الأمر على تفكير أنثيا، فأرسلَت في النهاية سرًّا اثني عشر طابعًا في رسالةٍ بالبريد إلى «السيد بيل، الخبَّاز، في روتشستر.» كتبَت بداخلها: «ثمن الكعك.» آمل أن يكون الجنيه الذهبي قد اختفى؛ لأن صانع فطيرة البسكويت لم يكن في الحقيقة رجلًا جيدًا، بالإضافة إلى أن تلك الكعكات تُباع كلُّ سبعةٍ بستة بنسات في جميع المتاجر المحترمة حقًّا.

الفصل الثالث

الحَمَلُ المحبوب

في صبيحة اليوم التالي لليوم الذي كان الأطفال قد حازوا فيه ثروةً لا حدَّ لها، وكانوا عاجزين عن شراء أي شيءٍ مفيد أو ممتع بحق، باستثناء زوجَين من القفازات القطنية، واثنتَي عشرة كعكة صغيرة، وحقيبةٍ من جلد التمساح المُقلد، وركوبهم في عربة يجرُّها حصان، ها هم يستيقظون دون شيء من السعادة الغامرة التي شعروا بها في اليوم السابق عندما تذكَّروا كم كانوا محظوظين بعثورهم على عفريت الرمال؛ وبحصولهم على وعدٍ منه بتحقيق أمنيةٍ جديدة لهم كل يوم. وقد تحقَّق لهم حتى الآن أمنيتان، الجمال والثروة، لكن كلتا الأُمنيتَين لم تجعلهم سعداء في الحقيقة. بيْد أن حدوث الأشياء الغريبة — حتى وإن لم تكن أشياء مبهجة تمامًا — لأمرٌ أكثر إمتاعًا من مرور الأوقات رتيبةً، لا يحدث فيها شيء يُذكر سوى تناوُل الوجبات، وهي ليست دائمًا بالغة المتعة، لا سيَّما في الأيام التي يُقدَّم لهم فيها لحم الضأن البارد أو اللحم المفروم.

لم تكن هناك أي فرصة للتحدث في شيء قبل الإفطار؛ لأن الجميع كانوا قد أفرطوا في النوم، وتطلَّب الأمر منهم مجاهدة أنفسهم بقوةٍ وحزمٍ من أجل ارتداء ملابسهم ليأتوا متأخرين بعشر دقائق على تناول الإفطار. خلال هذه الوجبة، بذل الأطفال جهدًا للتعامُل مع مسألة عفريت الرمال بإنصاف، لكن من الصعب للغاية مناقشة أيِّ شيءٍ باستفاضةٍ في الوقت ذاته الذي تحاول فيه بإخلاصٍ تلبية رغبات أخيك الصغير وهو يتناول إفطاره. كان الرضيع شديد النشاط في ذلك الصباح؛ فلم يقتصر الأمر على أنه سقط عبر حاجز كرسيه العالي، فعلق رأسه واحمرَّ وجهه وكاد يختنق، لكنه كذلك استولى على ملعقةٍ كبيرةٍ في حركةٍ مباغتة، وضرب بها سيريل بشدة على رأسه، ثم بكى لأن الملعقة أُخذت منه، ثم وضع قبضته السمينة في وجبته من الخبز والحليب، وطالب بنطقه الطفولي ﺑ «المُرَبَّى»

التي كان يُسمح بها فقط مع الشاي. وغنَّى، ووضع قدمَيه على الطاولة، وصاح «هيا امشِ!» ودار الحوار بينهم كالتالي:

«اسمعوا ... بخصوص عفريت الرمال ... حاذروا! سيريق اللبن.»

نُقِل اللبن إلى مسافةٍ آمنة من الرضيع.

«نعم ... بخصوص ذلك العفريت ... لا، يا حَمَلنا العزيز، أعطِ بانثيا الملعقة.»

ثم حاول سيريل التحدث قائلًا: «لا شيء مما حصلنا عليه بدا ... كاد هذه المرة يسكب المسطردة!»

«أتساءل عما إذا كان يجدر بنا تمني ... مرحى! لقد فعلتَها الآن يا صغيري!» وفي طرفة عين سقط على الأرض الحوضُ الصغير الذي كان قد وُضع فيه سمك الشَّبُّوط الذهبي وأخذ يتدحرج على جنبه بعد أن وضع الرضيع فيه يده فانسكب في حِجرِه الماء والسمك اللذان كانا في الحوض كما طال ما انسكب حجورَ الأولاد الآخرين.

كان الجميع يشعرون بالضيق حتى الأسماك الذهبية، في الوقت الذي ظلَّ فيه الحَمَل الصغير هادئًا. وعندما نُظِّفت «البركة» التي كانت على الأرض، وانتُشلت الأسماك الذهبية المتقافزة ووُضعت مرةً أخرى في الماء، حملَت مارثا الرضيع بعيدًا لتُغيِّر له ملابسه بالكامل، وكان على معظم الآخرين تغيير ملابسهم بالكامل أيضًا. وعُلِّقت مرايل الأطفال والسترات التي كانت قد غُمرَت بالمياه وبالأسماك الذهبية لتجف، ثم اتضح أن جين عليها إما أن ترتدي الفستان الذي مزَّقَته في اليوم السابق وإما أن تظل طوال اليوم مرتديةً أفضل تنوراتها التحتية. كانت التنورة بيضاء وناعمة ومزخرفة، ومُزيَّنة بالدانتيلا، وفي غاية الجمال والروعة، كانت تبدو كزي خروج تمامًا، إن لم تكن أجمل من ذلك. إلا إنها لم تكن زيَّ خروج، وكانت مارثا هي صاحبة القرار في هذا الشأن؛ فلم تكن تسمح لجين بارتداء أفضل ملابسها المُخصَّصة للخروج، ورفضَت أن تستمع للحظة إلى اقتراح روبرت القائل بأن جين يجب أن ترتدي أفضل تنوراتها التحتية وأن تُطلق عليه فستانًا.

قالت مارثا: «هذا ليس جديرًا بالاحترام، وعندما يقول الناس ذلك، فلا يهم ما يقولونه، فليقولوا ما يشاءون. ستكتشفون هذا بأنفسكم في يوم من الأيام.»

لذلك لم يكن هناك بديل سوى أن تُصلح جين فستان الخروج الخاص بها. كان الفستان قد تمزَّق جراء سقوطها في الحفرة في اليوم السابق في الطريق السريع في روتشستر، حيث مرت عربة رش الماء فملأت الطريق بالماء. وسقطَت في إحدى الحفر التي غمرتها المياه فخُدشت ركبتها، أما جواربها فما حدث لها كان أكبر من مجرد خدش،

وقطع فستانها بالحَجر نفسه الذي احتك بالركبة والجورب. بطبيعة الحال، لم يكن الآخرون بالدناءة التي تجعلهم يتخلَّون عن رفيقٍ في محنة؛ لذلك جلسوا جميعًا على قطعة أرض معشوشبة مستديرة حول الساعة الشمسية، في انتظار جين وهي ترتق ثوبها بفارغ الصبر. كان الحَمَل الصغير لا يزال في أيدي مارثا بعد تغيير ملابسه؛ لذلك كان هناك مجال لتبادُل أطراف الحديث.

حاول كلٌّ من أنثيا وروبرت إخفاء ما يفكران فيه بعمق، وهو أن عفريت الرمال ليس جديرًا بالثقة، لكن سيريل قال:

«تحدثوا، قولوا ما تَودُّون قوله فأنا أكره الإيماء، وقول «لا أدري» وما شابه من الأساليب الملتوية.»

عند ذلك قال روبرت وقد أدركَته الحميَّة: «بل أسلوبك أنت الملتوي، أنا وأنثيا لم نتعرض للبلل مثلكما؛ لذا كنا أسرع منكما في تبديل ملابسنا، وهذا ما أعطانا الوقت لنفكِّر أكثر في الأمر، وإذا سألْتَني.»

قالت جين وهي تقطع خيطًا بأسنانها وهو ما كانت دومًا تُنهى عن فعله: «أنا لم أسألك شيئًا.»

قال روبرت: «أنا لا يهمني من يسأل أو من لا يسأل، ولكني أنا وأنثيا نعتقد أن عفريت الرمال شريرٌ متوحش، فإذا كان بإمكانه أن يُحقِّق لنا أمنياتنا، فأنا أظن أنه يمكنه أن يُحقِّق لنفسه ما يتمنَّى، وأشعر تقريبًا أنه يتمنَّى في كل مرةٍ ألَّا ننتفع بأمنياتنا. دعونا نترك الوحش المُجهَد وشأنه، ولنذهب معًا للاستمتاع بلعبة الحصون، في المحجر الطباشيري.»

(تذكر أن المنزل ذا الموقع السعيد حيث كان يقضي هؤلاء الأطفال عطلتهم يقع بين المحجر الطباشيري وحفرة الحصى.)

لكن سيريل وجين كانا أكثر تحليًا بالأمل، على وجه العموم.

قال سيريل: «لا أعتقد أن عفريت الرمال يفعل ذلك عن قصد؛ فبرغم كل شيء، كان من السخف أن نتمنى ثراءً غير محدود. خمسون جنيهًا مقسَّمة على فئاتٍ كلٌّ منها بقيمة شلنَين ربما كانت ستصبح أكثر عقلانية. وأمنية أن نصبح في غاية الجمال كانت ببساطة أمنيةً غبية. لا أريد أن أكون معارضًا، لكنها كانت كذلك. يجب أن نحاول أن نفكر في أمنيةٍ مفيدة حقًّا، ونتمناها.»

ألقت جين ما في يدها وقالت:

«أظن ذلك أنا أيضًا؛ فمن الحماقة أن نحصل على فرصةٍ مثل هذه ثم لا نستغلها. لم أسمع أن أحدًا آخر حظي بمثل تلك الفرصة إلا في الكتب؛ لا بد أن هناك عددًا كبيرًا من الأمنيات التي يمكننا تمنيها ولا تتحول إلى أشياءَ سيئة في النهاية، كما تحوَّلت الأمنيتان اللتان تحققتا لنا، فلنعمل جهدنا في التفكير، ولنتمنَّ شيئًا جميلًا، حتى نحظى بيومٍ ممتع، أو بما تبقَّى منه.»

ثم أكملت جين ترتيق الفستان مرةً أخرى مسرعةً كالمجنونة؛ لأن الوقت بدأ يداهمهم بالفعل، وبدأ الجميع يتحدثون دفعةً واحدة. لو كنتَ حاضرًا معهم، فربما لم تكن لتستطيع أن تفهم شيئًا مما يقولونه، لكن هؤلاء الأطفال اعتادوا على التحدُّث هم الأربعة معًا كالجنود يسيرون في العرض العسكري معًا. فيمكن لكلٍّ منهم أن يقول ما يقوله بارتياحٍ شديد، وأن يُعير جزءًا من سمعه لكلامه، وفي الوقت نفسه يُخصِّص ثلاثة أرباع أُذنَيه الحادتين للاستماع إلى ما يقوله الآخرون. هذا مثالٌ سهل على ضرب الكسور الاعتيادية، لكن بما أنني أستطيع القول إنك لا تستطيع حتى القيام بذلك، فلن أطلب منك أن تخبرني ما إذا كان $\frac{٣}{٤} \times ٢ = ١\frac{١}{٢}$، لكنني سأطلب منك أن تُصدِّقني أن هذا كان حجم الأُذن الذي كان كل طفل قادرًا على أن ينصت به للآخرين. كانت إعارة السمع هذه شائعة في العصر الروماني، كما نتعلم من مؤلفات شكسبير؛ أخشى أن أكون قد استغرقتُ في التوجيه.

وعندما انتهت مهمة ترتيق الفستان، تأخَّر ذهابهم إلى الحفرة بسبب إصرار مارثا على غسل الجميع لأيديهم وهو ما لم يكن له معنى؛ لأن ما من أحدٍ منهم كان يفعل أي شيء على الإطلاق، باستثناء جين، وكيف لأيديهم أن تتسخ بينما لا يفعلون بها شيئًا؟ هذا سؤال صعب، ولا يمكنني الإجابة عنه نظريًّا. أما في الواقع العملي، فيمكنني بسهولة أن أثبت لك أو تثبت لي ما هو الشيء المرجح أن يحدث.

أثناء المحادثة التي أنصتت فيها الآذان الستة (كان هناك أربعة أطفال، وعلى هذا فالجمع صحيح كما سبق توضيحه)، فقد تقرر أن خمسين جنيهًا مقسَّمة على فئاتٍ كلٌّ فئة منها بقيمة شلنَين كانت الأمنية الصائبة التي ينبغي عليهم طلبها. كما أن الأطفال المحظوظين، الذين يمكنهم الحصول على أي شيء في العالم بأَسْره من خلال أمنياتهم فحسب، انطلقوا مسرعين إلى حفرة الحصى لإخبار عفريت الرمال بأمنياتهم، لكنَّ مارثا أمسكت بهم على البوابة، وأصرَّت على أن يصطحبوا الرضيع معهم.

قالت مارثا: «ألا تريدون أن تأخذوه معكم حقًّا؟! ومن لا يُحب مرافقة هذا الرضيع الجميل؟! وأنتم تعلمون أنكم وعدتم أمكم باصطحابه معكم إلى الخارج كلما كان الجو صحوًا.»

قال روبرت واجمًا: «نعلم أننا وعدناها، لكنني أتمنى لو أن الحَمَل لم يكن بهذا الحجم وبهذه السن، كان سيكون اصطحابه أفضل كثيرًا.»

قالت مارثا: «أما عن مشكلة السن فهو سيكبَر مع مرور الوقت. وفيما يتعلق بصغر حجمه، فأنا لا أعتقد أنك ستحمله مرةً أخرى، مهما كان كبيرًا. كما أنه يستطيع المشي قليلًا، بفضل قدمَيه العزيزتَين السمينتَين! إنه ينتعش بالهواء العليل، أليس كذلك يا عزيزي؟!» ثُم قبَّلتِ الصغير ووَضعَته بين ذراعَي أنثيا، وعادت لتصنع مرايلَ جديدة للأطفال على ماكينة الخياطة. لقد كانت ذات أداءٍ سريع على هذه الآلة.

ضحك الحَمَل الصغير مبتهجًا وقال بلهجةٍ طفولية: «سيري يا بانثيا!» وركب على ظهر روبرت وهو يصيح مسرورًا، كما حاول أن يطعم جين حجارةً، وبوجهٍ عام كان لطيفًا للدرجة التي لم يكن يندم أحدٌ منهم على اصطحابه معهم.

بل إن جين المتحمِّسة اقترحَت أنه ينبغي عليهم تكريس أُمنيات أسبوعٍ كامل لتأمين مستقبل الرضيع، من خلال تمني تحقيق أُمنياتٍ كتلك الأُمنيات التي تُحققها الجنيات الطيبة للأمراء الصغار في القصص الخيالية، ولكن أنثيا ذكَّرتها بنباهة بأن الأُمنيات التي حققها عفريت الرمال لا تدوم بعد غروب الشمس، ولا يمكنهم ضمان أي منفعة تعود على الطفل في سنواته القادمة؛ فأقرَّت جين أنه من الأفضل أن تتمنى الحصول على خمسين جنيهًا من فئة الشلنَين، وأن تشتري للحَمَل حصانًا هزَّازًا بثلاثة جنيهات ونصف، مثل تلك الموجودة في قائمة متاجر «آرمي آند نيفي» بجزء من المال.

وقد اتفقوا على أنه بمجرد الحصول على المال الذي تمنَّوْه، سيطلبون من السيد كريسبن توصيلهم إلى روتشستر مرةً أخرى، وسيأخذون مارثا معهم، إذا لم يتمكنوا من الخروج بدونها، وسيكتبون قائمة بالأشياء التي يريدونها بالفعل قبل أن يطلبوها. مفعمين بالآمال العريضة وبالعزيمة الكبيرة، ذهبوا عبر الطريق الآمن البطيء إلى حفرة الحصى، ولَمَّا دخلوا بين تلال الحصى، طرأت عليهم فكرةٌ مفاجئة، ولو كانوا قصة في كتاب لكانت وجوههم المتوردة تحولت إلى شاحبة، ولكن لكونهم أطفالًا حقيقيين، فقد جعلَتهم يتوقفون وينظرون بعضهم إلى بعض بتعابيرَ فارغةٍ وبلهاءَ إلى حدٍّ ما؛ فقد تذكروا الآن أنهم، أمسِ، عندما طلبوا من عفريت الرمال الحصول على ثروةٍ لا حدود لها، وكانت

الحفرة على وشك الامتلاء بملايين الجنيهات الذهبية اللامعة أن عفريت الرمال طلب منهم المسارعة بالخروج من المحجر خوفًا عليهم من أن يُدفنوا أحياء تحت الكنز العظيم الثقيل. وقد فعلوا. وقد حدث أنهم لم يكن لديهم وقتٌ لتمييز مكان عفريت الرمال، بكومة من الأحجار، كما صنعوا من قبلُ. كانت هذه الفكرة هي التي وَضعَت مثل هذه التعبيرات البلهاء على وجوههم.

قالت جين المتفائلة: «لا عليكم، سنعثر عليه سريعًا.»

ولكن هذا وإن كان سهلًا في قوله كان صعبًا في تنفيذه؛ فقد بحثوا وبحثوا، ورغم عثورهم على مجاريفهم الشاطئية، فإنهم لم يعثروا على عفريت الرمال في أي مكان.

واضطُروا أخيرًا إلى الجلوس والراحة — ليس مطلقًا لأنهم كانوا مرهَقين أو محبَطين، ولكن لأن الحَمَل الصغير أصرَّ على أن يضعوه على الأرض، ولا يمكنك أن تبحث بدقة عن أي شيءٍ مفقود في الرمال بينما لديك — في الوقت نفسه — طفلٌ كثير الحركة يحتاج إلى متابعة. اجعل شخصًا ما يرمي بأفضل سكاكينك في الرمال في المرة القادمة التي تذهب فيها إلى شاطئ البحر، ثم اصطحب أخاك الرضيع معك عندما تذهب للبحث عنها، وسوف ترى أنني على صواب.

كان الحَمَل الصغير — كما قالت مارثا — يستفيد من الهواء الريفي العليل، فكان يلعب بنشاط كحشرة نطَّاط الرمل. أما إخوته الذين يكبَرونه سنًّا يتوقون إلى الحديث عن الأُمنيات الجديدة التي قد تتحقق عندما (أو إذا) وجدوا عفريت الرمال مرةً أخرى. لكن الحَمَل الصغير يرغب في إمتاع نفسه.

لذا تحيَّن فرصته وألقى حفنة من الرمل في وجه أنثيا، ثم دسَّ رأسه في الرمل فجأة ولوح بساقَيه السمينتَين في الهواء. بعد ذلك — بالطبع — دخلَت الرمال في عينَيه، كما دخلت في عينَي أنثيا، وظل يصرخ.

كان روبرت الكثير التفكير قد أحضر زجاجةً واحدة من جِعَة الزنجبيل، استعدادًا للعطش الذي لم يُخيِّب ظنه. كان لا بد من نزع سدادة الزجاجة بسرعة — لأنها كانت الشيء الرطب الوحيد الذي في متناول أيديهم — وكان من الضروري غسل الرمال من عينَي الحَمَل الصغير بأي طريقة. وبطبيعة الحال فقد أصابه الزنجبيل بألمٍ شديد في عينيه، وصرخ أكثر مما كان يفعل. ووسط آلامه وركلاته، انقلبَت الزجاجة فانسكبَت جعة الزنجبيل الجميلة في الرمال وفُقدت إلى الأبد.

عندئذٍ نسي روبرت — الذي عادةً ما يكون أخًا صبورًا — نفسه ليقول:

«سيوَد أي شخص لو أخذه، حقًّا! ولكن أحدًا لم يفعل؛ لم ترغب مارثا في أخذه في الحقيقة، ولو كانت ترغب لاحتفظَت به معها بكل سرور. إنه مصدر إزعاجٍ مجسَّد في كائن صغير الحجم، هذا ما هو عليه. إنه لأمرٌ سيئ للغاية. كنت أتمنى أن الجميع يريدونه بحق من كل قلوبهم؛ فربما كنا سننعم بشيء من السكينة وراحة البال في حياتنا.»

توقَّف الحَمَل الصغير عن صراخه الآن؛ لأن جين قد تذكَّرت فجأة أن هناك طريقةً آمنة واحدة فقط لإخراج الأشياء من عيون الأطفال الصغار، وهو عن طريق اللسان الرطب الناعم. إنه أمرٌ سهل للغاية إذا كنت تحب الطفل بالقدر الواجب عليك.

ثم ساد القليل من الصمت. كان روبرت يشعر بالاستياء من نفسه لأنه غضب لهذه الدرجة، كذلك استاء الباقون منه. غالبًا ما تلاحظ هذا النوع من الصمت عندما يقول شخصٌ ما شيئًا كان ينبغي عليه ألَّا يقوله؛ فيُمسك الجميع ألسنتهم في انتظار اعتذاره عما قاله.

انكسر حاجز الصمت بتنهيدة؛ صوت زفير خرج فجأة، فالتفتَت رءوس الأطفال كما لو أن كل أنفٍ من أنوفهم مربوطٌ بخيط، وأن شخصًا سحب جميع الخيوط مرةً واحدة.

هنالك رأى الجميع عفريت الرمال جالسًا بالقرب منهم، وعلى وجهه المكسو بالشعر ابتسامة.

قال: «صباح الخير، لقد حقَّقتُ لك ما تمنيت، وصار الجميع يرغبون بشدة الآن في اصطحاب الرضيع.»

قال روبرت عابسًا لأنه علم أنه كان يتصرف بوضاعة: «لا يهم، لا يهم من يرغب فيه؛ لأنه لا يوجد أحدٌ هنا على أية حال.»

قال عفريت الرمال: «الجحود من الرذائل البغيضة.»

أسرعت جين بقولها: «لسنا ناكرين للجميل، لكننا لم نقصد أن نتمنى هذه الأُمنية حقًّا، لقد قالها روبرت هكذا دون قصد، ألا يمكنك استعادتها، ومنحنا أُمنيةً جديدة؟»

قال عفريت الرمال بحزم: «لا، لا أستطيع التغيير أو التبديل؛ فهذا ليس بيعًا أو شراءً. يجب أن تكونوا حذرين فيما يتعلق بالأُمنيات؛ فقد كان هناك ولدٌ صغير ذات مرة، كان قد تمنى بليسيوسوروس بدلًا من إكتيوسوروس؛ لأنه كان كسولًا جدًّا لدرجة أنه لم يكلف نفسه عناء تذكر الأسماء السهلة للأشياء اليومية، فتضايق والده منه جدًّا، وأمره بالذهاب إلى الفراش قبل وقت الشاي، ولم يسمح له بالخروج للتنزه على متن القارب

الصغير الرائع مع الأطفال الآخرين في اليوم التالي — وهي رحلةٌ سنوية كانت تُنظِّمها المدرسة — وجاءني في صباح يوم الرحلة وألقى بنفسه بالقرب مني، وجعل يركل بقدمَيه الأرض قائلًا إنه يتمنى أن يموت. وبالطبع حدث ما تمناه.»

قال الأطفال في صوتٍ واحد: «يا للفظاعة!»

قال عفريت الرمال: «فقط حتى غروب الشمس، بالطبع. ومع ذلك فقد كان الأمر كافيًا بالنسبة إلى والده ووالدته. وقد تلقَّى عقابه عندما استيقظ؛ أستطيع أن أقول لك. ولم يتحول إلى حجارة — نسيت السبب — ولكن لا بد من وجود سببٍ ما. إنهم لا يعلمون أن الموت ما هو إلا نومٌ في حقيقته، ولا بد للنائم من أن يستيقظ في مكانٍ أو آخر، إما في المكان الذي نامَ فيه وإما في مكانٍ أفضل. يمكنكم التأكُّد أنه قد نال جزاءه؛ لأنه أصاب والدَيه بالذعر. كيف لي أن أعرف هذا؟ لأنه لم يُسمح له بتذوق الميجاثيريم لمدة شهر بعد ذلك. لا شيء سوى المحار وحلزونات البحر، والأصناف الشائعة من هذا القبيل.»

صُعق الأولاد لسماعهم هذه القصة المريعة. ونظروا إلى عفريت الرمال في فزع. وفجأة أدرك الحَمَل أن هناك شيئًا بنيًّا ومكسوًّا بالفراء كان بجانبه.

قال الحَمَل وقد ضمَّ قبضته: «بوف، بوف، بوفي.»

قالت أنثيا بينما تراجع عفريت الرمال إلى الوراء: «إنه ليس هِرَّة.»

قال عفريت الرمال: «يا لشاربي الأيسر! لا تدعوه يلمسني، إنه مبتلٌّ.»

وانتصب فراؤه من الفزع وكان هنالك بالفعل كمية كبيرة من الزنجبيل مسكوبة على سترة الحَمَل الزرقاء.

حفر عفريت الرمال بيدَيه ورجلَيه واختفى في الحال وسط دوَّامة من الرمال.

علَّم الأطفال البقعة التي اختفى فيها عفريت الرمال بحلقةٍ من الأحجار.

قال روبرت: «يمكننا نحن أيضًا العودة إلى المنزل، سأقول إني آسف؛ على الرغم من عدم وقوع ضررٍ على أية حال، والآن صرنا نعرف أين نجد هذا الشيء الرملي غدًا.»

كان بقية الأولاد نبلاء، فلم يُوبِّخ أحدهم روبرت مطلقًا، حمل سيريل الحَمَل، والذي عاد إلى هدوئه مرةً أخرى، وانطلقوا عائدين عبْر طريق العربات الآمن.

يتصل طريق العربات المؤديَّ إلى حفرة الحصى بالطريق الرئيسي على نحوٍ مباشر تقريبًا.

توقفَت المجموعة عند البوابة لنقل الحَمَل من ظهر سيريل إلى ظهر روبرت، وفي اللحظة التي توقفوا فيها لاحت لهم عربةٌ أنيقة مفتوحة السقف، يقودها سائق ويجلس

بجانبه على صندوق القيادة خادم، وبداخل العربة تركب سيدة — كانت شديدة الفخامة في الحقيقة — ترتدي فستانًا من الدانتيلا البيضاء مُزيَّنًا بأشرطةٍ حمراء وتمسك في يدها مظلةً خفيفةً ذات لونَين أحمر وأبيض، وتحتضن كلبًا كثيف الشعر، في عنقه ربطةٌ حمراء، نظرت إلى الأطفال، وخصوصًا الطفل الصغير، وابتسمت إليه. لقد اعتاد الأطفال على هذا؛ فقد كان الحَمَل كما قالت الخادمات: «طفل يأسِر الألباب.» لذا فقد لوَّحوا بأيديهم إلى السيدة بلطف وتوقعوا أن تستأنف مسيرها، ولكنها لم تفعل؛ فبدلًا من ذلك أمرت السائق بالتوقُّف، وأشارت إلى سيريل وعندما صعد إليها في العربة قالت:

«يا له من صغيرٍ محبَّب ساحرٍ غالٍ! أوه، ينبغي عليَّ — وكم أحب — أن أتبنَّاه! هل تعتقد أن أمَّه ستمانع؟»

قالت أنثيا بحزم: «ستمانع بكل قوةٍ في الواقع.»

«أوه، ولكنني سأربيه في غَنَاء وترف، كما تعلمين، فأنا السيدة تشيتيندين. لا بد أن تكوني قد رأيتِ صورتي في الصحف المصوَّرة، إنهم يدعونني بذات الحسن، أتعلمين؟ لكن كل هذا بلا قيمة. على كل حال …»

ثم فتحَت باب العربة وترجَّلَت منها. كانت ترتدي حذاءً أحمر عالي الكعبين مُرصَّعًا بالفضة كأروعِ ما يكون، قالت: «دعني أحمله لدقيقة.» ثم أخذت الحَمَل وحملتْه بطريقةٍ غير ملائمة، كما لو أنها لم تعتَد على حمل الأطفال.

ثم فجأة قفزت داخل العربة وهي تحمل الحَمَل بين ذراعيها، وأغلقتِ الباب بعنف وقالت للسائق: «انطلق!»

صاح الحَمَل، فنبح الكلب الأبيض الصغير، وتردَّد السائق. فصرخَت فيه السيدة قائلة: «انطلق، أقول لك!» وقد فعل السائق ما أمرتْه به؛ لأنه — كما قال لاحقًا — لم يكن في وضعٍ يسمح له بالاعتراض على أمرها.

نظر الأطفال الأربعة بعضهم إلى بعض، واندفعوا معًا يجرون خلف العربة وظلوا يتبعونها. سارت العربة عبر الطريق الترابي كالوميض سرعةً وخفة وتسارعَت أرجل إخوة الحَمَل وراءها للحاق بها.

صرخ الحَمَل بصوتٍ أعلى وأعلى، ولكن ما لبث أن تغيَّرت صيحاته ببطء إلى قرقرات الفُواق، ثم ساد الصمت فعلموا أنه استسلم للنوم.

استمرَّت العربة في سيرها، وصارَت الأقدام الثماني التي تلمع خلال الغبار خشنةً ومتعبةً قبل أن تتوقف العربة عند نُزُلٍ خشبي ذي حديقةٍ أنيقة. جثم الأطفال خلف العربة وخرجَت السيدة. نظرت إلى الطفل بتردُّدٍ وهو مستلقٍ على مقعد العربة.

قالت: «يا حبيبي، لن أزعجك.» وذهبت إلى النُّزُل للتحدث إلى المرأة هناك حول حضَّانة بيض دجاج الأوربنجتون التي لم تكن تعمل بصورةٍ جيدة.

وثَبَ السائق والخادم من فوق كُرسيَّيْهما ومالا على الحَمَل النائم.

قال السائق: «يا له من صبي! تمنيتُ لو أنه لي.»

قال الخادم بغلظة: «لن يستحسنك كثيرًا؛ إنه على درجةٍ فائقة من الوسامة.»

تظاهر السائق بعدم سماعه، وقال:

«إنني أتساءل بحقٍّ الآن لماذا فعلتُ ذلك؟ إنها تُبغض الأطفال، وليس لديها أطفالٌ، كما لا يمكنها رعاية أشخاصٍ آخرين.»

تبادل الأطفال، الذين كان يربضون في الغبار الأبيض تحت العربة، نظراتٍ غير مريحة.

أكمل السائق كلامه بحزم: «أتدري ماذا سأفعل؟ سأُخفي الغلام الصغير بين الشجيرات وأُخبرها أن إخوته أخذوه! ثم سأعود لآخذه بعد ذلك.»

قال الخادم: «لا، لن تفعل ذلك، لقد أُولعتُ بهذا الطفل كما لم أفعل قط بطفلٍ آخر، فإذا كان هناك من سيأخذه، فهو أنا؛ هذا كل ما هنالك!»

ردَّ السائق: «وفِّر ثرثرتك! أنت لا تريد أطفالًا، وحتى لو فعلت، فإن الأطفال كلهم متشابهون في نظرك، ولكنني رجلٌ متزوج ولدي خبرة بالسلالات الجيدة من الأطفال، وأستطيع أن أميِّز أي رضيع من السلالات الفاخرة عندما أراه، وسأحصل عليه، لا تُجهد نفسك بعناء التفكير في هذا الأمر.»

قال الخادم متهكمًا: «كان يجدر بي التفكير في ذلك؛ فقد كان لديك ما يكفي من الأولاد، لديك ألفريد، وألبرت، ولويز، وفيكتور ستانلي، وهيلينا بيتريس وأيضًا ...»

سدَّد السائقُ ضربةً إلى الخادم في الذقَن — فضربه الخادم في صدره — وفي اللحظة التالية كانا يتقاتلان في أرجاء المكان، داخل العربة وخارجها، في الأعلى وفي الأسفل، وفي كل مكانٍ وفي كل ناحية، وقفز الكلب الصغير على صندوق العربة وبدأ ينبح مثل المجنون.

كان سيريل، الذي لا يزال رابضًا في الغبار، يتهادى على أرجلٍ منحنية بجانب العربة بعيدًا عن ساحة المعركة. وفتح باب العربة — كان الرجلان مشغولَين للغاية بشجارهما فلم يلاحظا أي شيء — هنالك حمل الحَمَل بين ذراعَيه دون أن يشعر به أحد. سار بالرضيع عشرات الأقدام على طول الطريق المؤدي إلى ممشًى يفضي إلى غابةٍ تبعه إليها الآخرون، وهناك بين أشجار البندق وأشجار البلوط الصغيرة والكستناء الحلو، المُغطى

بنبات السرخس ذي الشذى الفواح القوي، اختبئوا جميعًا حتى غطى صوت السيدة ذات الرداء الأحمر والأبيض على أصوات الرجلَيْن الغاضبَيْن، وبعد بحثٍ متلهفٍ طويل، انطلقَت العربة أخيرًا مبتعدة.

قال سيريل وهو يأخذ نفسًا عميقًا عندما تلاشى صوت عجلات العربة: «يا إلهي! كلُّ الناس يريدونه الآن دون أدنى شك! لقد خدعنا عفريت الرمال مرةً أخرى! يا له من حيوانٍ مخادع! دعونا نوصل الطفل إلى منزلنا الآمن، بحق السماء!

وهكذا خرجوا، ووجدوا على الجهة اليمنى طريقًا أبيض خاليًا، وكذلك كان الحال على الجهة اليسرى، فاستجمعوا شجاعتهم، وشقوا طريقهم، وحملت أنثيا الحَمَل النائم.

اقتفى المغامرون آثار أقدامهم كالكلاب، ثم قابلوا صبيًّا يحمل حزمةً من الحطب، فألقاها عن ظهره على جانب الطريق، وطلب منهم أن ينظر إلى الطفل، ثم ما لبث أن عرض أن يحمله، لكن أنثيا لم تكن لتُلدغ من ذات الجحر مرتَين، فرفضت، وتابعوا جميعهم المسير. غير أن الصبي تبعهم، ولم يتمكن سيريل وروبرت من إبعاده حتى هدَّاده أكثر من مرة باستخدام العنف معه، ثم تبعتهم بعد ذلك فتاةٌ صغيرة ترتدي فستانًا ذا مربعاتٍ زرقاء وبيضاء لمسافة ربع ميل في الحقيقة وهي تبكي طلبًا لهذا «الطفل الرائع»، وفي النهاية لم يتمكَّنوا من التخلُّص منها إلا بتهديدها بربطها إلى شجرة في الغابة بما في جيوبهم من مناديل، قال لها سيريل بصرامة: «لتأتِ بعد ذلك الدِّببة لتأكلك حالما يحلُّ الظلام.» عند ذلك مضت وهي تبكي، ثم بدا من الحكمة لإخوة الطفل وأخواته في الوقت الراهن أن يختبئوا في الشجيرات بجانب الطريق كلما رأوا أحدًا قادمًا؛ وهكذا تمكنوا من منع الحمل من إثارة المحبة غير المريحة لدى بائع الحليب، وكسَّار الحجارة، والرجل الذي كان يقود العربة التي تحمل في الجزء الخلفي منها برميل دهنٍ مخصصٍ لصنع الشموع. وبينما كانوا قد أوشكوا على الوصول إلى المنزل إذ حدث الأسوأ من ذلك كله؛ فبينما هم يجتازون منعطفًا في الطريق، فوجئوا بعربتَين وخَيْمة ومجموعة من الغجر أقاموا مُخيَّمهم على جانب الطريق، كان معلقًا في جانب العربتَين كراسي من الخوص، وأَسرَّة أطفال، وحاملات زهور، وَفُرُشٌ من الريش، وكان هنالك الكثير من الأطفال ذوي الملابس الرثة المنهمكين في صنع فطائر من التراب على الطريق، ورجلان مستلقيان على الحشائش يدخنان، وثلاث نساء يغسلن ثياب أُسرهن في إناءٍ قديم لسقي الزرع مكسور أعلاه.

وفي طرفة عين، أحاط جميع الغجر، رجالًا ونساءً وأطفالًا، بأنثيا والطفل.

قالت غجرية ذات وجهٍ بني يضرب إلى الحمرة كأشجار الماهوجني ولها شعرٌ رمادي: «اسمحي لي بحَمْله أيتها السيدة الصغيرة، لن أؤذيَ شعرةً منه، يا له من طفلٍ جميل!»

قالت أنثيا: «أنا لا أفضِّل ذلك.»

قالت المرأة الأخرى التي وجهها كلون أحد درجات لون شجر الماهوجني ولها شعرٌ أسود داكن ذو تجاعيدَ ناعمة: «دعيني أنا آخذُه؛ فأنا لديَّ تسعة عشر ولدًا، نعم لديَّ كل هذا العدد من الأولاد.»

قالت أنثيا بشجاعةٍ رغم أن قلبها كان يدق بقوةٍ حتى ظنَّت أنه بلغ حنجرتها: «لا.»

عند ذلك اندفع أحد الرجال للأمام.

وقال وهو يصرخ بلهجته التي يصعب فهمها: «صحِّحوا لي إن لم أكن مصيبًا، أليس هذا ابني المفقود منذ مدةٍ طويلة؟ هل هنالك على أذنه اليسرى وحمةٌ حمراء؟ لا؟ إذن فهو طفلي، الذي سُرق مني وهو في طفولته البريئة، وأنا فاض بي الكيل ولن ألجأ إلى القانون هذه المرة.»

ثم انتزع الطفل من أنثيا، التي احمرَّ وجهها وانفجرت باكية وهي تستشيط غضبًا.

لم يحرِّك الآخرون ساكنًا؛ فما من شيءٍ قد مرَّ بهم قطُّ هو أشدُّ فظاعة من هذا الأمر، بل إن القبض عليهم من قِبل الشرطة في روتشستر لا يُعد شيئًا مقارنةً بهذا؛ تحوَّل لون سيريل إلى الأبيض، وارتجفت يداه قليلًا، لكنه أشار إلى لآخرين بالتزام الصمت، وصمت هو الآخر لدقيقة، كان يُعمِل فيها عقله، ثم قال:

«لا نودُّ الاحتفاظ به إن كان هو ابنك، ولكن كما ترى فهو معتادٌ علينا، وستأخذه إن شئت.»

قالت أنثيا: «لا، لا!» — فنظر إليها سيريل محملقًا.

قالت المرأة وهي تحاول أخذه من بين ذراعَي الرجل: «نريده بالطبع.» فصرخ الحَمَل عاليًا.

أطلقت أنثيا صيحةً عالية قائلة: «يا إلهي، إنه يتألَّم!» فقال سيريل بصوتٍ خفيضٍ فظ آمرًا إياها: «اصمُتي!»

ثم همس لها: «ثقي بي.» وأكمل حديثه «اسمعوني هنا، إنه يسبِّب الكثير من المتاعب للأشخاص الذين لا يعرفهم جيدًا، ومن الأفضل أن نمكث هنا قليلًا حتى يعتادَ عليكم، ثم عندما يحين موعد نومه أعدكم بشرفي أننا سنذهب بعيدًا ونتركه لكم إن أردتم ذلك، وعندها يمكنكم تحديدُ من منكم الذي سيأخذه، بما أنكم جميعًا تريدونه بشدة.»

قال الرجل الذي كان يحمل الطفل وهو يُحاول فك المنديل الأحمر الذي كان مُلتفًّا حول رقبة الحَمَل ويربطه حول حنجرته البنية الضاربة إلى الحُمرة بشدة حتى أضحى يتنفَّس بصعوبة: «هذا عدلٌ بما فيه الكفاية.» تهامس الغجر فيما بينهم، فسنحت لسيريل الفرصة للهمس هو أيضًا فقال: «سنلوذ بالفرار وقت الغروب.»

عند ذلك امتلأتْ نفوس أشقائه بالإثارة والإعجاب من كونه نبيهًا لتذكُّره هذا الأمر.

قالت جين: «أعطِه لنا، انظر سنجلس هنا ونرعاه من أجلكم حتى يعتاد عليكم.»

قال روبرت فجأة: «وماذا بشأن الغداء؟» فرمقه أشقاؤه بنظرة احتقار، قالت له جين هامسة بغضب: «من العجيب أن تقلق على غدائك البغيض بينما أخو ... أعني بينما الطفل ...» غمز لها روبرت بحذر وأكمل قائلًا:

«هل لديكم مانعٌ إن ذهبتُ إلى المنزل لإحضار غدائنا؟ يمكنني الإتيان به إلى هنا في سلة.»

أحسَّ أشقاؤه كم هم نبلاء، واحتقروه، فلم يكونوا على علمٍ بنيته الخفية هذه، ولكن الغجر سرعان ما أدركوها قائلين: «آه صحيح، ثم عند ذلك تأتون لنا بالشرطة وتزيِّفون كلامكم بأن الطفل لكم وليس لنا!» ثم سألوه قائلين: «هل تريد أن تخدعنا؟»

قالت المرأة الغجرية ذات الشعر الفاتح: «إذا كنتَ جائعًا فيمكنك أن تتناول من بعض طعامنا، خذ يا ليفي هذا الطفل المبارك والذي ستنتثر جميع أزراره من شدة صراخه. أعطه إلى السيدة الصغيرة، ودعنا نرى ما إذا كانوا لا يستطيعون أن يعوِّدوه علينا بدرجةٍ ما أو بأخرى.»

وهكذا أُعيد الحَمَلُ إليهم، ولكن الغجر كانوا قد احتشدوا بالقرب منه فلم يكن هناك فرصةٌ ليكف عن الصراخ، عندئذٍ قال الرجل ذو الوشاح حول عنقه:

«هاك يا فيرو، أشعل النار، وأنتن أيتها الفتيات ترين القِدر، أعطين الفتى ما يأكله.» وهكذا وعلى غير رغبة منهم فقد اضطُر الغجر إلى الانصراف إلى أعمالهم، وبقي الأولاد مع الحَمَل جالسين على العشب.

همسَت جين قائلة: «سيكون على ما يرام عند غروب الشمس، ولكن، أوه، يا له من أمرٍ فظيع! فلنفترض أنهم سيغضبون بشدةٍ عندما يعودون إلى رشدهم! ربما يضربوننا أو يقيدوننا بالأشجار أو شيء من هذا القبيل.»

قالت أنثيا: «لن يفعلوا ذلك، — لا تبكِ يا حَمَلي، توقَّف عن البكاء، كل شيء على ما يرام، أنثيا هنا معك يا محبوبي! — إنهم ليسوا بأشخاصٍ سيئين؛ فلو كانوا كذلك لما سمحوا لنا بأي غداء.»

قال روبرت: «غداء؟ لن ألمس غداءهم المقزز، سأختنق به إن طعِمته.»

كان هذا رأي الآخرين أيضًا، ولكن تأخَّر الغداء كثيرًا إذ فرغوا من إعداده بين الساعتَين الرابعة والخامسة مساءً، وكان الأولاد مسرورين بذلك للدرجة التي جعلَتْهم يلتهمون كل ما استطاعوا التهامه، كان الغداء عبارة عن أرنبٍ مسلوق مع البصل بالإضافة إلى طائرٍ ما يُشبه الدجاج، ولكنه ذو أرجلٍ أنحف منها وأقوى مذاقًا، أما الحَمَل فقد حصل على خبزٍ منقوع بالماء الساخن ومنثور عليه السكر من أعلاه، ولقد أعجبه ذلك كثيرًا، فسمح للمرأتَين الغجريتَين أن تُطعماه، وهو جالس على حجر أنثيا. تعيَّن على روبرت وسيريل وأنثيا وجين أن يُبقوا أخاهم الرضيع على حالةٍ من الاستمتاع والسعادة، بينما كان الغجر ينظرون إليه بشوقٍ ولهفة، وبحلول الوقت الذي صارت ظلال الأشياء أطول وأشدَّ ظُلمة عبر المروج كان قد تعلَّق حقيقة بالمرأة ذات الشعر الفاتح، كما سمح للأطفال بتقبيل يده، كما قبِل أن يقف للرجلَين وينحني، واضعًا يده على صدره كأنه «أحد النبلاء». كان كل مخيم الغجر مبتهجًا به، ولم يستطع أشقاؤه مقاومة الشعور ببعض الاستمتاع في إظهار مقدار مهاراته الصغيرة أمام هذا الجمهور المتابع بشغف وحماسة، ولكنهم كانوا يتوقون أكثر إلى غروب الشمس.

همس سيريل قائلًا: «عدنا لممارسة هواية انتظار غروب الشمس، كنت أتمنى لو طلبنا منه أمنيةً معقولة، تكون ذات فائدة، بحيث نشعر بالأسى على تركها عند غروب الشمس.»

استطالت الظلال أكثر فأكثر، وفي النهاية لم يبقَ هناك ظلالٌ متفرقة بعدُ، بل امتد ظلٌّ لطيف متألِّق يغطِّي كل شيء؛ حيث غابت الشمس عن الأنظار — خلف التلة — ولكن لم تكن غربت بالفعل بعدُ. المشرِّعون الذين يضعون القواعد التي تُنظم إضاءة مصابيح الدراجات هم الذين يقرِّرون وقت غروب الشمس؛ ويتعيَّن على الشمس أن تغرُب في الموعد المحدد، وإلا فستكون العاقبة وخيمةً بالنسبة إليهم!

ولكن الغجر كان صبرهم قد أوشك على النفاد.

قال الرجل ذو الربطة الحمراء: «والآن أيُّها الصغار، حان الوقت لتستريحوا في بيوتكم، وهذا ما سيحدث، الطفل على ما يُرام الآن وأصبح ودودًا معنا، والآن كل ما عليكم فعله هو أن تتركوه وتمضوا إلى حال سبيلكم.»

تجمَّعت النساء والأولاد حول الحَمَل، وكانت كل أذرعهم مفتوحة له، ويطقطقون بأصابعهم ليغروه بالذهاب إليهم، ووجوههم مبتسمة، ولكن كل ذلك لم يفلح في زعزعة

ولاء الحَمَل؛ فقد تشبَّث بكلتا يدَيه ورجلَيه بجين، التي كانت تحمله، وأطلق أسوأ صراخٍ له من أول النهار.

قالت المرأة: «لا فائدة، ناوليني الصغير يا آنسة، سنتمكَّن سريعًا من تهدئته.»

لم تكن الشمس قد غربت بعد.

همس سيريل: «أخبريهم كيف يضعونه في الفراش، قولي أي شيء يمنحنا بعض الوقت، واستعدوا للفرار عندما تتخذ الشمس قرارها الأزلي السخيف بالغروب.»

بدأت أنثيا في الكلام بسرعةٍ كبيرة: «حسنًا، سأناوله لكم خلال دقيقة، ولكن دعوني أخبركم أنه يستحمُّ بماءٍ دافئ كل ليلة، وبحمامٍ بارد كل صباح، ولديه دمية، أرنب من الفخار، تستحم معه في الحمام الدافئ، وتمثالٌ من الخزف الصيني على وسادةٍ حمراء لشخص يتلو صلواته وقت حمام الصباح، ولو تركتم الصابون يدخل في عينَيه فإن الحَمَل ...»

توقف الحَمَل عن البكاء قليلًا ليستمع إلى ما تقوله أنثيا.

ضحكت المرأة قائلة: «كما لو أنني لم أحمِّم طفلًا قط، هيا، هاتِه لنحمله، تعال يا عزيزي، تعال لإميليا.»

قال الحَمَل: «ابتعدي.»

أكملت أنثيا: «حسنًا، ولكن بالنسبة إلى وجباته، فلتعلمي أنه يحصل على تفاحةٍ أو موزةٍ كل صباح، وخبزٍ وحليبٍ على الإفطار، وبيضةٍ واحدةٍ قبل الشاي أحيانًا و...»

قالت المرأة ذات الشعر الأسود الملفوف في حلقات: «لقد ربَّيتُ عشرة أطفال بالإضافة لآخرين، هيا يا آنسة، لقد بلغت نهاية النقاش هنا، ولا يمكنني تحمُّل المزيد، أريد أن أعانقه.»

قال أحد الرجال: «لم نقرِّر بعدُ من الذي سيأخذه يا إستر.»

لكنه لن يكون أنتِ الذي سيأخذه يا إستر؛ فلديكِ سبعة أطفال يتبعونك بالفعل.»

قال زوج إستر: «أنا لست واثقًا تمامًا من ذلك.»

قال زوج إميليا: «وهل ليس لديَّ الحق في أنا أُبديَ رأيًا أنا أيضًا؟»

قالت الفتاة زيلا: «ولمَ لا يكون أنا من يأخذه؟ فأنا فتاةٌ عزباء وليس هناك من أعتني به، ينبغي أن آخذه أنا.»

«كفِّي عن الكلام!»

«إياك أن تُحدِّثَني بهذه الوقاحة!»

كان الجميع غاضبًا بشدة. وكانت الوجوه الغجرية الداكنة عابسةً ومتحفزة. وفجأة تبدَّل حالهم، كما لو أن بعض الإسفنجات الخفية قد مسحت هذه التعبيرات الغاضبة والقلقة، ولم تترك سوى وجوهٍ خالية من التعابير.

علم الأولاد أن الشمس قد غابت حقًّا، لكنهم كانوا خائفين من التحرك. وكان الغجريون مشوشين للغاية؛ بسبب الإسفنج الخفي الذي غسل كل مشاعر الساعات القليلة الماضية من قلوبهم، لدرجة أنهم لم يستطيعوا النطق بكلمةٍ واحدة.

كادت تنقطع أنفاس الأطفال؛ فقد كانوا يظنُّون أن الغجر عندما يستعيدون قدرتَهم على الكلام، سيغضبون عندما يفكرون في مدى سخافة ما كانوا عليه طوال اليوم.

لقد كانت لحظةً مربكة وحرجة، وفجأة وبجرأةٍ كبيرة حملَت أنثيا الحَمَل إلى الرجل ذي الربطة الحمراء حول عنقه.

وقالت: «ها هو ذا!»

تراجَع الرجل إلى الخلف قائلًا بصوتٍ أجش: «ما كان ينبغي أن أرغب في حرمانك منه يا آنسة.»

قال الرجل الآخر: «كل من يرغب في نصيبي منه، يمكنه أخذه.»

قالت إستر: «على كل حال، لديَّ الكفاية من الأولاد.»

قالت إميليا: «مع إنه طفلٌ صغير لطيف.» وكانت هي الوحيدة التي بدَت حانية تجاه الحَمَل المتذمِّر.

قالت زيلا: «أنا لا أريده، ما لم أكن قد أُصبتُ بضربة شمس.»

قالت أنثيا: «هل يمكننا إذن أن نأخذه ونمضي؟»

قال فيرو بمودةٍ تامة: «حسنًا، أعتقد أنكم يمكنكم ذلك، ولن نتطرق إلى هذا الأمر مرةً أخرى.»

وبسرعةٍ كبيرة بدأ جميع الغجر في الانشغال بنصب خيامهم استعدادًا لحلول الليل. جميعهم انشغل بذلك ما عدا إميليا، التي ذهبت مع الأطفال حتى منحنى الطريق، وهناك قالت:

«اسمحي لي أن أعطيَه قبلةً يا آنسة — لا أدري ما الذي جعلنا نتصرف بتلك السخافة؛ فنحن الغجر لا نسرق الأطفال — برغم كل ما أخبروكم به ليخيفوكم منا عندما تكونون أشقياء؛ فغالبًا يكون لدينا ما يكفي من الأطفال، لكنني فقدتُ كل أولادي.»

وانحنت نحو الحَمَل. ورفع بشكلٍ غير متوقع — وهو ينظر في عينَيها — يده الناعمة الصغيرة وداعب بها وجهها.

تمتم الحَمَل قائلًا: «مسكينة! مسكينة!» وسمح للمرأة الغجرية بتقبيله، والأكثر من ذلك، أنه قبَّلها في خدها البني بدوره قبلةً لطيفةً جدًّا، كما هي الحال مع جميع قبلاته، والتي لا تكون رطبة مثل بعض الأطفال. حرَّكت المرأة الغجرية إصبعها على جبينه، كما لو كانت تكتب شيئًا عليه، وقد فعلَت الشيء نفسه على صدره ويدَيه وقدمَيه؛ ثم قالت:

«أتمنى أن يصبح شجاعًا، وأن يمتلك عقلًا فذًّا يفكِّر به، وقلبًا شغوفًا يحب به، ويدَين قويتَين يعمل بهما، ورجلَين قويتَين يسافر بهما، كما أتمنى أن يعود إلى بيته سالمًا دومًا.» ثم قالت شيئًا بلغةٍ غريبة لم يستطع أحد فهمها، وأضافت فجأة:

«حسنًا، يجب أن أقول إلى اللقاء، وأنا سعيدة لأنني تعرفتُ عليكم.» والتفتَت وعادت إلى منزلها؛ الخيمة التي بجانب الطريق العشبي.

تبعها الأطفال بأبصارهم حتى غابت عن الأنظار. ثم قال روبرت: «يا لسخافتها! حتى غروب الشمس لم يُرجِعها إلى صوابها. كم كان كلامها أبله!»

قال سيريل: «لو سألتني عن رأيي لقلتُ لك كم كان هذا لطيفًا منها!»

قالت أنثيا: «لطيفًا؟ لقد كان هذا جميلًا جدًّا في الحقيقة، أعتقد أنها شخصٌ ودود.»

قالت جين: «إنها لطيفةٌ أكثر من اللازم على نحو يبعث على الخوف.»

ثم عادوا إلى المنزل، وقد تأخَّروا للغاية عن موعد احتساء الشاي وتأخَّروا على نحوٍ لا يُوصف عن موعد تناوُل العشاء. وقد وبَّخَتْهم مارثا — بالطبع — لكن الحَمَل كان آمنًا إذ لم ينل شيئًا من هذا التوبيخ.

وقال روبرت في وقتٍ لاحق: «لقد اتضح أننا كنا نريد الحَمَل بشدة مثل أي شخصٍ آخر.»

«أجل.»

«ولكن هل تغيَّر هذا الشعور بعد أن غَربَت الشمس؟»

قال الآخرون في صوتٍ واحد: «لا، لقد دام هذا الشعور معنا حتى بعد الغروب.»

قال سيريل موضحًا: «لا، لم يحدث ذلك؛ فالأمنية التي تمنيتَها لم تفعل بنا أي شيء؛ فنحن كنا نريده دائمًا من كل قلوبنا في الأصل، لكننا كنا جميعًا وضعاء هذا الصباح؛ خاصة أنت يا روبرت.» تقبَّل روبرت هذا الكلام بهدوءٍ غريب.

وقال: «ظننتُ بالتأكيد أنني لم أكن أريده هذا الصباح، ربما كنت وضيعًا، ولكن بدا كل شيء مختلفًا للغاية عندما اعتقدنا أننا سنفقده.»

الفصل الرابع

الأجنحة

كان الصباح التالي غزير المطر لدرجة تجعل الخروج فيه صعبًا للغاية ولا تجعلك تفكر في إزعاج عفريت الرمال الحسَّاس جدًّا تجاه الماء لدرجة أنه لا يزال — رغم انقضاء آلاف السنين — يشعر بالألم منذ حادثة الماء الذي بلَّل شاربه الأيسر ذات مرة. كان يومًا طويلًا، وبعد الظهر، قرَّر جميع الأطفال فجأةً كتابة رسائل إلى والدتهم. كان روبرت هو سيئ الحظ الذي قلب وعاء الحبر — الذي كان عميقًا وممتلئًا على غير المعتاد — مباشرة على ذلك الجزء من مكتب أنثيا التي كانت تتظاهر منذ فترةٍ طويلة بأن بعض الصمغ والورق المقوَّى المطلي بالحبر الهندي كان عبارةً عن درجٍ سري. لم يكن خطأ روبرت بالضبط، بل لم يكن سوى سوء حظه أنه تصادف أن رفع الحبر عبر المنضدة في اللحظة التي كانت فيها أنثيا قد فتحَت درجها، وأن تلك اللحظة بالذات هي اللحظة التي اختارها الحَمَل ليضع نفسه تحت الطاولة ويكسر طائره الصيَّاح. كان هناك سلكٌ حادٌّ وطويل بداخل الطائر، وبالطبع لم يتأخر الحَمَل عن وضعه أمام قدم روبرت في الحال، وهكذا دون قصد أي أحد، أضحى الدرج السري ممتلئًا بالحبر، الذي سال في ذات اللحظة على رسالة أنثيا نصف المكتملة، حتى صار خطابها لأمها كما يلي:

> أمي الغالية، أرجو أن تكوني على ما يرام، وأرجو أن تكون صحة جدتي قد تحسنَت. منذ بضعة أيام، كنا ...

ثم غمر فيضٌ من الحبر بقية الصفحة، وفي أسفل الصفحة كانت هناك هذه الكلمات بالقلم الرصاص:

> لم أكن أنا من سكب الحبر، لقد استغرقتُ وقتًا طويلًا في محاولة تنظيفي له؛ لذا فلن أقول المزيد حيث حان الوقت لإرسال الرسالة بالبريد. من ابنتكِ المحبة أنثيا.

لم يكن روبرت قد بدأ رسالته بعدُ؛ فقد كان يرسم سفينة على ورقة النشَّاف محاولًا التفكير فيما يقول. وبالطبع بعد أن سكب الحبر، اضطُر إلى مساعدة أنثيا في تنظيف مكتبها، ووعد بصنع درجٍ سري آخر لها، أفضل من الذي أفسده الحبر، فقالت: «حسنًا، اصنعه الآن.» لذا فقد حان وقت إرسال الرسائل بالبريد ولم يكن قد كتب رسالته. كما لم يكن قد صنع الدرج السري أيضًا.

أما سيريل فقد كتب — بسرعةٍ كبيرة — رسالةً طويلة، ثم ذهب لنصب مصيدةٍ لبزاقة الحديقة، التي قرأ عنها في كتاب «دليل تنسيق حديقة المنزل»، وعندما حان وقت إرسال الرسائل لم يعثر على رسالته، كما لم يعثر عليها بعد ذلك، ربما قد تكون البزاقات قد التهمتها.

لم يُرسَل سوى خطاب جين. أرادت أن تخبر والدتها بكل شيء عن عفريت الرمال. في الواقع، أراد جميعهم ذلك، لكن جين قضت وقتًا طويلًا في التفكير في تهجئة الكلمة حتى لم يعُد هناك وقت لأن تحكي القصة كما ينبغي، ومن غير المجدي أن تحكيَ القصة ما لم تحكِها كما ينبغي؛ لذلك كان عليها أن تكتفيَ بهذا:

أمي العزيزة الغالية

كلنا على ما يُرام بقدْرِ ما نستطيع، كما قلتِ لنا. ورغم أن الحَمَل الصغير مصاب بنزلة برد، تقول مارثا إنه أمرٌ بسيط. كل ما هنالك أنه سكب حوض الأسماك الذهبية على نفسه صباح أمس. وعندما وصلنا إلى الحفرة الرملية في اليوم الآخر، ذهبنا عبر الطريق الآمن حول الحفرة حيث تذهب العربات، ووجدنا ...

مرَّت نصف ساعة قبل أن تتأكَّد جين من عدم قدرتهم على تهجِّي كلمة «سامياد». كما لم يجدوها في القاموس أيضًا، رغم بحثهم؛ عند ذلك أنهت جين رسالتها بسرعة.

وجدنا شيئًا غريبًا، لكن الوقت قد حان لإرسال الرسالة؛ لذا فلن أقول المزيد.

ابنتك الصغيرة

جين

ملحوظة: لو أمكن لأمنيتك أن تتحقَّق، فماذا كنتِ ستتَمنَّين؟

ثم سُمع ساعي البريد وهو ينفخ بوقه، فهرُع روبرت في المطر لإيقاف عربته وإعطائه الرسالة؛ هذا ما حدث، على الرغم من أن جميع الأطفال كانوا يقصدون إخبار والدتهم عن عفريت الرمال، لكنها بطريقة أو بأخرى لم تعلم أبدًا. كانت هناك أسبابٌ أخرى لئلا تعلم أبدًا، ولكن هذه الأسباب ستأتي لاحقًا.

في اليوم التالي، جاء العم ريتشارد وأخذهم جميعًا إلى ميدستون في عربة ذات أربع عجلات؛ جميعهم باستثناء الحَمَل. كان العم ريتشارد أفضل ما يكون من الأعمام؛ فقد اشترى لهم الألعاب في ميدستون، وأخذهم إلى المتجر وسمح لهم باختيار ما يريدون بالضبط، دون أي قيود على السعر، ولا ذلك الهراء حول الأشياء التي يجب أن تكون مفيدة؛ فمن تمام الحكمة السماح للأطفال باختيار ما يحبونه تحديدًا؛ لأنهم حمقى وقليلو الخبرة للغاية، وأحيانًا سيختارون شيئًا مفيدًا حقًّا دون قصد. حدث ذلك لروبرت، الذي اختار، في اللحظة الأخيرة، وبسرعةٍ كبيرة، صندوقًا به صورٌ لثيران مجنَّحة برءوس رجال ورجالٍ مجنَّحين برءوس نسور. لقد ظن أنه سيكون هناك حيوانات في الداخل، كما هو مرسومٌ على الصندوق، ولكن عندما وصل إلى المنزل اتضح أنه لغز يشبه لغز جريدة يوم الأحد حول مدينة نينوى القديمة! اختار الآخرون لُعبهم بسرعة، وكانوا سعداء باللعب بها في أوقات فراغهم. كان لدى سيريل لُعبةٌ عبارة عن قاطرةٍ بخارية، أما الفتاتان، فكان لديهما دميتان، بالإضافة إلى مجموعة أواني شاي من الصيني عليها زهرة أذن الفأر البرية. أما الصبيَّان فكانا يلعبان لُعبة القوس والسهام.

ثم اصطحبَهم العم ريتشارد في رحلةٍ في نهر ميدواي الجميل على متن أحد القوارب، وبعد ذلك تناولوا الشاي في محلٍّ جميل لصنع الحلويات، وعندما وصلوا إلى المنزل، كان قد فات الأوان بحيث أصبح من غير الممكن أن يتمنَّوْا أي أمنياتٍ في ذلك اليوم.

لم يخبر الأولاد العم ريتشارد بأي شيء عن عفريت الرمال. لا أعرف السبب. كما أنهم لا يعرفون السبب. لكنني أعتقد أنه يمكنك التخمين.

كان اليوم الذي تلا الزيارة الرائعة لعم ريتشارد، يومًا حارًّا للغاية بالفعل. قال الأشخاص الذين يُعلنون عن حالة الطقس في الصحف كل صباح إن ذلك اليوم كان أشد أيام الصيف حرارة. لقد قرروا أن الطقس «أشد حرارةً وممطر بعض الشيء»، وكان أشد حرارة بالتأكيد. في الواقع، كان الطقس مشغولًا للغاية بأن يكون أشدَّ حرارةً حتى إنه لم يكن لديه وقتٌ ليهتمَّ بمسألة سقوط المطر؛ لذا لم يكن هناك مطر.

هل سبق لك أن استيقظتَ في الساعة الخامسة في صباح يومٍ صيفيٍّ رائعٍ؟ إنه شعور رائعٌ جدًّا. أشعة الشمس وردية وصفراء، وقد غطَّى الندى الألماسي جميع الأعشاب

والأشجار. وجميع الظلال قد سلكَت الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي تسلكه في المساء، وهو أمرٌ مثير للاهتمام للغاية ويجعلك تشعر كما لو كنتَ في عالمٍ آخر جديد.

استيقظت أنثيا في الساعة الخامسة، لقد أيقظت نفسها، ويجب أن أقول لكم كيف يمكن فعل ذلك، حتى لو جعلكم ذلك تنتظرون استكمال القصة.

تنام على السرير ليلًا، وتستلقي بشكلٍ مسطَّح على ظهرك الصغير مع بسط ذراعَيك على امتداد جانبيك، ثم تقول: «يجب أن أستيقظ في الخامسة.» (أو السادسة أو السابعة أو الثامنة أو التاسعة أو أي وقت تريده)، وبينما تقول ذلك تضغط ذقنك لأسفل على صدرك ثم تخبط مؤخرة رأسك بالوسادة. وتفعل ذلك بعدد الساعات التي تود القيام فيها (مسألةٌ حسابية سهلة للغاية). بالطبع يعتمد كل شيء على صدق رغبتك في الاستيقاظ في الساعة الخامسة (أو السادسة أو السابعة أو الثامنة أو التاسعة)؛ أما إذا كنت لا تريد ذلك بصدق، فلا جدوى من فعل ذلك، ولكن إذا كنت ترغب بصدق في ذلك، فلتجرِّب وتتأكد من ذلك بنفسك. بالطبع في هذا الأمر — كما هي الحال في تعلُّم اللغة اللاتينية مثلًا أو الانزلاق إلى سلوكٍ سيئ — مع الممارسة يأتي الإتقان. وكانت أنثيا تتقن هذا الأمر تمامًا.

في اللحظة التي فتحت فيها عينَيها، سمعت الساعة ذات اللونَين الأسود والذهبي التي في حجرة الطعام السفلية وهي تدق معلنةً تمام الحادية عشرة، فعلِمَت أنه متبقٍّ ثلاث دقائق حتى تكون الساعة الخامسة. كانت الساعة ذات اللونَين الأسود والذهبي تشير إلى الوقت الخاطئ دومًا، لكن الأمر يُصبح لا بأس به عندما تعلم الوقت المقصود بالفعل. كان الأمر أشبه بشخصٍ يتحدَّث لغةً أجنبية، فإذا كنت تعرف هذه اللغة، فمن السهل أن تفهمها مثلما تفهم اللغة الإنجليزية تمامًا. وكانت أنثيا تعرف ما تشير إليه الساعة. كانت تشعر بالنعاس الشديد، لكنها قفزَت من السرير ووضَعَت وجهها ويدَيها في حوضٍ من الماء البارد. وهذا له تأثير السحر إذ يحدُّ من رغبتك في العودة إلى السرير مرةً أخرى، ثم ارتدت ثيابها وطوَتْ ثوب النوم. وهي لم تطوِه دون اكتراث، بل طوَتْه من عند الأكمام وثنَتْه من المنتصف حتى صار كل نصفٍ منطبقًا على الآخر، وهذا يُظهر لك قدْر التربية الحسنة التي نعِمَت بها هذه الفتاة الصغيرة.

ثم أخذَت حذاءها في يدها وتسلَّلت بهدوءٍ أسفل الدرج، وفتحَت نافذة غرفة الطعام وتسلَّقَتْها إلى الخارج. لقد كان من السهل الخروج من الباب بالقدْر نفسه، لكن تسلُّق النافذة كان أكثرَ رومانسية، كما كان يقلِّل من احتمالات أن تراها مارثا.

قالت لنفسها: «سأستيقظ دائمًا في الساعة الخامسة، لقد كان ذلك رائعًا للغاية أكثر من أي شيءٍ آخر.»

كان قلبها يدقُّ بسرعةٍ كبيرة؛ لأنها كانت تُنفِّذ خطةً خاصةً بها. لم تكن متأكدةً من أنها كانت خطةً جيدة، لكنها كانت متأكدةً تمامًا من أنه لن يكون من الأفضل أن تخبرَ الآخرين عنها. كان لديها شعور أنها — بصرف النظر عن كونها على صوابٍ أو خطأ — تفضِّل أن تمضيَ في الأمر بمفردها. ارتدَت حذاءَها تحت الشرفة الحديدية، على البلاط المتلألئ باللونَين الأحمر والأصفر، ثم ركضَت مباشرة باتجاه الحفرة الرملية، واستطاعَت العثور على مكان عفريت الرمال، فحفرتْه؛ كان عفريت الرمال غاضبًا جدًّا.

قال وهو ينفش فراءه كما ينفش الحمام ريشه في وقت عيد الميلاد: «إنه لأمرٌ سيئ للغاية، فالطقس قارس البرودة، ونحن في منتصف الليل.»

قالت أنثيا بلطفٍ وقد خلعت مئزرها الأبيض وغطَّت به عفريت الرمال: «أنا آسفة للغاية.» وغطَّتْه كله ما عدا رأسه وأذنَيه المضطربتَين وعينَيه اللتينِ كانتا تُشبهان عينَي الحلزون.

قال عفريت الرمال: «شكرًا لكِ، هكذا أفضل، ما هي أمنية هذا الصباح؟»

قالت: «لا أعرف، هذا كل ما في الأمر. أتعلم أننا كنا منحوسين للغاية، حتى الآن؟ كنتُ أرغب في التحدُّث معك حول هذا الموضوع، ولكن هل تمانع ألا تحقِّق أي أمنية لي إلى أن نفرغ من تناوُل طعام الإفطار؟ من الصعب للغاية التحدُّثُ إلى شخصٍ فاجأك بأمنياتٍ لا تريدها حقًّا!»

«ينبغي عليكِ ألَّا تتمنَّي أشياء لا ترغبين فيها بصدق، في الماضي كان الناس يعرفون ما إذا كانوا يرغبون حقًّا في تناول الميجاثيريم أو الإكتيوسوروس على الغداء.»

قالت أنثيا: «سأحاول ألَّا أفعل، لكنني أتمنى ...»

قال عفريت الرمال بنبرةٍ تحذيرية وقد بدأ في الانتفاخ: «احذري!»

«أوه، هذه ليست أمنيةً سحرية — إنني فقط — سأكون سعيدةً جدًّا إذا لم تُضخِّم نفسك حتى تكاد تنفجر لتمنحني أي شيءٍ الآن. انتظر حتى يأتي الآخرون.»

قال مسايرًا لها، لكنه كان يرتجف: «حسنًا، حسنًا.»

سألت أنثيا بلطف: «هل تريد أن تأتيَ وتجلسَ في حِجري؟ سوف تشعر بمزيدٍ من الدفء، ويمكن أن أقلب تنُّورة الفستان المحيط بك لتغطيك. وسأكون حذرةً جدًّا.»

لم تتوقَّع أنثيا على الإطلاق أنه سيفعل، ولكنه فعل ذلك.

قال: «شكرًا لكِ، يا لكِ من مراعيةٍ لحقوق الآخرين ومشاعرهم بحق!» تسلَّق ذراعَيها ثم انكمش على نفسه مستدفئًا، فأحاطَته بذراعَيها برفقٍ بالغ، ثم قال: «والآن ماذا؟»

قالت أنثيا: «حسنًا، كل شيء تمنَّيناه أصبح سيئًا كريهًا في نهاية المطاف، وأتمنَّى أن تنصحنا أنت؛ فأنت كبير السن، ولا بد أنك حكيمٌ للغاية.»

قال عفريت الرمال: «لطالما كنتُ كريمًا منذ طفولتي، ولقد قضيتُ كل ساعات يقظتي في العطاء، ولكن الشيء الوحيد الذي لن أُعطيه لأحد؛ هو النصيحة.»

استمرَّت أنثيا في الكلام قائلة: «أتعرف، إنه لشيءٌ رائع، ومذهل، وإنها لفرصةٌ مجيدة، وهو أمرٌ بالغ العطف والطيبة منك أن تُحقِّق لنا كلَّ ما نتمنَّاه، ولكنه من المؤسف أن تضيع كلها لأننا ساذجون جدًّا لدرجة ألَّا نعلم ما يجب أن نتمناه.»

كانت أنثيا تقصد قولها ذلك — ولم تكن تريد أن تقوله أمام الآخرين؛ فأن تقول إنك ساذج شيءٌ، وأن تقول إن الآخرين سُذَّج شيءٌ آخر تمامًا.

قال عفريت الرمال وهو يغالب النعاس: «أيتها الطفلة، كل ما يمكنني نُصحُكم به هو أن تفكِّروا قبل أن تتحدَّثوا ...»

«ولكنني ظننتُ أنك لن تسدي نصيحة أبدًا.»

قال: «هذه لا تُحتسبح فأنتم لن تأخذوا بها أبدًا، كما أنها ليست جديدة، بل مكررة في جميع كراسات الخط.»

«ولكن، هل لك أن تخبرني ما إذا كانت الأجنحة أمنيةً سخيفة؟»

قال: «أجنحة؟ كان يجب أن أفكِّر أنكم قد تفعلون ما هو أسوأ. فقط، احرصوا على ألَّا تطيروا عاليًا عند غروب الشمس؛ فقد كان صبيٌّ صغير يُدعى نينيفيت سمعت عنه ذات مرة. كان أحد أبناء الملك سنحاريب، وقد أهداه أحد الرحالة عفريت رمال. واعتاد أن يبقيه في صندوق من الرمال على شرفة القصر. لقد كانت إهانةً مُروِّعة لواحد من بني جنسنا بالطبع؛ لكن الصبي كان ابن الملك الآشوري. وذات يومٍ تمنَّى الجناحين وحصل عليهما، لكنه نسي أنهما يتحولان إلى حجر عند غروب الشمس، وعندما تحولا سقط مرتطمًا بأحد الأسود المجنَّحة في أعلى مدرج السلالم العظيم لوالده؛ وبسبب أجنحته الحجرية وأجنحة الأسود الحجرية ... حسنًا، إنها ليست بالقصة الجميلة، لكنني أعتقد أن الصبي قد أستمتع كثيرًا حتى حان وقت سقوطه.»

قالت أنثيا: «أخبرني، لماذا لا تتحول أمنياتنا إلى أحجار الآن؟ لماذا تختفي فحسب؟»

قال عفريت الرمال بالفرنسية: «كل زمان وله أحكامه.»

سألته أنثيا: «هل هذه لغة نينيفيت؟ الذي لم يتعلم في مدرسته أي لغةٍ أجنبية سوى الفرنسية؟»

أردف عفريت الرمال: «ما أقصده هو أنه في الأيام الخوالي كان الناس يتمنَّوْن الحصول على هدايا يوميةٍ ماديةٍ جيدة — الماموث والزواحف المجنَّحة وغيرها — ويمكن تحويل تلك الأشياء إلى حجر بسهولةٍ كبيرة، لكن الناس يرغبون في مثل تلك الأشياء الخيالية الفائقة هذه الأيام، فكيف تحولين الجمال الفائق إلى حجارة، أو تحولين أمنية أن يحبك الجميع إلى حجارة؟ لا يمكن فعل ذلك. ولن يكون مجديًا أبدًا أن يكون لديك قاعدتان متعارضتان؛ لذا فهي تختفي ببساطة. ولو أمكن للجمال الفائق أن يتحول إلى حجارة، فسيستمر فترةً طويلة جدًّا، كما تعلمين؛ أطول بكثيرٍ مما تعتقدين. انظري فقط إلى التماثيل اليونانية. سيكون الأمر مشابهًا لذلك جدًّا، وداعًا. أشعر بنعاسٍ شديد.»

قفز عفريت الرمال من حِجرها وجعل يحفر على نحوٍ هستيري ثم اختفى في الرمال.

كانت أنثيا متأخرةً عن موعد تناوُل الإفطار. وكان روبرت هو من سكب بهدوء ملعقةً من العسل الأسود على كنزة الحَمَل، بحيث تطلَّب الأمر نقله وغسله جيدًا بعد الإفطار مباشرة. وكان فعله ذلك بالطبع سيئًا للغاية. ومع ذلك فقد كان جيدًا لسببين؛ لقد أسعد الحَمَل، الذي أحب أن يكون لزجًا تمامًا، وشغل انتباه مارثا بالحَمَل حتى يتمكَّن الآخرون من التسلُّل إلى الحفرة الرملية دون أن يصطحبوا الحَمَل معهم.

وقد فعلوا. وفي الطريق قالت أنثيا التي كانت تلهث من الركض أثناء التسلُّل وهي تلفظ أنفاسها بصعوبة:

«أريد أن أقترحَ عليكم تناوُبَ الأُمنيات فيما بيننا، ولكن بشرط ألَّا يتمنَّى أحدُنا أمنيةً إلا إذا اعتقد الآخرون أنها أمنيةٌ جيدة. هل توافقون؟»

سأل روبرت بحذر: «ولمن ستكون الأُمنية الأولى؟»

قالت أنثيا عَلَى نحوٍ تبريري: «ستكون لي أنا، إن لم تمانعوا، وقد فكرتُ فيها، وهي أن يصير لدينا أجنحة.»

ساد الصمت. والتمس الآخرون خطأً أو تلعثمًا فيما قالت، لكن ذلك كان صعبًا؛ لأن كلمة «الأجنحة» حرَّكت نوعًا من الإثارة المبهجة في صدرِ كلٍّ منهم.

قال سيريل بتكرُّم: «ليس بالسيئ جدًّا.» وأضاف روبرت: «حقًّا، أيتها النمِرة، أنتِ لستِ حمقاء أبدًا كما يبدو عليكِ.»

قالت جين: «أعتقد أن التجربة ستكون رائعة. الأمر أشبه بحلمٍ متألقٍ جميلٍ نُحلِّق فيه بخيالنا.» وجدوا عفريت الرمال بسهولة. قالت أنثيا:

«أتمنى أن يكون لدينا جميعًا أجنحةٌ جميلةٌ لنطير بها.»

نفخ عفريت الرمال نفسه، وفي اللحظة التالية انتاب كلَّ طفل شعورٌ جميلٌ ومثير؛ فقد أحسُّوا بشيء ليس بالثقيل جدًّا ولا الخفيف جدًّا على أكتافهم. أمالَ عفريت الرمال رأسَه على أحد جانبَيه وأخذ ينظر بعينَيه الحلزونيتَين إلى كل واحدٍ منهم.

قال عفريت الرمال على نحوٍ حالم: «ليس سيئًا للغاية، ولكن حقًّا يا روبرت، أنت لستَ ذلك الملاك الذي تبدو عليه.» كاد وجه روبرت يحمَرُّ خجلًا.

كانت الأجنحة كبيرةً جدًّا، وأكثر جمالًا مما تتخيَّل فقد كانت ناعمةً وسلسة، وكانت كلُّ ريشةٍ موضوعةً في مكانها بدقَّة. كان الريش يحمل ألوانًا جميلة، متغيرة وممزوجة، أشبه بألوان الطيف، أو الزجاج قزحي اللون، أو الزبد الجميل الذي يطفو في بعض الأحيان على سطح الماء الذي لا يصلح للشرب على الإطلاق.

قالت جين وهي تقف بتلهُّفٍ على قدمٍ ثم تقف على الأخرى: «أوه، ولكن هل يمكنُنا الطيران؟»

قال سيريل: «احترسي! أنتِ تطئين على جناحي.»

سألت أنثيا باهتمام: «هل هي مؤلمة؟» لكن لم يُجبها أحدٌ؛ لأن روبرت كان قد بسط جناحَيه وقفز، وهو الآن يرتفع ببطءٍ في الهواء. لقد بدا أخرقَ للغاية في بدلتِه ذات البنطال القصير — وقد تدلَّى حذاؤه على وجه الخصوص بلا حول ولا قوة، وبدا الحذاء أكبر بكثيرٍ مما كان عليه عندما كان على الأرض، لكن الآخرين لم يُظهروا أيَّ اهتمامٍ بالهيئة التي بدا عليها أو بدَوا هم عليها؛ فحينذاك، بسطوا جميعًا أجنحتهم وحلَّقوا في الهواء. بالطبع، جميعكم يعرف كيف يكون شعور المرء عندما يطير؛ لأن كل شخصٍ قد حَلَم بأنه يطير، وخُيِّل لكم أنه من السهل جدًّا فِعله، غير أنه لا يمكنكم أبدًا أن تتذكَّروا كيف فعلتم ذلك؛ وكقاعدة، عليك أن تفعل ذلك من دون أجنحة، في أحلامك، وهو شيءٌ بارع واستثنائي، لكن ليس من السهل للغاية تذكُّرُ القاعدة التي تُتَّبع في هذا الأمر. الآن ارتفع الأطفال الأربعة وهم يرفرفون عن الأرض، ولا يمكنك تخيُّل الشعور الجميل بالهواء الذي يداعب وجوههم. كانت أجنحتهم عريضةً للغاية عند بسطها، وكان يتعيَّن على كلٍّ منهم أن يبقى على مسافةٍ كبيرة من بعضهم بعضًا حتى يتفادى أيٌّ منهم الدخول في مجال طيران الآخر، لكنَّ أشياءَ بسيطة مثل هذه يمكن تعلُّمها بسهولة.

كل الكلمات التي يحتويها قاموس اللغة الإنجليزية، والمعجم اليوناني كذلك، أجدها عاجزة تمامًا عن وصف شعور المرء حال طيرانه؛ لذا فلن أحاول وصف ذلك الشعور لكم، ولكن كل ما يمكنني قولُه هو أن النظر من الأعلى على الحقول والغابات، بدلًا من النظر إليها وأنت في الأسفل، يبدو كالنظر إلى خريطةٍ حيةٍ جميلة، بدلًا من النظر إلى الألوان السخيفة على الورق؛ فأنت ترى الغابات المشرقة والحقول الخضراء المتحركة واحدًا تلو الآخر، وكما قال سيريل — ولا أدري من أين جاءتْه فكرة هذا التعبير الغريب: «إن ذلك يمنحك تجربةً من نوعٍ خاص!» لقد كانت أروع أمنية تمنَّاها الأولاد، وأشبهَ ما تكون بحقيقةٍ عن كونها سحرًا. لقد رفرفوا وطاروا وأبحروا على أجنحتهم ذات ألوان الطيف الرائعة، بين الأرض الخضراء والسماء الزرقاء، ثم حلَّقوا فوق روتشستر ثم انحرفوا باتجاه ميدستون، وفي التوِّ بدءوا جميعًا يشعرون بالجوع الشديد. من الغريب أن هذا حدث عندما كان الطيران منخفضًا تمامًا؛ حيث كانوا يعبُرون بستانًا تألَّقت فيه بعض بشائر ثمار البرقوق حمراءَ وناضجة.

أوقفوا الأجنحة. لا أستطيع أن أشرح لك كيف حدث ذلك، لكن الأمر يشبه دَعسكَ الماء عندما تسبح، والصقور يفعلون ذلك على نحوٍ جيد للغاية.

قال سيريل — رغم أن أحدًا لم يقل شيئًا: «نعم، يمكنني القول إن السرقة تظل سرقة حتى لو كانت لديكم أجنحة.»

قالت جين بانفعال: «هل تعتقد ذلك؟ فلو كان لك جناحان فأنت طائر، ولا يمانع أحدٌ أن تخالفَ الطيور قواعد السلوك، أو على الأقل قد يمانعون لكن الطيور تفعل ذلك دومًا، ولا يوبِّخهم أحد، ولا يُودعون في السجن.»

لم يكن من السهل الهبوط على إحدى أشجار البرقوق كما تظن؛ لأن الأجنحة ذات ألوان الطيف كانت كبيرة جدًّا؛ لكن بطريقة ما تمكَّنوا من فعل ذلك، وكان البرقوق بالتأكيد حلو المذاق وغضًّا.

لحسن الحظ، كانوا قد أخذوا من ثمار البرقوق الجيد كفايتهم قبل أن يرَوْا رجلًا بدينًا، كان، على ما بدا لهم، صاحب أشجار البرقوق، وقد أتى على عجلٍ عَبْر بوابة البستان ومعه عصًا غليظة، فحرَّروا جميعًا أجنحتهم من الفروع المحمَّلة بالبرقوق وبدءوا في الطيران.

توقَّف الرجل فجأة، فاغرًا فاه؛ فعندما رأى أغصان أشجاره تتحرَّك وتنتفض بقوةٍ قال لنفسه: «اللئام الصغار عادوا من جديد!» وكان قد خرج لتوِّه؛ لأن صبية القرية قد

علَّموه في المواسم الماضية أن البرقوق يحتاج إلى الاعتناء به، لكن عندما رأى أن الأجنحة ذات ألوان الطيف ترفرف من شجرة البرقوق، أحس أنه قد جُن جُنونه لا محالة، ولم يرُق له هذا الشعور على الإطلاق. وعندما نظرت أنثيا إلى الأسفل ورأت فمه ينفتح ببطءٍ، ويبقى كذلك، بينما يُمتقَع وجهه، نادَتْ عليه قائلةً:

«لا تخف.» وبحثَت بسرعةٍ في جيبها عن العملة المعدنية المثقوبة التي قيمتها ثلاثة بنسات، والتي كانت تنوي تعليقها في شريط حول عنقها، طلبًا للحظ. حامت حول مالك البرقوق السيئ الحظ، وقالت: «لقد تناولنا بعض البرقوق؛ وظننَّا أن ذلك لا يُعد سرقة، لكنني الآن لست متأكدة؛ لذلك هاك بعض المال ثمنًا لما أخذناه.»

هبطَت نحو مُزارع البرقوق المصاب بالرعب، وألقت العملة المعدنية في جيب سترته، وبقليلٍ من الخفقان بجناحَيها، انضمَّت إلى الآخرين من جديد.

هوى المُزارع جالسًا على الحشائش فجأة وبقوة.

قال: «حسنًا، هل أصابني الجنون؟! أعتقد أن هذا ما يدعونه بالأوهام، ولكن هناك عملة البنسات الثلاثة.» وأخرجها من جيبه وعَضَّ عليها، وقال: «إنها حقيقية بما فيه الكفاية، حسنًا بَدءًا من اليوم سأكون إنسانًا أفضل، إن ما حدث هو من الأمور التي تدفع المرء إلى التعقُّل والحكمة على مدار حياته؛ تلك هي حقيقة الأمر، لكنني سعيدٌ بأن الأمر لم يتجاوز الأجنحة، رغم أنني كنت أفضِّل لو أنني رأيت طيورًا غريبة المنظر — على نحو لا يحدث أو يستحيل حدوثه — حتى ولو تظاهرت بأنها تتحدث عن أني أرى أشياء لا أعرف ماذا تكون.»

نهض ببطء متثاقلًا، ثم دخل بيته، وكان لطيفًا جدًّا ذاك اليوم مع زوجته حتى شعَرت بسعادةٍ غامرة، وقالت لنفسها: «يا إلهي! ما الذي أصاب هذا الرجل!» ثم تجمَّلت ووضعَت أنشوطةً جميلة زرقاء اللون حول ياقتها، وبدت في غاية الجمال حتى إنه صار أكثر لطفًا معها من أي وقتٍ مضى. لعل الأطفال المجنَّحين قد فعلوا شيئًا جيدًا في ذلك اليوم. وإذا كان الحال كذلك، فلم يكن سوى شيءٍ واحد؛ فليس هناك من شيءٍ يجلب لك المتاعب مثل الأجنحة، لكن من ناحيةٍ أخرى، ليس هناك من شيء يخرجك من المتاعب مثل الأجنحة.

كان هذا هو ما حدث معهم عندما قفز ناحيتهم ذلك الكلب الشرس لمَّا طوَوا أجنحتهم قليلًا وحلَّقوا على ارتفاعٍ منخفض وتقدَّموا نحو باب مزرعة لطلب كِسرة من الخبز وشيءٍ من الجبن، فعلى الرغم من أكلهم البرقوق، سرعان ما أحسُّوا بالجوع من جديد.

ليس هناك من شكٍّ الآن في أنه لو كان الأطفال الأربعة عاديين بلا أجنحة؛ فإن هذا الكلب الأسود الشرس كان سيعضُّ روبرت من ساقه ذات الجوارب البنية؛ إذ كان هو الأقرب إلى الكلب، ولكن عند أول زمجرةٍ رفرفَت الأجنحة، وتُرك الكلب يشد سلسلته بشدة، ويشبُّ على ساقيه الخلفيتَين كما لو كان يُحاول الطيران هو أيضًا.

لقد جرَّبوا العديد من المزارع الأخرى، ولكن حتى في تلك المناطق التي لم تكن فيها كلاب، لم يكن بوسع الناس أن يفعلوا أي شيءٍ سوى الصراخ بسبب فزعهم. وفي النهاية عندما كانت الساعة الرابعة تقريبًا، وكانت أجنحتهم تزداد تيبُّسًا وتعبًا، حطُّوا على برج كنيسة وعقدوا اجتماعًا طارئًا.

قال روبرت بقرارٍ يائس: «لا يمكنُنا الطيران إلى المنزل دون غَداء أو شاي.»

قال سيريل: «ولن يعطينا أحدٌ غداءً، ولا عَشاء، ناهيك عن الشاي.»

قالت أنثيا: «ربما يفعل القسُّ هنا ذلك؛ فلا بد أنه يعلم كل شيء عن الملائكة ...»

قالت جين: «بوسع أي شخص أن يرى أننا لسنا ملائكة. انظري إلى حذاء روبرت الطويل وإلى ربطة عنقه ذات النسيج المنقوش كالسناجب.»

قال سيريل بحزم: «حسنًا، إذا كانت الدولة التي أنت فيها لن تُزوِّدك بالمؤن، فلك أن تأخذها عنوة. أقصد في الحروب. أنا متأكد من أنك يجوز أن تفعل ذلك. وحتى في القصص الأخرى، لا يسمح أخٌ صالح لإخوته الصغار بالتضوُّر جوعًا وهم وسط وفرة من الطعام.»

كرَّر روبرت بشراهة: «وفرة؟» بينما نظر الآخرون باستغراب حول الأسلاك العارية لبرج الكنيسة، وتذمَّروا قائلين: «وسط ماذا؟»

قال سيريل بطريقةٍ مثيرة: «نعم، تُوجد نافذةٌ لموضع حفظ اللحوم على جانب منزل رجل الدين، ورأيت في الداخل أشياءَ للأكل؛ كريم كراميل ودجاجًا ولحم لسانٍ بارد وفطائر ومربى. إنها نافذة كبيرة في الحقيقة ولكن مع الأجنحة ...»

قالت جين: «يا لذكائك!»

قال سيريل بتواضُع: «هذا شيءٌ عادي تمامًا؛ فأي شخصٍ وُلد ليكون قائدًا — كنابليون أو الدوق مارلبورو — كان سيرى الأمر مثلما رأيته تمامًا.»

قالت أنثيا: «هذا خطأٌ كبير على ما يبدو.»

قال سيريل: «هذا هُراء، أتتذكُرون ما الذي قاله السير فيليب سيدني عندما رفض الجندي أن يشرب الماء بدلًا منه؟» إذن، حاجتي أكبر من حاجته.

قالت أنثيا محاولة إقناعهم وعيناها مغرورقتان بالدموع: «حسنًا، سوف نجمع أموالنا ونتركها ثمنًا للأشياء التي سنأخذها، أليس كذلك؟» فقد كانت تشعر بالجوع الشديد والذنب العظيم في الوقت نفسه.

جاء الردُّ بحذر: «البعض منها.»

أخرج الجميع الآن ما في جيوبهم على السطح الرصاصي من البرج؛ حيث حفَر الزوار على مدار المائة والخمسين عامًا الماضية الأحرف الأولى من أسماءِ أحبتهم بالسكاكين الحادَّة على السطح الرصاصي اللَّيِّن. كان كلُّ ما لديهم خمسةَ شلنات وسبعةَ بنسات ونصف البنس، وحتى أنثيا المنصفة اعترفَت بأن ذلك المبلغ كان مبالغًا فيه بالنسبة إلى أربعة أشخاص. وقال روبرت إنه يعتقد أن ثمانية عشر بنسًا كافية.

وفي النهاية، اتفَقوا على أن يُسلموا إليه شلنَين وستة بنسات.

وهكذا كتبَت أنثيا على ظهرِ ورقةِ تقرير مدرستها عن أدائها في الفصل الدراسي الماضي — والذي تصادَف وجوده في جيبها، وقد مزقَت منه اسمها واسم مدرستها — هذه الرسالة:

عزيزي القَس الموقَّر

نحن جائعون حقًّا بسبب اضطرارنا للطيران طوال اليوم، ونعتقد أن الأمر لا يُعد سرقةً عندما يصل لأن توشك أن تتضور جوعًا حتى الموت. خشينا أن نطلب منك خوفًا من أن ترفض؛ لأنك بالطبع تعرف الكثير عن الملائكة، لكنك لن تعتقد أننا ملائكة. سوف نأخذ فقط الأساسيات لكي نعيش، وليس البودنج أو الفطيرة، لنُثبت لك أن تضوُّرنا جوعًا وليس جشعنا هو ما دفعَنا لنتخذ من مكان حفظ طعامك ملاذًا ومنقذًا لنا، لكننا لسنا قطَّاع طريق ولا نمتهن ذلك.

قال الجميع باتفاق: «اختصريها.» فأضافت أنثيا في عجالة:

إن نوايانا نبيلةٌ تمامًا، وها هما شلنان وستة بنسات لتعلم أننا صادقون وممتنون، شكرًا لحسن ضيافتك لنا.

تحياتنا نحن الأربعة.

كان الشلنان البنسات والستة مرفقةً في هذه الرسالة، وشعر جميع الأطفال أنه عندما يقرؤُها رجل الدين، فسيفهم كل شيء، وكذلك سيفعل أيَّ شخصٍ لم يرَ الأجنحة.

قال سيريل: «بالطبع، هناك الآن بعض المخاطر؛ ومن الأفضل أن نطير مباشرةً إلى الجانب الآخر من البرج ثم نحلِّق على ارتفاعٍ منخفض قاطعِين فناء الكنيسة ومارِّين من بين الشُّجَيرات. لا يبدو أن هناك أيَّ أحد، لكن من يدري، تطل النافذة على الشجيرات، وهي محفوفة بأوراق الشجر، وكأنها قصة في حكايةٍ ما، سأدخل وأحصل على الأشياء، ويمكن لروبرت وأنثيا أخذُهما مني عَبْر النافذة. وجين يمكنها أن تراقب — فعيناها حادَّتان — ولتُصدر صفيرًا إذا رأت أي شخص. اسكت، يا روبرت! يمكنها التصفير جيدًا بما يكفي لإعلامنا، على أي حال. يجب ألَّا تكون الصافرة جيدةً للغاية، اجعليها طبيعيةً وأشبه بصوت طائر، والآن، فلننطلق!»

لا أستطيع أن أزعم أن السرقة فعلٌ صائب. لا يمكنني إلا أن أقول إنه في هذه الحالة لم يكن الأمر يبدو سرقةً بالنسبة إلى الجياع الأربعة، بل بدا وكأنه في إطار معاملةٍ تجارية عادلة ومعقولة. لم يسبق لهم أن علموا أنهم لا يمكنهم شراء لسانٍ شبه مقطَّع ودجاجة ونصف، ورغيفٍ من الخبز، وقنينة من ماء الصودا في المتاجر مقابل شلنَين وستة بنسات. كانت هذه ضروريات الحياة التي أخرجها سيريل عَبْر نافذة حجرة حفظ الطعام عندما قاد الآخرين إلى تلك البقعة المُبهِجة دون أن يلاحظه أحد ودون أي تأخير أو مغامرة. لقد شعر أن الامتناع عن أخذ المربى وفطيرة التفاح المُحلَّاة والكعك وقشور السكر المُحلَّاة المخلوطة كان عملًا بطوليًّا حقًّا وأنا أتفق معه. كان فخورًا أيضًا بعدم أخذ الكريم كراميل وأعتقد أنه كان مخطئًا؛ لأنه لو كان قد أخذها، لكانت هناك صعوبة في إعادة الطبق؛ لا يحق لأحد، مهما كان يتضور جوعًا، سرقة أطباق الفطائر الصينية ذات الزهور الوردية الصغيرة. كان أمر قنينة ماء الصودا مختلفًا؛ فلم يتمكنوا من الاستغناء عما يشربونه، وبما أن اسم الصانع كان مكتوبًا عليها، فقد شعروا بالثقة من أنها ستُرَد إليه أينما تركوها. وإذا كان لديهم الوقت فسيعيدونها إليه بأنفسهم. بدا أن الرجل يعيش في روتشستر، وهو ما لن يكون بعيدًا عن المنزل.

حملوا كل شيء إلى أعلى البرج، ووضعوه على ورقة من ورق المطبخ التي وجدها سيريل على الرف العلوي في الغرفة. وبينما كان يفردها، قالت أنثيا: «لا أعتقد أن هذه من ضروريات الحياة.»

قال: «بل هي كذلك. يجب أن نضع الأشياء في مكانٍ ما لتقطيعها؛ وسمعَت والدنا يقول ذات يوم إن الناس أُصيبوا بأمراضٍ من الجراثيم الموجودة في مياه الأمطار. ولا بد أن

يكون هناك الآن الكثير من مياه الأمطار في هذا المكان، وعندما تجِف، ستتحرك الجراثيم، وتختبئ في كل شيء، وسوف نموت جميعًا من الحُمَّى القرمزية.»

«وما هي تلك الجراثيم؟»

قال سيريل، بحسٍّ علمي: «الأشياء الصغيرة التي تَرينَها بالمجهر، إنها تُصيبكِ بكل الأمراض التي يمكن أن تُفكِّري فيها! أنا متأكد من أن الورقة كانت ضرورية، مثلها مثل الخبز واللحم والماء. ماذا إذن الآن؟! أوه، عيناي، أنا جائع!»

لا أرغب في وصف الحفلة الخلوية على قمة البرج. يمكنك أن تتخيَّل جيدًا كيف يكون تقطيع دجاجة ولسان بسكين له شفرةٌ واحدة فقط والذي كُسر في منتصف عملية التقطيع، ولكن قُضي الأمر. يصعب تناوُل الطعام بأصابعك كما أنه يجعلها دهنية، وسرعان ما تبدو الأطباق الورقية مُبقعة للغاية وبشعة المنظر، لكنْ هناك شيءٌ واحد لا يمكنك تخيُّله، وهو كيف يتفاعل ماء الصودا عندما تُحاول أن تشربه مباشرة من قنينته، خاصةً إذا كانت ممتلئة تمامًا. ولكن إذا لم يساعدك الخيال، فستفعل التجربة، ويمكنك بسهولة تجربتها بنفسك إذا استطعت أن تجعل أحد البالغين يعطيك قنينة الصودا. وإذا كنت ترغب في الحصول على تجربةٍ شاملة حقًّا، فضع الأنبوب في فمك واضغط على المقبض فجأة وبقوة. من الأفضل لك أن تفعل ذلك عندما تكون وحدك، كما يُفضَّل إجراء هذه التجربة خارج المنزل.

ومع ذلك فأنت تتناوله على كل حال، اللسان والدجاج والخبز الطازج طعامٌ لذيذ جدًّا، ولا يمانع أحدٌ أن يُرش قليلًا بماء الصودا في يوم شديد الحرارة؛ لذا فقد استمتع الجميع بالغَداء حقًّا، وأكلوا قدْر الإمكان لأنهم: أولًا، كانوا جائعين للغاية؛ وثانيًا — كما قلت — فإن اللسان والدجاج والخبز الطازج كانت وجبةً طيبة المذاق.

الآن، أعتقد أنك قد تكون لاحظتَ أنه إذا توجَّب عليك الانتظار لتناوُل الغَداء لوقتٍ أطول مما ينبغي، ثم تناولتَ من الغداء أكثر بكثيرٍ من المعتاد، وجلست تحت أشعة الشمس الحامية على قمة برج الكنيسة — أو حتى في أي مكانٍ آخر — فسرعان ما ستشعر بالنعاس على نحوٍ غير مسبوق. كان كلٌّ من أنثيا وجين وسيريل وروبرت يُشبِهونك في ذلك من جوانبَ عدة، وعندما أكلوا بقدْر ما في وسعهم، وشربوا كل ما لديهم، أصبحوا يشعرون بالنعاس على نحوٍ غير مسبوق وبسرعة، خاصة أنثيا؛ لأنها كانت قد استيقظَت مبكرًا جدًّا.

توقَّفوا عن الكلام ومالوا إلى الوراء واحدًا تلو الآخر، وقبل انقضاء ربع ساعة على تناوُل الغداء، كانوا يَحدَودِبون ويلتفون على أنفسهم تحت أجنحتهم الدافئة الناعمة الكبيرة وسرعان ما غلبهم النعاس. كانت الشمس تغيب ببطء في جهة الغرب (يجب أن أقول في جهة الغرب؛ لأنه من المعتاد في الكتب أن أقول ذلك؛ خشية أن يظن الأشخاص البلداء أنها تغيب في جهة الشرق. وفي الحقيقة، إنها لا تغيب في الغرب بالضبط أيضًا، ولكن تغيب قريبًا منه) أُكرِّر أن الشمس كانت تغيب ببطء في جهة الغرب، وكان الأطفال ينامون في دفء وسعادة لأن الأجنحة أكثر راحة من لحاف النوم ذي زغب الطيور. تمدَّد ظل برج الكنيسة عَبْر فِنائها، وعَبْر مقر القس، وعَبْر الحقل الممتد أمامها؛ حتى لم تعُد هناك أيُّ ظلال، وغربت الشمس، واختفت الأجنحة. كان الأطفال لا يزالون يغطُّون في نومهم، ولكن لم يدُم ذلك طويلًا؛ فالشفق رغم جماله الآسر، فإنه يجلب البرودة. وأنت تعرف، مهما بلغ شعورك بالنعاس، فإنك سرعان ما تستيقظ إذا كان أخوك أو أختك قد استيقظ أولًا وسحب غطاءك منك. ارتجف الأطفال الأربعة بغير الأجنحة واستيقظوا. كانوا هناك على قمة برج الكنيسة في عَتْمة الغَسَق، في صحبة النجوم الزرقاء التي تبزغ الواحدة تلو الأخرى ثم تبزغ بالعشرات والعشرينات فوق رءوسهم على بعد أميال من المنزل، ومعهم ثلاثة شلنات وثلاثون بنسًا ونصف في جيوبهم. كانوا يخشَوْن من تصرُّفهم المشكوك فيه الذي قد يُسألون عنه لو عثر عليهم أحدٌ ومعهم قنينة ماء الصودا.

نظروا بعضهم إلى بعض، وكان سيريل أول من تكلم، وهو يلتقط قنينة الصودا فقال:

«من الأفضل أن ننزل ونتخلَّص من هذا الشيء البغيض، والمكان يبدو مظلمًا بما فيه الكفاية بما يمكننا من وضعها على عتبة باب القس، عليَّ أن أفكِّر سريعًا، هيَّا.»

كان هناك برجٌ صغيرٌ في ركن البرج، وكان لذلك البرج الصغير باب، لاحظوا ذلك الباب عندما كانوا يأكلون، لكن لم يستكشفوه، كما كنت ستفعل لو كنت مكانهم؛ لأنك بالطبع عندما يكون لديك جناحان، فيمكنك بهما استكشاف السماء، فإنَّ الأبواب لن تستحق في نظرك استكشافها.

لكنهم اتجهوا إليه الآن.

قال سيريل: «هذا بالطبع الباب المؤدي إلى أسفل.»

كان كذلك بالفعل، ولكنه كان مغلقًا من الداخل.

وكان الظلام يخيِّم شيئًا فشيئًا، وهم على بُعد أميال عن المنزل، ومعهم قنينة ماء الصودا.

لن أُخبركم بما إذا كان أحدهم قد بكى، ولن أخبركم كذلك بعددِ مَن بكى منهم ومن منهم قد بكى؛ فمن الأفضل أن تُعملوا عقولكم في التفكير فيما كنتم ستفعلونه لو كنتم في مكانهم.

الفصل الخامس

بلا أجنحة

سواءٌ أبكى أحد من الأطفال أم لا، كان هناك بالتأكيد فاصلٌ زمني لم يتصرف فيه أيٌّ منهم على طبيعته. وعندما أصبحوا أكثر هدوءًا، وضعت أنثيا منديلها في جيبها وأحاطت جين بذراعها، وقالت:

«لا يمكن أن يطول الأمر أكثر من ليلةٍ واحدة. يمكننا في الصباح الإشارة بمناديلنا — وستكون قد جفَّت عندئذٍ — وسيأتي شخصٌ ما ويُخرجنا ...»

قال سيريل: «ويكتشف القنينة، ويزجُّ بنا إلى السجن بتهمة السرقة ...»

«لقد قلتَ إنها لم تكن سرقة. قلتَ إنك متأكد من أنها لم تكن كذلك.»

قال سيريل باقتضاب: «لست متأكدًا الآن.»

قال روبرت: «دعونا نرمي هذا الشيء البغيض بين الأشجار، وبهذا لن يستطيع أحد أن يفعل بنا أي شيء.»

قال سيريل ضاحكًا ولم يكن ضحكًا خاليًا من الهَمِّ: «أوه نعم، ولنضرب شخصًا ما على رأسه، ونكون قَتَلَةً كذلك، إضافةً لما اقترفناه.»

قالت جين: «ولكن لا يمكننا البقاء هنا طَوال الليل، وأريد الشاي خاصتي.»

قال روبرت: «أنتِ لا تريدين تناوُل الشاي بالتأكيد؛ فقد فرغتِ من غدائك للتو.»

قالت: «لكنني أريده حقًّا، خاصة عندما بدأتُ في التحدُّث عن المكوث هنا طوال الليل. أوه، يا أنثيا، أريد العودة إلى المنزل! أريد العودة إلى المنزل!»

قالت أنثيا: «اهدئي، اهدئي، لا تقلقي يا عزيزتي. سيكون كل شيء على ما يُرام، بطريقةٍ ما. لا تقلقي ...»

قال روبرت في يأس: «دعيها تبكي، فإذا صرخَت بصوتٍ عالٍ بما فيه الكفاية، فقد يسمع شخصٌ ما ويأتي إلينا ويدعنا نخرج.»

قالت أنثيا بسرعة: «ويرى قنينة ماء الصودا، يا روبرت، لا تكن بربريًّا. أوه — جين — حاولي أن تتجلدي! فنحن جميعًا في قارب واحدٍ.»

حاولت جين «أن تتجلَّد» وقلَّلَت عُواءها ليصبح نشيجًا خافتًا.

ثم طرأ صمتٌ قطعه سيريل قائلًا بروية: «انظروا، علينا المخاطرة بهذه القنينة، سأُخبئها داخل سترتي، وربما لن يلاحظها أحد، ولتبقوا أمامي. هناك أضواءٌ داخل منزل القس. إذن هم لم يخلُدوا للنوم بعد، ما علينا إلا أن نصرخ جميعًا بأعلى أصواتنا، لنصرخ الآن عند العد لثلاثة، روبرت لتصرخ مثل قاطرة السكك الحديدية، أما أنا فسأصرخ كما يفعل أبي، أما أنتما يا فتاتان فلتصرخا كما يحلو لكما، واحد، اثنان، ثلاثة!»

شقَّت الصرخة الرباعية سكون الليل الهادئ، فظهرت خادمة في إحدى نوافذ بيت القس ممسكةً بحبل ستارة النافذة.

«واحد، اثنان، ثلاثة!» وانطلقَت صرخةٌ أخرى، حادة، وجماعية، أفزعت البوم وطيور الزُّرْزُور، لدرجة أنها رفرفَت بأجنحتها في برج الجرس السفلي. هربت الخادمة من نافذة بيت القس ونزلت راكضة عبر السلالم إلى مطبخ المنزل، وبمجرد أن أخبرتِ الخادم والطاهي وابن عم الطاهي أنها رأت شبحًا، أغمي عليها في الحال. لم يكن هذا صحيحًا بالطبع، لكنني أعتقد أن أعصاب الفتاة كانت مضطربة قليلًا من الصراخ الذي سمِعَته.

«واحد، اثنان، ثلاثة!» كان القس في هذا الوقت واقفًا على عتبة منزله، ولم يكن هناك شكٌّ في أن ما سمعه كان صراخًا.

قال لزوجته: «يا إلهي! عزيزتي، هناك شخصٌ ما يُقتل في الكنيسة! ناوليني قبعتي وعصًا غليظة، وأخبري أندرو أن يلحق بي. أتوقع أن يكون ذلك هو الشخص المخبول الذي سرق اللسان.»

كان الأطفال قد رأَوا وميض الضوء عندما فتح القس بابه الأمامي. لقد رأَوا هيئته المظلمة على عتبة الباب، وتوقَّفوا عن الصراخ لالتقاط أنفاسهم، وكذلك لمعرفة ما سيفعله.

عندما التفت ليأخذ قُبعته، قال سيريل متعجلًا:

«إنه يعتقد أنه يُخيَّل إليه أنه سمع شيئًا، أعتقد أنكم لم تصرخوا بصوتٍ عالٍ بما يكفي. الآن، واحد، اثنان، ثلاثة!»

هذه المرة صرخوا بكل طاقتهم دون شك، ففزعت زوجة القسِّ وتعلَّقت بزوجها وصرخَت صرخةً ضعيفة جرَّاء ما سمِعَته.

قالت: «ينبغي ألا تذهب! ليس وحدك. يا جيسي!» خرجَت الخادمة من المطبخ وقد أفاقت من الإغماء، «أرسلي أندرو حالًا؛ فهناك مجنونٌ خطير في الكنيسة، ويجب أن يذهب على الفور ليُمسك به.»

قالت جيسي لنفسها وهي تعبُر باب المطبخ: «أتوقع أن يُصاب هو أيضًا.» ثم قالت لأندرو: «يا أندرو، هناك شخصٌ يصرخ كالمجانين في الكنيسة، وتقول لك زوجة سيدي إن عليك أن تذهب وتُمسك به.»

قال أندرو في نبرةٍ خافتة: «ليس بمفردي، لن أفعل.» لكنه لم يقل لسيده سوى: «أجل يا سيدي.»

«هل سمعتَ ذلك الصراخ؟»

قال أندرو: «أعتقد أنني لاحظتُ شيئًا ما.»

قال القس: «حسنًا، هيا، إذن، عليَّ أن أذهب يا عزيزتي!» دفعَها برفق إلى غرفة الجلوس، وأغلق الباب، وذهب مسرعًا، وهو يجرُّ أندرو من ذراعه.

استقبلهم وابلٌ من الصراخ، ولمَّا انتهى إلى الصمت، صرخ أندرو قائلًا: «أهلًا، مَنْ هناك! هل أحدٌ ينادي؟»

صاحتِ الأصوات الأربعة من بعيد: «نعم.»

قال القس: «يبدو أنهم هنا في مكانٍ ما، أمرٌ عجيبٌ جدًّا.»

صرخ أندرو قائلًا: «أين أنتم؟» فأجاب سيريل بأعلى صوتٍ ينبعث من أعماقه، وببطءٍ شديد:

«الكنيسة! البرج! القمة!»

قال أندرو وأجابه بالصوت نفسه: «انزلوا إذن!»

«لا نستطيع! فالباب مغلق!»

قال القس: «يا إلهي! أندرو، اجلب مصباح الإصطبل. ربما سيكون من الأفضل كذلك أن تجلب رجلًا آخر من القرية.»

«وأتركك مع هذه العصابة! لا يا سيدي، لن أتركك وحدك هنا؛ فربما كان هذا فخًّا، حسنًا، هناك ابن عم الطاهي عند الباب الخلفي الآن، وهو يعمل حارسًا يا سيدي، وقد اعتاد أن يتعامل مع ذوي المقاصد الشريرة، كما أن معه مسدسه.»

صاح سيريل من برج الكنيسة: «مرحبًا يا من هناك! اصعد وأخرجنا من هنا.»

قال أندرو: «نحن قادمون، سأذهب لآتي بشرطي ومسدس.»

قال القس: «أندرو، أندرو، ليس هذا ما يتوجَّب فعله.»

«بل هذا هو الأقرب لما ينبغي فعله يا سيدي، بالنسبة إلى أمثالهم.»

وهكذا أحضر أندرو المصباح وابن عم الطاهي؛ وقد توسَّلَت زوجة القسِّ إليهم وطلبَت منهم أن يكونوا حذِرين للغاية.

ذهبوا جميعًا عبر فِناء الكنيسة الذي كان قد أصبح مظلمًا تمامًا، وبينما هم في طريقهم تحدثوا. كان القسُّ على يقين من أن الشخص الموجود في برج الكنيسة مجنون وهو الشخص الذي كتب الرسالة المجنونة، وأخذ اللسان المجفَّف والأشياء الأخرى. أما أندرو فكان يعتقد أنه «فخ»، لكن ابن عم الطاهي وحده هو من احتفظ بهدوئه. وقال: «كلما علا الصوتُ، قلَّ الخطر، فالأشخاص الخطِرون هم الأكثر هدوءًا.» وبالرغم من أنه لم يكن خائفًا على الإطلاق، كان معه مسدسٌ ولهذا السبب طُلِبَ منه أن يقود الطريق صعودًا على الدرجات المهترئة المظلمة لبرج الكنيسة. لقد قاد الطريق، حاملًا المصباح في يد والمسدَّس في اليد الأخرى. وتبعه أندرو، الذي تظاهر بعد ذلك أن هذا كان بسبب كونه أكثر شجاعة من سيده، ولكن السبب الحقيقي أنه فكَّر في أن هذا قد يكون فخًّا، ولم ترُق له فكرة أن يكون هو الشخص الأخير خوفًا من أن يأتي شخص ما من خلفه ويمسكه من ساقَيه في الظلام. واصلوا الصعود، وداروا حول درج السُّلَّم الصغير ثم مرُّوا عَبْر دور دق أجراس الكنيسة العلوي، حيث حبال الأجراس معلَّقة ولها نهاياتٌ فرائية ناعمة مثل اليرقات العملاقة ثم صعِدوا درجًا آخر إلى برج أجراس الكنيسة، حيث الأجراس الهادئة البالغة الضخامة. وبعد ذلك، صعدوا على سُلَّم خشبي بدرجاتٍ عريضة، ثم فوق سُلمٍ حجري صغير، وفي الجزء العلوي منه، كان هناك بابٌ صغير. وكان الباب مسدودًا من ناحية السُّلَّم.

ركل ابنُ عم الطاهي الباب، وكان يعمل حارسًا لمناطق الصيد، قائلًا:

«مرحبًا، مَنْ هناك؟!»

كان الأطفال متشبثين بعضهم ببعض على الجانب الآخر من الباب، وهم يرتجفون من القلق وقد جشَّ صوتهم من النحيب. وكان من الصعب عليهم التحدُّث، لكن سيريل نجح في الرد بقوة:

«مرحبًا، يا مَنْ هناك!»

«كيف صعِدتُم إلى مكانكم هذا؟»

لم يكن هناك فائدة من قول «جئنا طائِرين»؛ لذلك قال سيريل:
«صعِدنا، ثم وجدنا الباب مغلقًا ولم نتمكن من النزول. دعنا نخرج، دعنا نخرج.»
سألهم الحارس: «كم عددكم؟»
قال سيريل: «أربعة فقط.»
«هل أنتم مسلَّحون؟»
«هل نحن ماذا؟»
قال الحارس: «لديَّ مسدَّسي في يدي؛ لذلك من الأفضل ألَّا تجرِّبوا أية حيلة. إذا فتحنا الباب، فهل ستتعهَّدون بالنزول بهدوء ودون أي فعلٍ جنوني؟»
قال الأطفال معًا: «نعم، نعم!»
قال القسُّ: «يا إلهي! بالتأكيد كان ذلك صوتًا نسائيًّا؟»
قال الحارس: «هل أفتح الباب يا سيدي؟» هبط أندرو بضع درجاتٍ، وقال بعدها: «كان ذلك لإفساح المجال للآخرين.»
قال القَس: «نعم، افتح الباب.» ثم خاطبهم عبر ثقب المفتاح الذي في الباب قائلًا: «تذكروا أننا جئنا لإطلاق سراحكم. فهل ستُوفون بوعدكم بعدم العنف؟»
قال الحارس: «كيف التصق لسان القفل هنا بهذا الشكل؟ سيعتقد أي شخص يراه أنه لم يتحرك من مكانه منذ نصف عام.» في الحقيقة لم يتحرك اللسان بالفعل.
وعندما حُلَّ لسان القفل، تحدَّث الحارس بكلماتٍ عميقة من خلال ثقب المفتاح.
قال: «لن أفتح، حتى تذهبوا إلى الجانب الآخر من البرج. وإذا اقترب مني أحدكم فسأطلق النار. حالًا!»
قالت الأصوات: «كلُّنا في الجانب الآخر.»
شعَر الحارس بالرضا عن نفسه، وأثبت أنه رجلٌ شجاع عندما دفع الباب وفتحه، وخرج إلى السطح، فأضاء الضوء الكامل لمصباح الإصطبل مجموعة الخارجين عن القانون الذين يقفون قُبالة حاجز الشرفة على الجانب الآخر من البرج.
خفض الحارس مسدسه، وكاد يُسقط المصباح.
قال صارخًا: «ساعدوني، أليس هؤلاء مجرد مجموعة من الصغار؟»
في الحال تقدَّم القس.
سأل بصرامة: «كيف أتيتم إلى هنا؟ أخبروني في الحال.»
قالت جين وهي تمسك بمعطفه: «أوه، خُذنا إلى أسفل، وسنخبرك بأي شيء تريده. لن تصدقنا، لكن هذا لا يهم. أوه، خُذنا إلى أسفل!»

احتشَد الآخرون حوله، بالتوسُّل ذاته. كلُّهم ما عدا سيريل؛ فقد كان لديه ما يكفيه ليفعله مع قنينة الصودا، والتي كانت تنزلق أسفل سترته. فاحتاج كلتا يديه لإبقائها ثابتةً في مكانها.

لكنه قال وهو يقف بعيدًا عن ضوء الفانوس قدْر الإمكان:

«أرجوك خُذنا للأسفل.»

وهكذا اصطحبوهم إلى أسفل. ليس من السهل النزول عبر برج كنيسة غير معتاد في الظلام، لكن الحارس ساعدهم، إلا سيريل الذي توجَّب عليه أن ينزل وحده بسبب قنينة ماء الصودا. كانت لا تزال تحاول الإفلات منه. وكادت تنزلق منه في منتصف الطريق إلى أسفل السُّلَّم ولكنه أفلح في الإمساك بها. أمسكها سيريل بسرعة من فوهتها، وكاد أن ينزلق. وعندما وصل أخيرًا إلى قاع الدرَج المتعرج وخرج إلى أعلام رُواق الكنيسة، كان شاحبًا مرتجفًا.

ثم فجأة أمسك الحارس سيريل وروبرت من ذراعَيهما.

وقال: «فلتمسكا أنتما بالفتاتَين، سيدي، أنت وأندرو تستطيعان تدبُّر ذلك.»

قال سيريل: «اتركنا! نحن لن نهرب. لم نؤذِ كنيستك القديمة. اتركنا نذهب!»

قال الحارس: «فقط تعالَ معي.» ولم يجرؤ سيريل على معارضته بالقوة؛ لأنه بعد ذلك بدأت القنينة في الانزلاق مرةً أخرى.

وهكذا فقد دخلوا جميعًا إلى مكتب القس، وجاءت زوجة القس مندفعة.

صاحت قائلة: «أوه، يا وليام، هل أنت بخير؟»

سارع روبرت إلى التهدئة من روعها.

قال: «نعم، إنه آمن تمامًا.» «لم نؤذِه على الإطلاق. ورجاءً، لقد تأخرنا كثيرًا، وسيشعرون بالقلق في المنزل. هل يمكنكم أن ترسلونا إلى المنزل في عربتكم؟»

قالت أنثيا: «أو ربما هناك فندق في الجوار يمكننا الحصول منه على عربةٍ تُقلنا، ستكون مارثا قلقة للغاية كما هي عادتها.»

غاص القس في كرسيه، وقد تملَّكه التأثُّر والدهشة.

جلس سيريل أيضًا، وكان يميل إلى الأمام مستندًا على ركبتَيه بسبب قنينة ماء الصودا تلك.

سألهم القسُّ: «لكن كيف وصلتم إلى برج الكنيسة؟»

قال روبرت بتلكُّؤ: «لقد صعدْنا إلى البرج، وكنا متعبين، فاستغرقْنا جميعًا في النوم، وعندما استيقظْنا وجدْنا الباب مغلقًا؛ لذلك صرخنا.»

قالت زوجة القس: «أعتقد أنكم فعلتم ذلك! لقد أفزعتم الجميع حدَّ الجنون بما فعلتموه! يجب أن تخجلوا من أنفسكم.»

قالت جين بلطف: «نعم، نحن نشعر بالخجل.»

سألهم القس: «لكن من الذي أغلق الباب؟»

قال روبرت وكان صادقًا تمامًا: «لا أعرف على الإطلاق، من فضلك أعدنا إلى بيتنا.»

قال القس: «حسنًا، أعتقد أننا من الأفضل أن نفعل ذلك يا أندرو، اربط الحصان في العربة، ويمكنك أن تأخذهم إلى المنزل.»

قال أندرو لنفسه: «لن أفعل ذلك بمفردي، لا.»

أكمل القس كلامه قائلًا: «وليكن هذا درسًا لكم ...» واستمر في حديثه، والأطفال يستمعون في وجوم، لكن الحارس لم يكن ينصت. كان يتفحص سيريل البائس. لقد كان يعرف كل شيء عن الصيادين الأشرار بالطبع؛ لذلك عرف كيف يبدو الناس عندما يُخبِّئون شيئًا. وعندما أتى القس إلى الجزء الذي يتحدث فيه عن ضرورة أن يسعى كلٌّ منهم لأن يصبح بمنزلة نعمة لوالدَيه عندما يكبر، وألا يكون مصدر متاعبَ وخزيٍ لهما، عندئذٍ قال الحارس فجأة:

«اسأله ماذا يُخفي تحت سترته.» وكان سيريل يعلم أن محاولة الإخفاء قد وصلَت إلى نهايتها؛ لذا انتصب واقفًا، وعرَّض كتفَيه وحاول أن يبدوَ كالنبلاء، مثل الصبية في الكتب، الذين لا يمكن لأحدٍ أن ينظرَ في وجوههم ويساوره الشك في أنهم ينحدرون من عائلاتٍ شجاعةٍ ونبيلةٍ وأنهم سيكونون مخلصين حتى الموت، وأخرج قنينة ماء الصودا وقال:

«حسنًا، ها هي، إذن.»

ثم ساد صمت. فأكمل سيريل إذ لم يكن هناك مفرٌّ من ذلك:

«نعم، لقد أخذنا هذه من حجرتك كما أخذنا بعض الدجاج واللسان والخبز؛ فقد كنا جائعين للغاية، ولم نأخذ الكريم كراميل أو المربى. بل أخذنا الخبز واللحوم والماء فحسب ولم نستطع أن نمتنع عن أخذ الصودا، أخذنا فقط ضروريات الحياة؛ وتركنا شلنين وستة بنسات مقابل ذلك، كما تركنا رسالة. ونحن آسفون جدًّا. سوف يدفع أبي غرامة أو أي شيء تريده، لكن لا تزُجَّ بنا في السجن؛ فأمُّنا ستكون غاضبة جدًّا. أنت تعرف ما قلته حول عدم كونك وصمة عار. حسنًا، لا تفعل ذلك بنا، هذا كلُّ شيء! ونحن آسفون بالغ الأسف.»

قالت زوجة القس: «ولكن كيف وصلتم إلى نافذة حجرة حفظ الطعام؟»

قال سيريل بحزم: «لا يمكنني أن أُخبركِ بذلك.»

سأله القس: «هل هذه هي الحقيقة الكاملة التي أخبرتَني بها؟»

أجابت جين فجأة: «لا، كل هذا صحيح، لكنه ليس الحقيقة الكاملة. لا يمكننا أن نقول لك ذلك. وليس من الجيد السؤال عنه. أوه، سامحنا وخذنا إلى المنزل!» ثم ركضَت إلى زوجة القس واحتضنتْها. فاحتضنتْها زوجة القس، وهمس الحارس للقس وهو يخفي فمه بيده قائلًا:

«كلهم على ما يُرام يا سيدي، أتوقَّع أن يكون أحد أصدقائهم من وضعهم في هذا المأزق. شخصٌ ورَّطهم ولا يريدون الوشاية به، إنَّها ألعابُ الصغار.»

قال القس: «أخبروني، هل تتسترون على شخصٍ آخر؟ هل كان لأي شخصٍ آخر علاقة بهذا؟»

قالت أنثيا وهي تُفكِّر في عفريت الرمال: «نعم، لكن ذلك لم يكن خطأه.»

قال القس: «جيد جدًّا، يا أعزائي، دعونا إذن لا نتحدث أكثر عن ذلك، فقط أخبروني لماذا كتبتم مثل هذه الرسالة الغريبة.»

قال سيريل: «لا أعرف؛ فقد كتبت أنثيا هذا ونحن مستعجلون، وفي الحقيقة لم يكن الأمر يبدو وكأنه سرقة. ولكن بعد ذلك، عندما وجدنا أننا لا نستطيع النزول من برج الكنيسة، بدا الأمر أنه كذلك بلا ريب. نحن جميعًا آسفون جدًّا ...»

قالت زوجة القس: «لا تقل هذا، لكن بعد ذلك فكِّروا فحسب قبل أن تأخذوا أشياء تخصُّ الآخرين، والآن — هل تَودُّون تناوُل بعض الكعك والحليب قبل أن تعودوا إلى المنزل؟»

عندما جاء أندرو ليقول إنه ربط الحصان، وكان يتوقع أن يقود العربة بمفرده نحو الفخ الذي كان يراه بوضوح من البداية، وجد الأطفال يتناولون الكعك ويشربون الحليب ويضحكون على نكات القس. وكانت جين جالسة على حجر زوجة القس.

ولذا، حسبما ترون، فقد حصلوا على أفضلَ مما يستحقون.

طلب الحارس — الذي كان ابن عم الطاهي — الإذن ليعود بهم إلى المنزل، وشعر أندرو بسعادةٍ غامرة لوجود من سيعمل على حمايته من الفخ الذي كان متأكدًا منه.

عندما وصلَت عربة الأطفال إلى منزلهم، بين المحجر الطباشيري وحفرة الحصى، كان الأطفال يشعرون بالنعاس الشديد، كما شعروا وكأن صداقة جمعتهم مع الحارس إلى الأبد.

أنزل أندرو الأطفال عند البوابة الحديدية دون أن ينبس بكلمة. قال ابن عم الطاهي وهو حارس صيد: «اذهبوا أنتم إلى منزلكم، وسأعود إلى منزلي سيرًا على الأقدام.»

لذلك اضطُر أندرو إلى الرجوع بمفرده، وهو ما لم يعجبه على الإطلاق، وأوصل الحارس — وهو ابن عم الطاهي الذي يعمل في بيت القس — الأولاد إلى باب المنزل، وعندما آوَوا إلى فرشهم وسط وابل من التوبيخ، ظلَّ الحارس هناك يشرح لمارثا والطاهية والخادمة بالضبط ماذا حدث. وكان شرحه جيدًا لدرجة أن مارثا أصبحت أكثر لطفًا في صباح اليوم التالي.

بعد ذلك اعتاد على المجيء ومقابلة مارثا. وفي النهاية ... حسنًا لن أسترسل في الحديث عن هذا الأمر فهذه قصةٌ أخرى كما يقول السيد كيبلينج العزيز.

وفي اليوم التالي اضطُرت مارثا للتمسُّك بما قالته في الليلة السابقة بشأن إبقاء الأطفال في منزلهم كعقوبة لهم، لكنها لم تكن متوترةً على الإطلاق، ووافقَت على السماح لروبرت بالخروج لمدة نصف ساعة للحصول على شيءٍ يريده بشدة. كان هذا الشيء — بالطبع — أُمنيةَ ذلك اليوم.

أسرع روبرت إلى حفرة الحصى، ووجد عفريت الرمال، وتمنى على الفور أن ... ولكن هذه أيضًا قصةٌ أخرى.

الفصل السادس

قلعةٌ بلا غَداء

تحتَّم منع الأولاد من الخروج عقابًا لهم على مصائب البارحة. بطبيعة الحال، اعتقدَت مارثا أن ما فعلوه كان سوء سلوك — وليس سوء حظ — لذا يجب ألَّا تلوموها؛ فقد رأت أنها كانت تؤدِّي واجبها فحسب. تعلمون أن الكبار يقولون في كثيرٍ من الأحيان إنهم لا يُحبون عقابكم، وإنهم يفعلون ذلك فقط من أجل مصلحتكم، وإنه يؤلمهم عقابكم مثلما يؤلمكم، وهذه هي الحقيقة في كثير من الأحيان.

كرِهت مارثا بالتأكيد الاضطرار إلى معاقبة الأطفال بقدْر ما كرهوا هم أن يُعاقَبوا. لسببٍ واحد، ألا وهو أنها عرفت قدْر الضجيج الذي سيمتلئ به المنزل طَوال اليوم، كما كان لديها أسبابها الأخرى.

قالت للطاهية: «أعترف أنه من المؤسف — على ما أعتقد — أن يُحبسوا في المنزل في هذا اليوم الجميل؛ لكنهم على قدْر كبير من التهوُّر، وسيُقحِمون رءوسهم في المتاعب يومًا ما، إن لم أشدد وطأتي عليهم. اصنعي لهم كعكة ليتناولوها مع الشاي لاحقًا يا عزيزتي. وسنأخذ الطفل معنا بعد أن نفرغ من إنجاز بعض الأعمال، حتى يتمكنوا من الاستمتاع بوقتهم في الخارج من دونه، والآن يا إليزا، تعالَي ورتبي أسرَّتهم، فقد اقتربتِ الساعة من العاشرة، ولم يُصطَد أي أرنب.»

اعتاد الناس في بلدة كينت أن يقولوا ذلك كناية عن أن «الأعمال لم تُنجز».

وهكذا احتُجز الأولاد كلهم، إلا روبرت، كما أسلفت، فقد سُمح له بالخروج لمدة نصف ساعة ليأتي بشيء يريدونه جميعًا. وهو ما كان بالطبع أمنية اليوم. لم يكن لدَيه أي صعوبة في العثور على عفريت الرمال؛ لأن هذا اليوم كان شديد الحرارة لدرجة أنه وجده بالفعل — ولأول مرة — من تلقاء نفسه خارج الرمال، رآه جالسًا فيما يشبه

بركةً من الرمال الناعمة، ويتمطَّى فيه، ويُهذِّب شواربه، ويجول بعينَيه الحلزونيتَين هنا وهناك.

عندما رأى روبرت بعينه اليسرى هتف قائلًا: «ها! لقد كنت أبحث عنك. أين الباقون؟ أرجو ألَّا يكونوا قد حطَّموا أنفسهم بسبب تلك الأجنحة؟»

قال روبرت: «لا، لكن الأجنحة أوقعَتْنا في مشاكل، تمامًا كما تفعل بنا كل الأمنيات الأخرى؛ لذا حُبس الآخرون داخل المنزل، وسُمح لي بالخروج لمدة نصف ساعة فقط، لأبلغك بالأمنية؛ لذلك اسمح لي أن أتمنَّى بأسرعِ ما يمكن.»

قال عفريت الرمال وهو يتكوَّر في الرمال: «قل أمنيتك.» لكن روبرت لم يستطع أن يتمنَّى، فقد نسي كلَّ الأشياء التي كان يُفكِّر بها، ولم يتمكن من استحضار شيءٍ إلا أشياء بسيطة تخصه، كالحلوى، وألبوم للطوابع الأجنبية، ومطواة ذات ثلاث شفرات معلقة في ميدالية، وفتَّاحة زجاجات. جلس هناك ليفكِّر بطريقةٍ أفضل، وكل ما فكر فيه كانت أشياء لم يكن الآخرون ليكترثوا بشأنها، ككرة قدم أو زوجَين من أوقية السيقان، أو إحراز الفوز على صديقه سيمبكينز عندما يعود إلى المدرسة.

قال عفريت الرمال في النهاية: «حسنًا، من الأفضل أن تُعجِّل بطلب أمنيتك؛ فالوقت يمضي.»

قال روبرت: «أعلم ذلك، لكنني لا أستطيع أن أفكِّر فيما أتمناه. أتمنى أن تحقِّق رغبات الآخرين دون الحاجة إلى مجيئهم إلى هنا لطلب ذلك. أوه، لا، انتظر!»

لكن كان قد فات الأوان؛ إذ كان عفريت الرمال قد نفخ نفسه ليصل إلى نحو ثلاثة أضعاف حجمه الأصلي، ثم انطوى مثل فقاعة وُخزت، ومع تنهُّدٍ عميق، اتكأ إلى الوراء على حافة بركته الرملية، وكاد أن يُصاب بالإغماء جراء الجهد الذي بذله.

قال بصوتٍ واهنٍ: «تحقَّقَت، لقد كان الأمر صعبًا للغاية، لكنني فعلته. اركض إلى المنزل، وإلا فإنهم سيتمنَّوْن بالتأكيد أمنيةً حمقاء قبل أن تصل إلى هناك.»

أحسَّ روبرت أنهم من المؤكَّد سيفعلون ذلك، وبينما كان يركض إلى المنزل، استغرق في التفكير بشأن نوعيةِ الأمنيات التي ربما يجدهم قد تمنَّوْها في غيابه. فربما يتمنَّوْن الحصول على الأرانب، أو الفئران البيضاء، أو الشوكولاتة، أو الطقس الجميل يوم غد، أو حتى — وهذا على الأرجح ما كانوا سيتمنونه — ربما قال أحدهم: «أتمنَّى من الله أن يعجل روبرت بالرجوع.» حسنًا، لقد كان يُسرِع، وهكذا ستكون رغبتهم قد تحقَّقَت، وستضيع أمنية اليوم. ثم حاول أن يفكر فيما يمكن أن يتمنَّوه؛ شيء سيكون مسليًا لهم

في المنزل. كان ذلك هو أصعب ما فكر به من البداية؛ فالقليل جدًّا من الأمور تكون مسليةً بداخل المنزل عندما تكون الشمس مشرقة في الخارج وقد مُنعتَ من الخروج، رغم أنك كنتَ ترغب في ذلك بشدة. كان روبرت يركض بأسرعِ ما يمكنه، لكن عندما انعطف عند الزاوية التي كان من المفترض أن تجعله في موقعٍ يرى منه الأشغال الحديدية التي يزدان بها الجزءُ العلوي من المنزل — والتي تُعد كابوسًا لأي مهندسٍ معماري — فتح عينَيه عن آخرهما بحيث اضطُر إلى التباطؤ في المشي لأنه لا يستطيع أحد أن يجريَ بعينَين مفتوحتَين عن آخرهما. ثم توقف فجأة؛ لأنه لم يكن هناك منزل يمكن رؤيته. وقد اختفى سياج الحديقة الأمامية أيضًا، وتغيَّر المكان بالكامل. فرك روبرت عينَيه ونظر مرةً أخرى. كان الآخرون قد تمنَّوا، ولم يكن هناك شكٌّ في ذلك. لا بد أنهم تمنَّوا العيش في قلعة؛ لأنها كانت هناك بالفعل. قلعة سوداء مهيبة وشاهقة وبالغة الاتساع، ولها أسوارٌ ذات فتحات ونوافذ قوسية، وثمانية أبراج كبيرة؛ وفي مكان الحديقة والبستان، كان ثَمَّةَ أشياءُ بيضاء منتشرة مثل الفطر. مشى روبرت ببطء، ومع اقترابه، اتَّضح له أن هذه كانت خيامًا، وكان هناك رجال يرتدون دروعًا يتجوَّلون بين الخيام، كانت هناك حشودٌ هائلة منهم.

قال روبرت بانفعالٍ شديد: «يا للهول! ها هم قد تمنوا الحصول على قلعة، وهي محاصرة! إنها أمنيةٌ مخادعة تمامًا مثل عفريت الرمال! كم تمنيتُ لو أننا لم نرَ قط ذلك المخلوق البغيض!»

كان ثَمَّةَ شخصٌ يُلوِّح بشيء شاحب اللون في النافذة الصغيرة فوق البوابة العظيمة، عَبْر الخندق الذي هو موجود الآن في مكان الحديقة التي كانت بالمكان نفسه منذ نصف ساعة فقط. اعتقد روبرت أن هذا الشيء كان أحد مناديل سيريل. لم تكن بيضاء أبدًا منذ ذلك اليوم الذي أراق فيه زجاجة «مخلوط سائل التحميض وتثبيت الألوان» في الدرج حيث كانت المناديل، فلوَّحَ روبرت، وشعر على الفور أنه كان قرارًا طائشًا؛ فلقد لاحظتِ القوة المحاصرة إشارته، وأتى رجلان يرتدي كلٌّ منهما خوذةً معدنية نحوه. كانت أحذيتهما بنيةً طويلة تُغطِّي سيقانهما الطويلة، جاءا إليه بخطواتٍ واسعة لدرجة أن روبرت تذكر قصر ساقَيه فلم يهرب. علم أن ذلك لا فائدة منه، وخشي أنه إن فعل هذا، فقد يُثير غضب العدو؛ لذا وقف صامدًا، وبدا الرجلان مسرورَين من فعله.

قال أحدهما: «يا إلهي ما أشجعَ هذا الغلامَ الفارس!»

شعَر روبرت بالسعادة لوصفه إياه بذلك، وبطريقةٍ ما جعله هذا يشعر بأنه شجاع حقًّا. وغضَّ طرفه عن كلمة «الغلام». كانت هذه هي الطريقة التي يخاطب بها الناس في

الروايات التاريخية الصغارَ، وكان من الواضح أن الفظاظة لم تكن مقصودة. كان يأمل فقط أن يتمكن من فهمِ ما قالوه له؛ فهو لم يكن دائمًا ذا قدرةٍ عالية على فهم المحادثات في الروايات التاريخية للصغار.

قال الآخر: «إن ملابسه غريبة، يبدو أنه أحد الخونة الأغراب.»

«انطق أيُّها الغِرُّ، ما الذي أتى بك إلى هنا؟»

علم روبرت أنه يقصد أن يقول: «والآن أيُّها الشاب، ماذا تفعل هنا؟» لذا ردَّ قائلًا: «من فضلك، أريد العودة إلى المنزل.»

قال الرجل ذو الحذاء الأطول: «فلتذهب إذن! فلا شيء يُعيقك، ولا شيء يجعلنا نتبعك.» وأضاف بنبرةٍ حذرة: «يا زوكس، يخالجني شعور أنه يحمل أخبارًا للمحاصرين.»

قال الرجل ذو الخوذة الأكبر: «أين تسكن أيُّها المحتال الصغير؟»

قال روبرت: «هناك!»

قال الرجل ذو الحذاء الطويل: «ها، أهذا قولك؟ تعال من هنا يا غلام. هذه مسألةٌ ينبغي عرضها على قائدنا.»

وسحبا روبرت من أُذنه رغمًا عنه إلى القائد روبرت على الفور.

كان القائد أكثر المخلوقات المجيدة التي شاهدها روبرت على الإطلاق. كان يبدو كالصور التي كثيرًا ما أعجب بها في الروايات التاريخية. كان يرتدي درعًا، وخوذة، ولديه حصان، وعلى الخوذة شعار، وريش، ومعه تُرس، ورمح، وسيف. أنا على يقين من أن دروعه وأسلحته كانت جميعًا تعود إلى فتراتٍ مختلفة تمامًا. كان الدرع من القرن الثالث عشر، بينما كان السيف من النمط المستخدم في حرب الاستقلال الإسبانية. كان درعه من عهد تشارلز الأول، والخوذة تعود إلى حقبة الحملة الصليبية الثانية. كان الشعار الذي يحمله الدرع فخمًا للغاية وقد نُقشت عليه ثلاثة أسودٍ حمراء تركض على أرضٍ زرقاء. وكانت الخيام من الطراز الحديث، كان من المفترض أن يتسبَّب ظهور المعسكر والجيش والقائد في صدمةٍ هائلة للبعض. لكن روبرت كان غبيًّا بإعجابه ذاك، وبدا له أن الأمر كله صحيحٌ تمامًا؛ لأنه لم يكن يعرف شيئًا عن شعارات النبالة أو علم الآثار أكثر مما يعرفه الرسامون الموهوبون الذين عادةً ما رسموا صور الروايات التاريخية. لقد كان المشهد «أشبه ما يكون بصورة.» لقد أُعجب بكل ذلك لدرجة أنه شعر بأنه أكثر شجاعة من أي وقتٍ مضى.

قال القائد المجيد بعد أن قال له الرجلان ذوا القبعات على الطراز الكرومْوِلياني كلماتٍ حماسية بصوتٍ خفيض: «تعال هنا يا غلام.» وخلع خوذته؛ لأنه لم يستطع رؤيته

بوضوح وهي على رأسه. كان وجهه لطيفًا، وشعره أشقر طويلًا. قال: «لا تخف؛ فلن يصيبك أذًى.»

سعِد روبرت بذلك. وتساءل عن ماهية «الأذى» وما إذا كان أسوأ من شاي نبات السَّنا الذي كان عليه أن يتناوله في بعض الأحيان.

قال القائد بلطف: «احكِ قصتك بلا خوف، من أين أتيتَ؟ وما هي وجهتُك؟»

قال روبرت: «وجهتي ... ماذا؟»

«ما الذي تصبو لتحقيقه؟ ما هي مهمتك، التي تجعلك تتجوَّل هنا وحدك بين هؤلاء الرجال المسلحين؟ يا لك من ولدٍ مسكين، لا بد أن فؤاد والدتك ينفطر عليك الآن.»

قال روبرت: «لا أعتقد ذلك، إنها لا تعلم أنني خارج المنزل.»

مسح القائد دمعةً رجولية ذرفَتها عينه، تمامًا كما يفعل القادة في الروايات التاريخية، وقال:

«لا تخشَ قول الحقيقة يا بني. ينبغي ألا تخاف من ولفريك دي تالبوت.»

كان لدى روبرت شعورٌ جامح بأن هذا القائد المجيد للجيش المحاصر — كونه جزءًا من الأمنية — سيكون قادرًا على أن يفهم — أفضل من مارثا، أو الغجر، أو الشرطي في روتشستر، أو قس الأمس — القصة الحقيقية عن الأمنيات وعفريت الرمال. تكمن الصعوبة الوحيدة في أنه كان يعلم أنه لا يمكنه أن يتذكر ما يكفي من الكلمات القديمة، وأشياء من هذا القبيل، لجعل حديثه يبدو مثل حديثِ صبي في روايةٍ تاريخية. ومع ذلك، بدأ حديثه بجرأةٍ كافية، مع جملةٍ مقتبسة من رالف دي كورسي، أو الصبي المحارب الصليبي. قال:

«شكرًا للطفك، سيدي الفارس المنصف. الحقيقة هي مثلما سأحكيها الآن؛ وآمُل ألَّا تكون في عجلة من أمرك، لأن القصة إلى حدٍّ ما طويلة. إن أبي وأمي مسافران، وعندما كنا نلعب في الحفرة الرملية وجدنا أحد سامياد.»

قال الفارس: «ماذا؟ السامياد؟»

«نعم بالضبط — نوعٌ من العفاريت، أو ساحرٌ ما — نعم، هو كذلك، ساحر؛ وقال إننا يمكن أن نتمنى كل يوم أمنية، فتمنينا أولًا أن نُوهَب الجمال.»

تمتَّم أحد الرجال المسلَّحين وهو ينظر إلى روبرت قائلًا: «يبدو أن أمنيتك لم تتحقق كما ينبغي.» لكن روبرت استمر كما لو أنه لم يسمع شيئًا، على الرغم من تأكُّده من أن ما قاله كان وقحًا للغاية بالفعل.

«ثم كانت أمنيتنا التالية المال، لكننا لم نستطع إنفاقه. وبالأمس كنا نتمنى الأجنحة، وحصلنا عليها، ونعمنا بوقتٍ رائع في البداية.»

قال السيد ولفريك دي تالبوت: «كلامك غريب وغير واضح، أعد كلامك مرةً أخرى، نعمتم بماذا؟»

«بوقت رائع، أقصد وقتًا ممتعًا، لا بل قد استمتعنا لأقصى درجة ممكنة، هذا ما أقصده؛ إلا أننا بعد ذلك علقنا في مأزق عويص.»

«ماذا تعني كلمة مأزق؟ معركة، ربما؟»

«لا ... ليس معركة ... إنه ... مكانٌ ضيق.»

قال القائد في تعاطفٍ مهذبٍ: «في زنزانة؟ يا لأطرافك المقيدة المسكينة.»

قال روبرت موضحًا: «لم تكن زنزانة، لقد واجهنا فقط مصائب لم نكن نستحقها، ونحن اليوم معاقَبون بعدم السماح لنا بالخروج. وهذا هو المكان الذي أعيش فيه وأشار إلى القلعة. إخوتي الآخرون هناك، ولا يُسمح لهم بالخروج. كل ذلك كان خطأ السامياد؛ أعني خطأ الساحر. ليتنا لم نرَهُ قط.»

«هل هو ساحرٌ قوي؟»

«أجل، قويٌّ ونشيط للغاية!»

قال القائد الشجاع: «وهل تظن أن نفثات الساحر الذي أغضبته هي التي منحت القوة للجيش المحاصر؟ حريٌّ بك أن تعلم أن ولفريك دي تالبوت لا يحتاج إلى مساعدة ساحر لقيادة أتباعه إلى النصر.»

قال روبرت: «لا، أنا متأكد أنك لا تحتاج إلى ذلك، بالطبع لا، ولم تكن لتفعل. لكن، على الرغم من أن الخطأ خطؤه ولو جزئيًّا، لكننا نستحق اللوم أكثر. فلم تكن لتستطيع أن تفعل شيئًا لولانا نحن.»

سأل السير ولفريك ضاحكًا: «كيف ذلك أيُّها الولد الجريء؟ كلامك غامض ويفتقر إلى التهذيب. أريد حلًّا منك لهذا اللغز!»

قال روبرت يائسًا: «بالطبع أنت لا تعرف ذلك، لكنك لست حقيقيًّا على الإطلاق. أنت هنا فقط لأن الآخرين كانوا أغبياء بما فيه الكفاية حتمًّا ليتمنوا أن يكون لديهم قلعة، وعندما تغرب الشمس ستختفي تمامًا، وسيصبح كل شيء على ما يُرام.»

تبادل القائد والرجال المسلحون النظرات، كانت نظرات شفقة في البداية، وبعد ذلك صارت أشدَّ قسوة، عندئذٍ قال الرجل ذو الحذاء الأطول: «احذر يا سيدي النبيل؛ هذا القنفذ الصغير يتظاهر بالجنون ليهرب من أيدينا. ألا نُقيِّده؟»

قال روبرت بغضب: «أنا لست أكثر جنونًا منك أنت، وربما لستُ مجنونًا بذاك القدر؛ كل ما هنالك أنني كنت أحمق لدرجة أن أظن أنك ستفهم شيئًا. دعني أذهب، فلم أُوذِكَ بشيء.»

«إلى أين؟ ما هي وجهتك؟» سأله الفارس الذي يبدو أنه صدَّق كل قصة الساحر حتى وصل الأمر إلى الجزء الذي ذُكر فيه.

قال روبرت مشيرًا إلى القلعة: «إلى المنزل بالطبع.»

«لتوصل لهم أنباءً عن النجدة؟ لا.»

قال روبرت وقد واتَتْه فكرةٌ مفاجئة: «حسنًا إذن، اسمحوا لي أن أذهب إلى مكانٍ آخر.» بحث عقله بلهفة بين ذكرياته الخاصة بالروايات التاريخية.

قال بروية: «السير ولفريك دي تالبوت، يجب أن يفكر في عواقب الفعل المشين الذي سيجلبه عليه تحفظُّه على فتًى صغير لم يؤذِه بأي طريقة ويرغب في الانصراف بهدوء؛ أقصد الرحيل دون عنف.»

أجاب السير ولفريك: «أهذا يُقال لي أنا؟ يا لك من محتال!» ولكن يبدو أن التماسه قد حقق مراده المنشود. فأردف قائلًا في اهتمام: «ومع ذلك، فقد قلتَ الصدق، اذهب حيثُما تشاء؛ فالسير ولفريك دي تالبوت لا يحارب الأطفال، وسيوصلك جاكين إلى وجهتك.» قال روبرت بحماس: «حسنًا، سيستمتع جاكين، على ما أعتقد، تعال يا جاكين، تحيةً لك يا سير ولفريك.»

قدَّم له التحية على الطريقة العسكرية الحديثة، وانطلق راكضًا إلى الحفرة الرملية، ويجاريه جاكين في حذائه الطويل بسهولة.

وهناك أخذ يحفر حتى وجد عفريت الرمال، فأيقظه وأخرجه.

وتوسل إليه أن يحقِّق له أمنيةً أخرى.

غمغم قائلًا: «لقد حققتُ أمنيتَين بالفعل، وكانت إحداهما أصعب من أي أمنيةٍ سبق لي تحقيقها.»

قال روبرت «أوه، افعل، افعل، افعل، افعل، افعل!» بينما نظر جاكين فاغرًا فاه لفزعه من الوحش الغريب الذي تحدث، وحدَّق بعينَيه الحلزونيتَين فيه.

ردَّ عفريت الرمال بحدةٍ في نعاس قاطبًا جبينه: «حسنًا، ما هذا؟»

قال روبرت: «أتمنى لو كنتُ مع الباقين.» عندئذٍ بدأ عفريت الرمال في التضخم. لم يفكر روبرت قطُّ في تمنِّي القلعة والحصار. كان يعلم بالطبع أنها كانت مجرد أمنية،

لكن السيوف والخناجر والحراب والرماح بدت حقيقيةً لدرجة أنه لم يكن يستطيع سوى تمني زوالها. أُغشي على روبرت في الحال وعندما فتح عينَيه كان إخوته قد احتشدوا من حوله.

قالوا: «لم نشعر بقدومك إطلاقًا، كيف تأتَّى لك أن تتمنى أن تتحقق أمنياتنا؟!»

«لقد فهمنا بالطبع أنك كنت مسئولًا عما يحدث.»

«لكن كان يجب أن تخبرنا. لنفترض أننا تمنينا شيئًا سخيفًا.»

قال روبرت بغضب شديد: «سخيف؟ أريد أن أعرف هل هناك شيءٌ أكثر سخافة مما تمنيتموه بالفعل؟ لقد أوشكتم أن تُوقِعوني في الأسر؛ أؤكِّد لكم.»

ثم روى لهم قصته، فأقرَّ الباقون له أن التجربة كانت بالتأكيد قاسيةً عليه، لكنهم امتدحوا شجاعته وذكاءه بالقدْر الذي جعل حالته المزاجية أفضل بكثير، وشعر بأنه أكثر شجاعة من أي وقت مضى، ووافقوا على أن يكون قائد القوة المحاصَرة في القلعة.

قالت أنثيا بأريحية: «لم نفعل أي شيء بعدُ، لقد انتظرناك. سنُطلق عليهم من خلال هذه الفتحات الصغيرة الأقواس والسهام التي أعطاك إياها عمك، وستكون لك الرمية الأُولى.»

قال روبرت بحذر: «لا أعتقد أنني سأفعل ذلك؛ فأنتم لا تعرفون ما هم عليه بالفعل؛ فلديهم أقواس وسهامٌ حقيقية — بأطوالٍ فظيعة — وكذلك لديهم سيوف ورماح وخناجر، وكل أنواع الأدوات الحادَّة؛ كل ذلك حقيقي، حقيقي جدًّا. إنها ليست مجرد صورة أو رؤية أو أي شيء. يمكنها أن تؤذينا، أو تقتلنا حتى، بلا شك. ما زلت أشعر بالألم في أذني. انظروا هنا، هل استكشفتم القلعة؟ لأنني أعتقد أنه من الأفضل تركهم وشأنهم طالما تركونا وشأننا. سمعتُ ذلك الرجل الذي يُدعى جاكين يقول إنهم لن يشنوا هجومهم سوى قُبيل غروب الشمس مباشرة. يمكننا أن نستعد لذلك الهجوم. هل هناك أي جنود في القلعة للدفاع عنها؟»

قال سيريل: «لا نعرف؛ فكما ترى، ما إن تمنيت أنْ لو كنا في قلعةٍ محاصرة، حتى بدا أن كل شيء ينقلب رأسًا على عقب، وعندما استقر الأمر نظرنا مباشرة من النافذة ورأينا المخيم والأشياء الأخرى ورأيناك؛ وبالطبع ظللنا ننظر إلى كل شيء. أليست هذه الغرفة جميلة؟ إنها تبدو كما لو أنها حقيقية!»

كانت تبدو هكذا بالفعل. كانت مربعة الشكل، ذات جدرانٍ حجرية بسمك أربع أقدام، وعوارض كبيرة للسقف. وكان لها بابٌ منخفض في الزاوية يؤدي إلى مجموعةٍ

متواصلة من درجات سُلَّم، لأعلى ولأسفل. نزل الأطفال، فوجدوا أنفسهم أمام مدخلٍ مقوَّسٍ ضخم؛ كانت الأبواب الضخمة قد أُغلقت. وكانت هناك نافذة في غرفةٍ صغيرة في الجزء السفلي من برجٍ دائري متصل بدرَج، وكانت تلك النافذة أكبر من النوافذ الأخرى. نظروا من خلالِها فرأَوْا أن الجسر المتحرِّك كان مرفوعًا وبوابة الحصن مغلقة؛ بدا الخندق واسعًا وعميقًا جدًّا. وفي مواجهة الباب الكبير المؤدي إلى الخندق، كان هنالك بابٌ كبير آخر، به بابٌ صغير. مرَّ الأطفالُ من خلاله، فوجدوا أنفسهم في فناءٍ كبير مُعَبَّد، تحيط بهم من جوانب أربع الجدران الرمادية الكبيرة للقلعة.

وبالقرب من وسط الفناء، وقفت مارثا، وهي تُحرِّك يدها اليمنى إلى الخلف وإلى الأمام في الهواء. وكانت الطاهية تنحني للأسفل وتُحرِّك يدَيها أيضًا بطريقةٍ غريبة للغاية. لكن الأكثر غرابة والأكثر إفزاعًا في الوقت ذاته كان الحَمَل، الذي لم يكن يجلس على شيء وذلك على ارتفاع نحو ثلاث أقدام من الأرض، بينما كان يضحك في سعادة.

ركض الأطفال نحوه. وما إن مدت أنثيا يدها لتأخذه، قالت مارثا بغضب: «دعيه وشأنه، دعيه يا آنسة ما دام هو في مزاجٍ جيد.»

قالت أنثيا: «لكن ماذا يفعل؟»

«ماذا يفعل؟ لقد وضعته في مقعده المرتفع، كما نفعل بالذهب الثمين، وهو يراقبني بينما أقوم بكي الملابس. اذهبي، اذهبي؛ فقد بردَت مكواتي مرةً أخرى.»

ذهبت باتجاه الطاهية، وبدت وكأنها تشعل نارًا غير مرئية بموقدٍ غير مرئي، كما بدت الطاهية وكأنها تضع طبقًا غير مرئي في فرنٍ غير مرئي.

«اركضوا بعيدًا؛ فقد تأخرتُ في إنجاز عملي. لن تحصلوا على غدائكم لو أصررتم على تعطيلي بهذه الطريقة. هيا، غادروا، وإلا عاقبتكم بغسل الصحون.»

سألتها جين بقلق: «هل أنت متأكدة أن الحَمَل على ما يُرام؟»

«متأكدة تمامًا، ما لم تقلقوه. اعتقدتُ أنكم تريدون أن تتخلصوا منه اليوم، لكن خذوه، إذا كنتم تريدونه.»

قالوا: «لا، لا.» وسارعوا مبتعدين؛ فأمامهم مهمة الدفاع عن القلعة في الوقت الحاضر، وكان الحمل أكثر أمانًا حتى وهو معلقٌ في الهواء في المطبخ غير المرئي من أن يكون في غرفة حراسة القلعة المحاصرة. مروا بالمدخل الأول الذي أتوا منه، وجلسوا بلا حول ولا قوة على مقعدٍ خشبي يمتد بطول الغرفة.

قالت أنثيا وجين معًا: «يا له من أمرٍ بشع!» وأضافت جين: «أشعر كما لو كنت في مأوًى للمجانين.»

قالت أنثيا: «ماذا يعني هذا؟ إنه أمرٌ مزعج، ولا يروق لي تمامًا. ليتنا تمنينا شيئًا عاديًّا؛ حصانًا هزَّازًا، أو حمارًا، أو شيئًا من هذا القبيل.»

قال روبرت بمرارة: «لا فائدة من التمني الآن.»

وقال سيريل: «كفُّوا عن الكلام، أريد أن أفكر.»

ثم وضع وجهه في يدَيه، بينما نظر الآخرون من حولهم. كانوا في غرفةٍ طويلة ذات سقفٍ مقوَّس. كانت هناك طاولاتٌ خشبية بطول الغرفة، وأخرى بالعرض في آخر الغرفة، على منصةٍ مرتفعة. كانت الغرفة قاتمةً ومظلمة للغاية. وكانت الأرضية مليئةً بأشياءَ جافةٍ تشبه العِصِي، ولم تكن الرائحة جيدة.

انتصب سيريل فجأة وقال:

«انتبهوا! كل شيء على ما يُرام. أعتقد أن الأمر يجري على هذا النحو. كما تعلمون، كنا نتمنى ألَّا يلاحظ الخدم أي فرقٍ عندما تتحقق رغباتنا. ولا يحدث شيء للحَمَل ما لم نذكره في أمنيتنا؛ ولذلك بطبيعة الحال لم يلاحظوا وجود القلعة أو أي شيء، ولكن القلعة في المكان نفسه الذي كان فيه منزلنا والخدم لا بد أن يتصرفوا وكأنهم في المنزل، وإلا كانوا قادرين على ملاحظة ما حدث من تغيير، لكن لا يمكنكم الحصول على قلعة داخل منزلنا، ومن ثمَّ فلا يمكننا رؤية المنزل؛ لأننا نرى القلعة؛ ولا يمكنهم رؤيتها، لأنهم لا يزالون يرون المنزل؛ وهكذا ...»

قالت جين: «أوه، لا، أنت تجعل رأسي يسبح في دوامة، وتُصيبني بالدوار. كل هذا لا يهم! فقط، آمل أن نكون قادرين على رؤية غدائنا، هذا كل ما يهمُّني؛ لأننا لن نتحمَّل أن يكون غير مرئي، فلا نستطيع تناوُلَه! أعلم أنه سيكون غير مرئي؛ لأنني حاولت أن أتحسَّس كرسي الحَمَل، فلم أجد شيئًا تحته سوى الهواء. لا يمكننا أن نأكل الهواء، وأشعر كما لو أنني لم أتناول فطورًا قطُّ لسنواتٍ طويلة.»

قالت أنثيا: «لا فائدة من التفكير في الأمر، فلنذهب ونستكشف بأنفسنا؛ فربما قد نجد شيئًا نأكله.»

أشعل ذلك بصيص الأمل في صدورهم جميعًا، ومضَوْا قُدمًا لاستكشاف القلعة. ولكن على الرغم من أنها كانت أكثر القلاع التي يمكنك تخيُّلها مثالية وبهجة وكانت مُؤثَّثة على أكمل وأجمل وجه، فإنهم لم يعثروا على أي طعام أو رجالٍ مسلحين فيها. قالت جين

موبخةً: «كنت أتمنَّى لو أننا تمنينا على الأقل أن نصبح محاصرين في قلعة بها حامية ومؤن!»

قالت أنثيا: «لا يمكنكِ التفكير في كل شيء، تعلمين ذلك، وأعتقد أنه يجب أن يكون قد اقترب وقت الغداء الآن.»

لم يكن قد اقترب وقت الغداء، لكنهم توقَّفوا لمشاهدة الحركات الغريبة التي تصدُر عن الخدم في وسط الفناء؛ لأنهم بالطبع لم يكونوا متأكدين من مكان غرفة الطعام في المنزل غير المرئي. الآن هم يشاهدون مارثا وهي تحمل صينيةً غير مرئية عبر الفناء؛ لأن غرفة الطعام المنزلية وقاعة المآدب الخاصة بالقلعة كانتا في المكان نفسه لحسن حظهم، لكن تحسرت قلوبهم عندما أدركوا أن الصينية كانت غير مرئية!

انتظروا في صمتٍ بائسٍ بينما قامت مارثا بما يشبه تقطيع ساقٍ غير مرئية من لحم الضأن وتقديم الخضروات والبطاطس غير المرئية بملعقة لا يستطيع أحد رؤيتها. وعندما غادرت الغرفة، نظر الأطفال إلى المائدة الفارغة، ثم نظر بعضهم إلى بعض.

قال روبرت الذي لم يكن مهتمًّا اهتمامًا شديدًا بعشائه حتى ذلك الحين: «هذا أسوأ من أي شيء حدث لنا.»

قالت أنثيا محاولة أن تُظهر أفضل ما في الأمر كعادتها: «لست أتضور جوعًا.»

ضيَّق سيريل حزامه بتباهٍ، بينما انخرطت جين في البكاء.

الفصل السابع

حصارٌ وفِراش

كان الأطفال يجلسون في قاعة الولائم الخافتة الإضاءة، في نهاية إحدى الطاولات الخشبية العارية الطويلة. لم يكن ثَمَّةَ بصيصُ أملٍ الآن؛ فقد أحضرت مارثا الغداء، الذي لم يكن مرئيًّا ولا محسوسًا كذلك؛ لأنهم بعدما تحسَّسوا الطاولة بأيديهم، أيقنُوا أنه لم يكن هناك أيُّ شيءٍ سوى الطاولة.

فجأةً شعر سيريل بشيءٍ في جيبه.

صرخ قائلًا: «صحيح، أوه! انظروا هنا! إنه بسكويت.»

إنه مكسورٌ ومفتتٌ إلى حدٍّ ما بالتأكيد، ولكنه لا يزال بسكويتًا. ثلاث قطعٍ كاملة، وحفنة سخية من الفُتات والكسرات.

أوضح قائلًا وهو يقسمها بإنصافٍ شديد إلى أربعة أكوام: «لقد حصلت عليه هذا الصباح — من الطاهية — وقد نسيتُ تمامًا.»

التُهمت القطع جميعها في صمتٍ وشعورٍ غامرٍ بالسعادة، على الرغم من مذاقها الغريب بعض الشيء؛ لأنها كانت في جيب سيريل طيلة الصباح بجانب بكرة من الخيط السميك، وبعض أقماع التنوب الأخضر، وأنبوبة صمغ.

قال روبرت: «نعم، ولكن انظر يا سنجاب، أنت ماهر جدًّا في إيضاح الأشياء الخافية وغيرها. قل لنا كيف يكون البسكويت هنا، بينما اختفى جميع الخبز واللحوم والأشياء؟»

قال سيريل بعدما صمت لبرهة: «لا أعرف، إلا أن يكون ذلك بسبب وجودها المسبق معنا؛ فلم يتغيَّر شيء يخصنا. كل شيء في جيبي على ما يرام.»

قال روبرت: «إذن لو كان معنا لحم ضأن لوجدناه معنا في الحقيقة. أوه، ألا ليتنا تمنَّينا أن نجده!»

«لكن لا يمكننا إيجاده. أعتقد أنه ليس ملكنا إلى أن نضعه في أفواهنا.»

قالت جين وهي تفكر في البسكويت: «أو في جيوبنا.»

قال سيريل: «من الذي قد يضع لحم الضأن في جيبه، أيتها الفتاة الساذجة؟ لكنني أعرف — على أي حال — أنني سأحاول!»

انحنى على الطاولة وأنزل وجهه إلى ارتفاع نحو بوصة من سطح الطاولة، وأخذ يفتح فمه ويغلقه كما لو كان يقضم الهواء.

قال روبرت وهو في حالة كآبةٍ شديدة: «لا طائل من ذلك، كفاك عبثًا!»

وقف سيريل وعلى وجهه ابتسامة النصر، ممسكًا في فمه بقطعة من الخبز. كان ذلك حقيقيًّا جدًّا؛ فقد رأى الجميع ذلك. صحيح أن باقي الرغيف اختفى مباشرةً بعد أن قضمه، لكنه لم ينزعج؛ لأنه كان يعلم أن الخبز في يده على الرغم من أنه لا يستطيع رؤيته أو الشعور به. أخذ قضمة أخرى من الهواء بين أصابعه، فتحولت إلى خبز عندما قضمها. وفي اللحظة التالية، كان بقيَّتُهم يحذون حذوه، أخذوا يفتحون ويُغلقون أفواههم على ارتفاع بوصة أو نحو ذلك من الطاولة المكشوفة. التقط روبرت شريحةً من لحم الضأن و... لكنني أعتقد أنني سأُنزل الستار على بقيَّة هذا المشهد المؤلم. يكفي أن نقول إنهم تناولوا جميعًا كفايتهم من لحم الضأن، وإنه عندما جاءَت مارثا لتغيير الأطباق، قالت إنها لم تَرَ مثل هذه الفوضى مطلقًا في حياتها.

كانت الحلوى، لحسن الحظ، شطيرةً مستطيلة محشوة بالمربى، وعند ردِّهم على أسئلة مارثا، قال الأطفال جميعهم في اتفاق تام إنهم لا يريدون عليها دبس السكر — لا مربًّى ولا سكر — بل قالوا: «نريدها فقط دون إضافات، من فضلك.» قالت مارثا: «حسنًا، لم يحدث من قبلُ أن ... إني أتساءل عما ستفعلونه بعد ذلك؟» ثم انصرفت.

تلا ذلك مشهدٌ آخر لن أسهب في الحديث عنه؛ لأنه ما من أحدٍ يبدو لطيفًا مثل الكلب وهو يلتقط شرائح الحلوى المحشوة بالمربَّى من فوق الطاولة في فمه. أعظم ما في الأمر هو أنهم قد تناولوا الغداء؛ شعر الجميع الآن بشجاعة أكبر من أجل التأهُّب للهجوم الذي كان من المفترض أن يشنُّوه قبل غروب الشمس. أصرَّ روبرت — بصفته القائد — على الصعود على قمة أحد الأبراج للاستطلاع؛ لذا صعدوا جميعًا. صار بإمكانهم الآن أن يروا جميع أركان القلعة، كما استطاعوا أيضًا أن يرَوْا ما بعد الخندق، من كل جانب حيث كانت خيام الجيش المحاصِر منصوبة. ثم سرت رجفة في أوصال الصغار الذين لم يشعروا بارتياحٍ لمَّا رأوا أن جميع الرجال كانوا مشغولين للغاية بتنظيف أو شحذ أسلحتهم، وشدِّ أقواسهم، وتلميع دروعهم. ثم جاءت مجموعةٌ كبيرة على طول الطريق،

وقد جرَّت الخيول جذع شجرةٍ كبيرة؛ فامتقع وجه سيريل وشحب للغاية، لأنه كان يعلم أن هذا كان مدقًّا حربيًّا لدكِّ الحصون.

قال: «يا له من شيءٍ جيد أن لدينا خندقًا، ومن الجيد أيضًا أن الجسر مرفوع؛ لأنني لم أكن لأعرف قَط كيف يُرفع.»

«بالطبع سيكون مرفوعًا في قلعةٍ محاصرة.»

قال روبرت: «ألا تعتقد أنه كان ينبغي أن يُوجد بها جنود؟»

قال سيريل بحزن: «أنت تعلم أنك لا تستطيع معرفة كمْ من الوقت مرَّ على القلعة تحت الحصار، فربما يكون معظم المدافعين الشجعان قد قُتلوا في وقتٍ مبكر جدًّا من الحصار ونفد الطعام والمؤن، والآن لا يُوجد سوى عددٍ قليل من الناجين البواسل؛ وهم نحن، وسندافع عنها حتى الموت.»

سألت أنثيا: «كيف ستبدءون؟ أقصد الدفاع حتى الموت.»

«يجب أن نكون مسلحين بأسلحةٍ ثقيلة، ثم نطلق النار عليهم عندما يتقدَّمون للهجوم.»

قالت أنثيا: «لقد اعتادوا صبَّ الرصاص المغلي على المحاصِرين إذا اقتربوا أكثر من اللازم، أراني أبي الثقوب المخصَّصة لصبِّه في قلعة بوديام. وهناك ثقوب مثلها في برج البوابة هنا.»

قالت جين: «أعتقد أنني سعيدة لأنها مجرد لعبة؛ إنها مجرد لعبة، أليست كذلك؟»

لكن لم يُجِبْها أحد.

وجد الأطفال الكثير من الأسلحة الغريبة في القلعة، ولو أنهم كانوا تسلحوا من الأساس، لسرعان ما اتضح أنهم كانوا سيصبحون، كما قال سيريل: «مسلحين بأسلحةٍ ثقيلة.» لأن هذه السيوف والرماح والأقواس والنبال كانت ثقيلة للغاية حتى بالنسبة إلى سيريل ذي القوة الرجولية؛ وبالنسبة إلى الأقواس الطويلة، لم يَتمكَّنْ أيٌّ من الأطفال حتى من ثنيها؛ لذا فقد كانت الخناجر أفضل. لكن جين كانت تأمل ألَّا يقترب المحاصِرون بالدرجة الكافية التي تُحتِّم استخدام الخناجر.

قال سيريل: «لا يهم، يمكننا أن نرميها مثل الرماح، أو نُسقطها على رءوس الجنود. أرى أن هناك الكثير من الحجارة على الجانب الآخر من الفناء. فإذا تمكنَّا من رفع البعض منها، فما علينا إلا أن نُسقطها على رءوسهم إذا حاولوا عبور الخندق.»

وسرعان ما تعالَتْ كومة من الحجارة في الغرفة التي فوق البوابة. ثم تلتْها كومةٌ أخرى، كومة لامعة تبدو خطيرة، من الخناجر والسكاكين.

وبينما كانت أنثيا تمر عَبْر الفِناء بحثًا عن المزيد من الحجارة، خطَرَت لها فكرة مفاجئة ونافعة. ذهبت إلى مارثا وقالت لها: «هل يمكننا الحصول على بسكويت الشاي، سنلعب لعبة القلاع المحاصَرة، ونود أن نوفر البسكويت للحامية. ضعيه لي في جيبي — من فضلك — فيداي متسختان للغاية. وسأطلب من الباقين أن يجلبوا البسكويت الخاص بهم أيضًا.»

كانت هذه فكرةً سديدةً حقًّا؛ فقد أصبح لديهم الآن أربع حفنات سخية من الهواء، تحوَّلت إلى بسكويت عندما ملأت به مارثا جيوبهم، فصارت الحامية مزودةً جيدًا بالمؤن حتى موعد غروب الشمس.

أحضروا بعض الأواني الحديدية المملوءة بالماء البارد ليصبُّوه على المحاصِرين بدلًا من الرصاص الساخن، والذي يبدو أنه لم يكن متوفرًا بالقلعة.

مرت فترةُ ما بعد الظهر بسرعةٍ هائلة. كان الأمر مثيرًا للغاية لكن طوال الوقت لم يشعر أحدٌ منهم — باستثناء روبرت — بأن هذا عملٌ خطير مميت في الحقيقة. أما بالنسبة إلى الآخرين — الذين لم يروا سوى المعسكر والمحاصِرين من مسافةٍ بعيدة — بدا الأمر برمته وكأنه منقسم بين لعبةٍ رائعة، وحلمٍ رائع وآمن تمامًا. ومع ذلك فقد كان يُراود روبرت هذا الشعور بين الفينة والأخرى.

عندما بدا للأطفال أن وقت الشاي قد حان، تناولوا البسكويت بالماء الذي جلبوه من البئر العميقة في الفناء، وارتشفوه. أصرَّ سيريل على الاحتفاظ بثماني قطع من البسكويت؛ تحسبًا لشعور أحدهم بالإغماء من ضغوط المعركة.

وبينما كان سيريل يضع البسكويت الاحتياطي في خزانةٍ حجرية صغيرة من دون باب، أسقط ثلاث قطع من يده بسبب صوتٍ مفاجئ. كانت تلك صرخةً رهيبة بصوتٍ عالٍ صدرت من بوق.

قال روبرت: «أترى أن الأمر حقيقي، ولسوف يهاجموننا؟»

فهُرع الجميع إلى النوافذ الضيقة.

قال روبرت: «أجل، فها هم يخرجون جميعًا من خيامهم ويتحركون مثل النمل. وهناك يرقص جاكين عند التقاء الجسر بالضفة، أتمنى أن يراني وأنا أُخرج لساني في وجهه! نعم!»

كان الآخرون خائفين جدًّا للدرجة التي منعتْهم من التفكير في إخراج ألسنتهم لأي شخص. فنظروا إلى روبرت في إجلال تعلوه دهشة. قالت أنثيا:

«أنت حقًّا شجاع يا روبرت.»

لم يستغرق الأمر دقيقة حتى تحوَّل شحوب سيريل إلى احمرار. قال: «هراء، لقد كان يتجهز ليكون شجاعًا طوال فترة ما بعد الظهر. ولم أكن أفعل؛ هذا كلُّ ما في الأمر. سأكون أكثر شجاعة منه في لمح البصر.»

قالت جين: «لا يهم يا عزيزي من منكما هو الأشجع، ولكني أعتقد أنك يا سيريل كنت ساذجًا للغاية لتتمنى الحصول على قلعة، ولم أعُد أريد اللعب.»

قال روبرت في عناد: «الأمر ليس كذلك ...» ولكن أنثيا قاطعته ...

قالت أنثيا محاولة إغراء جين: «بل تودين اللعب، فهي لعبة جميلة للغاية، حقًّا، لأنهم لا يستطيعون الدخول إليها، وحتى إن فعلوا ذلك، فإن الجيوش المتحضِّرةَ دائمًا ما تُحسن معاملة النساء والأطفال.»

سألتْها جين بلهفة: «لكن هل أنتِ متأكدة تمامًا من أنهم متحضِّرون؟ يبدو عليهم أنهم قادمون من زمنٍ بعيد.»

أشارت أنثيا بمرح عبر النافذة الضيقة قائلة: «بالطبع هم كذلك، لماذا؟ انظري إلى الأعلام الصغيرة على رماحهم، ومدى سطوعها، ومدى أناقة القائد! انظري، هذا هو — أليس كذلك يا روبرت؟ — الممتطي صهوة الحصان الرمادي.»

قبلت جين أن تنظر، وكان المشهد جميلًا جدًّا لدرجة لا تجعله منذرًا بالخطر. العشب الأخضر، والخيام البيضاء، ووميض من الرماح المدببة، ولمعان الدروع، والألوان الزاهية في الأوشحة والسترات؛ كان الأمر أشبه بصورةٍ ملونةٍ رائعة. نُفختِ الأبواق، وعندما توقفت الأبواق لالتقاط الأنفاس، كان بإمكان الأطفال سماع صوت قعقعات الدروع وهمهمات المحاربين.

تقدَّم نافخ البوق إلى حافة الخندق، الذي بدا الآن أضيق كثيرًا مما كان عليه في البداية، ونفخ أطول وأعلى نفخة سمعوها. وعندما تبدَّد الضجيج الصارخ، صاح الرجل الذي كان مرافقًا لنافخ البوق وصرخ بصوتٍ عالٍ يمكن أن تسمعه بوضوحٍ الحامية التي بداخل القلعة قائلًا: «أنتم يا من هناك!»

ردَّ روبرت بصياح كصياحه في الحال: «مَن هناك؟!»

«باسم سيدنا الملك، وباسم سيدنا الصالح وزعيمنا الموثوق به السير ولفريك دي تالبوت، ندعو هذه القلعة إلى الاستسلام، وإلا فهذا تهديدٌ لكم بالنار والسيف دون رحمة. هل تستسلمون؟»

صاح روبرت قائلًا: «لا، بالطبع لن نستسلم أبدًا، لن نستسلم أبدًا!»

ردَّ عليه الرجل:

«إذن جنيتم على أنفسكم.»

قال روبرت لإخوته هامسًا في حماس: «اهتفوا، اهتفوا لنريهم أننا لسنا خائفين، ولنقرع بالخناجر لنحدث مزيدًا من الضجيج. واحد اثنان ثلاثة! هجوووم! مرة أخرى، هجوووم! مرة أخيرة، هجوووم!» كانت الهتافات مرتفعةً وضعيفةً إلى حدٍّ ما، لكن قرع الخناجر أضفى عليها القوة والعمق.

انطلقت صيحةٌ أخرى من المعسكر عبر الخندق، ثم شعرت القوة المحاصَرة في القلعة أن الهجوم قد بدأ بالفعل.

كان الجو مظلمًا إلى حدٍّ ما في الغرفة التي تعلو البوابة الكبيرة، وحصلت جين على القليل من الشجاعة الآن؛ لأنها تذكَّرت أن غروب الشمس لا يمكن أن يكون بعيد المنال.

قالت أنثيا: «الخندق صغيرٌ للغاية.»

قال روبرت «لكنهم لا يستطيعون الدخول إلى القلعة حتى لو عبروه.» وبينما كان يتحدَّث، سمع وقع أقدامٍ على الدرج الخارجي؛ أقدام ثقيلة وقعقعة حديد. انقطعت أنفاسهم للحظة. صعد صاحب صوت الحديد والقدمَين على درج البرج، ثم انطلق روبرت بهدوء نحو الباب، ونزع حذاءه.

همس قائلًا: «انتظروا هنا.» وتسلل بسرعة وبهدوء خلف صوت الحذاء الطويل وقعقعة الدرع. اختلس النظر إلى الغرفة العليا. كان الرجل هناك، وكان ذاك هو جاكين، يتقاطر منه ماء الخندق، وكان يحرِّك الماكيناتِ التي تأكَّد روبرت من أنها تخص الجسر المتحرك. أغلق روبرت الباب فجأة، وأدار المفتاح الضخم في القفل، تمامًا في الوقت الذي هرع فيه جاكين نحو الباب. ثم نزل روبرت كالبرق إلى الطابق السفلي ودخل إلى برجٍ صغير عند سفح البرج الكبير حيث كانت أكبر نافذة.

صاح في الآخرين وهم يتبعونه «يجب أن ندافعَ عن هذا!» حدث ذلك في الوقت المناسب. فقد سبح رجلٌ آخر، وكانت أصابعه على حافة النافذة. لم يعرف روبرت قط كيف تمكَّن الرجل من الصعود من الماء. لكنه رأى أصابعه المتشبثة، فضربها بأقصى ما

يستطيع بقضيبٍ حديدي التقطه من الأرض. سقط الرجل مع صوت اصطدام بالماء في الخندق، وفي اللحظة التالية، كان روبرت خارج الغرفة الصغيرة، وأغلق بابها وسارع بغلق المزلاج الضخم ودعا سيريل إلى مساعدته.

ثم وقفوا عند المدخل المقوس، يلهثون وينظرون بعضهم إلى بعض. وكان فم جين مفتوحًا.

قال روبرت: «ابتهجي يا جين، فلن يستمر ذلك لفترة أطول.»

كان هناك صوت صرير عالٍ، واهتزاز شيء ما ورَّجة عظيمة. وبدا الرصيف الذي كانوا يقفون عليه يهتزُّ بشدَّةٍ. ثم استنتجوا من صوت التحطُّم أن الجسر المتحرِّك قد أُنزل إلى مكانه.

قال روبرت: «إنه الوغد جاكين هو من أنزله، ولا يزال هناك البوابة الحديدية، أكاد أجزم بأن هذه تعمل من أسفل.»

والآن سُمعت أصداء وقع حوافر الخيول وأقدام الجنود المُدجَّجين بالأسلحة، صرخ روبرت: «إلى الأعلى بسرعة، دعونا نُسقط الأشياء عليهم.»

حتى الفتاتان كانتا تشعران بالشجاعة الآن بدرجة ما. تبِعتَا روبرت بسرعة، وتحت توجيهاتِه بدأتا في إسقاط الحجارة عبر النوافذ الضيقة الطويلة. كان هناك ضجيجٌ مشوش بالأسفل، وبعض التأوُّهات.

قالت أنثيا وهي تضع الحجر الذي كانت ستلقيه: «يا للهول! أخشى أن نكون قد آذينا شخصًا ما!»

أمسك روبرت الحجر في غضب.

وقال: «آمل فقط أن نكون قد أصبناهم حقًّا! تمنَّيتُ لو أن معي مياهًا مغلية في غلايات من الرصاص لأصبَّها عليهم. كانوا سيستسلمون بالطبع؟»

ومع اقتراب أصوات الأقدام، ثم توقُّفِها فجأة، سمعوا عند ذلك رطمة كالرعد من المِدَق الحربي. وصارت على إثرها الغرفة الصغيرة شبه مظلمة تمامًا.

صرخ روبرت قائلًا: «لقد قاومْناهم، ولن نستسلم، وستغرب الشمس خلال دقيقةٍ واحدة. هم جميعًا يثرثرون بالأسفل مرة أخرى. من المؤسف أنه ليس لدينا وقت للحصول على المزيد من الحجارة! هاكم، صبُّوا تلك المياه عليهم. هذا لن يمنع تقدُّمَهم بالطبع، ولكنهم سوف يكرهون ذلك.»

قالت جين: «يا للهول! ألا تعتقد أنه كان من الأفضل لنا لو كنا استسلمنا؟»

قال روبرت «مطلقًا! سنُفاوضهم إذا أردتم، لكننا لن نستسلم أبدًا، سأكون جنديًّا عندما أكبر، أتعلمون إن لم أصبح جنديًّا فلن أذهب إلى الخدمة المدنية، مهما لقيت من معارضة.»

قالت جين متضرعة: «دعنا نُلوِّح بمنديل ونطلب التفاوض، فلا أعتقد أن الشمس ستغرب أبدًا.»

قال روبرت المتعطش للدماء: «صبُّوا عليهم الماء أولًا؛ أولئك الأوغاد!» فأمالَتْ أنثيا الوعاء فوق أقرب ثقب، وسكبت ما فيه. سمعوا صوت الارتطام بالأسفل، ولكن يبدو أن أحدًا لم يشعر بذلك، عندها ضرب المِدق الحربي الباب الكبير مرة أخرى. فتوقفت أنثيا.

قال روبرت وهو مستلقٍ على الأرض وقد ركَّز انتباهه على الثقب: «يا له من غباء، بالطبع تؤدي هذه الثقوب مباشرة إلى المدخل. هذا عندما يكون العدو قد تخطَّى الباب والبوابة، وذهب كل شيء تقريبًا سدًى. هيا، إليَّ بالقدر.» زحف إلى حافة النافذة الثلاثية الحواف في منتصف الجدار، وأخذ القدر من أنثيا، وصبَّ الماء في الخارج خلال فتحة السهم.

وفي الوقت الذي كان يصبُّ فيه الماء، خفتَ ضجيج المِدقِّ الحربي وأصوات أقدام العدو والصيحات المنادية بـ «الاستسلام» والتي تهتف قائلة «دي تالبوت إلى الأبد!» فجأة خبا كل ذلك كالشمعة؛ وبدا أن الغرفة المظلمة الصغيرة تدور حول نفسها وتنقلب رأسًا على عقب، وعندما أفاق الأطفال كانوا آمنين وسالمين، في غرفة النوم الأمامية الكبيرة بمنزلهم؛ المنزل ذي السقف الحديدي الممتد إلى السطح الذي يُعد كابوسًا للمعماريين.

تجمَّعوا كلهم عند النافذة ونظروا. لقد اختفى الخندق والخيام والقوة المحاصرة جميعها، وحلَّ محلها حديقة بأغصانها المتشابكة من الزنابق والزهور المخملية وزهور النجمة، والسور الحديدي ذو الرءوس الناتئة والطريق الأبيض الهادئ.

أخذ الجميع نَفَسًا عميقًا.

قال روبرت: «وها هو كل شيء أصبح على ما يُرام، قلت لكم ذلك، ولا زلت أقول، إننا لن نستسلم أليس كذلك؟»

قال سيريل: «ألا تشعرون بالسعادة الآن لأني تمنيتُ القلعة؟»

قالت أنثيا ببطء: «أعتقد ذلك الآن، لكنني لن أتمنى أن أخوض تلك التجربة مرةً أخرى يا سنجابي العزيز!»

قالت جين بشكلٍ غير متوقع: «أوه، كان ذلك ببساطةٍ أمرًا رائعًا! ولم أشعر بِذَرَّة خوف.»

قال سيريل مُبتدئًا حديثه قائلًا: «أوه يمكنني أن أقول ...» لكن أنثيا قاطعته.

قالت: «انتبهوا، لقد خطر لي هذا الأمر الآن. إن هذا هو أول شيءٍ تمنيناه ولم يتسبَّب في شجارٍ بيننا، ولم يكن هناك أي نزاع ولا خلاف بشأنه، كما أن مَنْ بالأسفل ليسوا بغاضبين منا؛ فنحن آمنون وسالمون، لقد مررْنا بيومٍ شديد الرعب، ليس مرعبًا تمامًا، لكنكم تعرفون ماذا أقصد. ونحن نعرف الآن مدى شجاعة روبرت وبالطبع سيريل وجين. كما أننا لم نتشاجر مع أحد من الكبار.»

وهنا فُتح البابُ فجأةً وبعنفٍ بالغ.

وجاء صوت مارثا: «يجب أن تخجلوا من أنفسكم.» استطاعوا أن يفهموا من صوتها أنها غاضبة جدًّا بالفعل. وأردفت قائلة: «كنت على يقين أنكم لا يمكنكم أن تستمروا طوال اليوم دون ارتكاب حماقات، ألا يمكن لأي شخص أن يستنشق الهواء على عتبة الباب الأمامي إلا ويجدكم تُفرغون إبريق غسل اليدين على رأسه؟! هيا اذهبوا بسرعة إلى أَسِرَّتكم، جميعكم، وحاولوا أن تستيقظوا أطفالًا أفضل في الصباح. الآن، لا تجعلوني أكرِّر ما قلته. إذا وجدت أيًّا منكم لم يَنَم في غضون عشر دقائق، فستعلمون ما أصنع، أفسدتم غطاء رأسي الجديد، وكل شيءٍ آخر!»

خرجت وهي تنتفض غضبًا وسط جوقة من الأسف والاعتذار. كان الأطفال يشعرون بالأسف البالغ، لكن في الحقيقة لم تكن تلك أخطاءهم. فلا يمكنك منع ذلك إذا كنت تسكب الماء على عدوٍّ يحاصرك، ثم تتحوَّل قلعتك فجأة إلى منزلك، وكل شيء يختفي معها باستثناء الماء، الذي صادف أن سقط على الغطاء النظيف الذي يضعه شخصٌ آخر على رأسه.

قال سيريل: «لا أعرف لماذا لم يختفِ الماء، برغم ذلك.»

قالت جين: «ولماذا سيختفي؟ فالمياه موجودة في جميع أنحاء العالم، وأتوقع أن تكون البئر التي كانت في القلعة هي البئر نفسها التي في فنائنا.» وهكذا كان الأمر فعلًا.

قال سيريل: «كنت متأكدًا من أننا لا نستطيع تمضية يوم نتمنَّى فيه أمنية بدون أن نخوض شجارًا، لقد كان الأمر أجمل من أن يُصدقه عقل. هيا يا روبرت أيُّها البطل العسكري. لو انطلقنا إلى الفراش بسرعةٍ فلن تكون غاضبة لهذه الدرجة، ولربما قدَّمت لنا العشاء. أنا جائعٌ للغاية، ليلة سعيدة يا أطفال.»

قالت جين: «تصبحون على خير، وآمل ألا تعود القلعة ليلًا.»

قالت أنثيا بحيوية: «بالطبع لن تعود القلعة، لكن مارثا ستفعل؛ ليس في الليل، ولكن خلال دقيقةٍ واحدة. هيا استديري، لأحل عقدة مئزرك.»

قالت جين حانقة: «ألن يكون الأمر مهينًا للسير ولفريك دي تالبوت، أن يعرف أن نصف الحامية المحاصَرة كانت ترتدي مآزر أطفال؟»

قالت أنثيا: «بينما يرتدي نصفها الآخر سراويل قصيرة. أجل إنه أمرٌ مهين جدًّا. اثبتي مكانك، حتى أستطيع حلَّ العقدة.»

الفصل الثامن

أكبرُ من صبي الخبّاز

قال سيريل: «انتبهوا لما سأقوله؛ فلديَّ فكرة.»

قال روبرت بتعاطف: «هل تؤلِّمك بشدة؟»

«لا تكن وقحًا؛ فأنا لا أخادع.»

قالت أنثيا: «اصمت، يا روبرت!»

قال روبرت: «سُكوتًا لنسمع خطبة السنجاب.»

بينما كان سيريل يحاول الاحتفاظ بتوازنه على حافة خزان المياه في الفناء الخلفي، حيث صادف أن اجتمع عنده الجميع، تحدَّث قائلًا: «أيُّها الأصدقاء، أيُّها الرومان، أيُّها السادة، أيتها السيدات، لقد وجدنا عفريت رمالٍ، وقد حقق لنا أمنيات، وصار لنا أجنحة، وكنا في غاية الجمال، لقد كان ذلك ممتعًا جدًّا لحدٍّ لا يُوصف، وكان لدينا الثروة والقلاع، كما خضنا تجربة صعبة مع هؤلاء الغجر الذين كانوا يرغبون في أخذ الحَمَل منا. حدث لنا كلُّ هذا، لكننا لم ننتفع بشيء، ليس لدينا أي شيء يستحق أن نشعر بالامتنان لأجله، في واقع الأمر.»

قال روبرت: «ولكن كان هناك أشياء تحدث، كانت أمنيتنا دومًا ما تتحقق.»

قال سيريل بحزم: «هذا لا يكفي، ما لم تكن هي الأمنيات الصائبة، وقد كنتُ أفكر ...» همس روبرت قائلًا: «هل فعلت حقًّا؟»

«... في سكون الليل، يبدو الأمر كما لو طُلب منك فجأة استذكار شيءٍ من التاريخ؛ تاريخ معركة أو ما شابه، تلك المعلومة تظل على علم بها طوال الوقت، ولكن عندما تُسأل عنها، تخرج من رأسك فلا تجدها. سيداتي سادتي، أنتم تعرفون جيدًا أننا عندما نرتكب الحماقة كعادتنا تَتراكَمُ علينا أكوام من المشكلات، ثم عند ذلك تخطر على أذهاننا الأمنية الحقيقية الجديرة بالطلب لكل رائي ...»

قال روبرت لهم: «اسمعوا، اسمعوا!»

تابع سيريل قائلًا: «... لكل رائي، مهما كان غبيًّا، لماذا، حتى روبرت قد يفكر في رغبة مفيدة حقًّا هذا إذا لم يجرح عقله الصغير السقيم وهو يحاول التفكير جاهدًا، اخرس يا روبرت، أقول لك! لقد حان وقت إنهاء استعراضك.»

على حافة خزان المياه، شبَّ صراعٌ مثير أصابهما ببلل، وعندما انتهى الأمر، وجفَّ الصبيَّانِ جزئيًّا، قالت أنثيا:

«لقد كنت أنت حقًّا من بدأ ذلك يا روبرت، الآن وقد أرضيت غرورك، هلا تركت السنجاب يكمل؛ فنحن نُهدر الصباح بأكمله.»

قال سيريل وهو لا يزال يعصر ذيل سترته: «حسنًا إذن، سأدعو إلى هدنة إذا أراد روبرت ذلك.»

قال روبرت متجهمًا: «حسنًا، قبلت ذلك، لكن لديَّ تورمٌ كبير مثل كرة الكريكيت فوق عيني.»

عرضت أنثيا بتعقُّل منديلًا غباريَّ اللون، فبلَّل روبرت جروحه في صمت، قالت أنثيا: «والآن، يا سنجاب.»

«حسنًا — دعونا فقط نلعب لعبة قُطَّاع الطرق أو بناء الحصون أو الجنود أو أيًّا من الألعاب القديمة. نحن واثقون من أننا نفكر عندما نحاول ألا نفعل. هذا ما تفعلونه دومًا.»

وافق الآخرون، واختاروا لعبة قُطَّاع الطرق على عجل. قالت جين عابسةً: «إنها جيدة كأي لعبة أخرى.» يجب أن نقرَّ بأن روبرت لم يكن في البداية إلا قاطع طريق تعوزه الحماسة، ولكن عندما استعارت أنثيا من مارثا منديلًا ذا نقاط حمراء، كان الحارس قد أحضر فيه حبَّات الفِطر خاصتها صباح ذلك اليوم، وربطت به رأس روبرت حتى يبدو كما لو أنه البطل الجريح الذي أنقذ حياة رئيس العصابة بالأمس، فقد شعر بالابتهاج للغاية، وسرعان ما أصبحوا جميعًا مسلحين. وتبدو الأقواس والسهام المتدلية على ظهورهم جيدة، وتعطي المظلات وعصي الكريكيت العالقة في الحزام انطباعًا جيدًا بأنهم مدجَّجون بالسلاح. وللقبعات المصنوعة من القطن الأبيض التي يرتديها الرجال في الريف هذه الأيام تأثيرٌ لصوصي كبير جدًّا عندما تُعلق فيها بضع ريشات من ديك رومي. كانت عربة الحَمَل مغطاةً بمفرش طاولة ذي مربعاتٍ تحمل اللونين الأحمر والأزرق؛ ما جعل منها عربةَ أمتعةٍ مثيرةٍ للإعجاب. كان الحَمَل نائمًا بداخلها ولم يكن حجر عثرة في طريقهم، وهكذا انطلقت العصابة على طول الطريق المؤدي إلى الحفرة الرملية.

قال سيريل: «من الأفضل أن نكونَ بالقرب من عفريت الرمال في حالِ ما إذا خطرَت لنا فكرة فجأة.»

من الجيد جدًّا أن تقرِّر أن تلعبَ لعبة العصابات أو لعبة الشطرنج، أو كرة الطاولة، أو أي لعبة أخرى مقبولة ولكن ليس من السهل فِعْل ذلك بحيوية وحماس عندما تكون كل الرغبات الرائعة التي يمكنك التفكير فيها، أو التي لا يمكنك التفكير فيها، قابَ قوسَين منك أو أدنى. أضحت اللعبةُ مملَّةً بعض الشيء، حين بدأ بعض اللصوص الشعور بأن الآخرين كانوا مُملِّين، وقالوا ذلك بصراحة، حينما جاء صبي الخبَّاز على الطريق ومعه أرغفة في سلة؛ فلم يكونوا ليضيعوا الفرصة.

صرخ سيريل قائلًا: «قف وسلِّم ما معك!»

قال روبرت: «إما أموالك، وإما حياتك!»

ووقفا على جانبي صبي الخبَّاز. لسوء الحظ، لم يبدُ أنه متحمسٌ للمشاركة في اللعب معهم. كان صبي الخبَّاز كبير الحجم على نحوٍ غير معتاد. لقد اكتفى بالقول:

«ابتعدوا عني الآن، هل تسمعون؟» ودفع قُطَّاع الطريق جانبًا بازدراءٍ شديد.

عندئذٍ لفَّ روبرت حبل النط الخاص بجين حول الصبي، وبدلًا من التفاف الحبل حول كتفيه، كما أراد روبرت، التفَّ حول قدميه فسقط على الأرض. انقلبَت السلة، وتناثرَت الأرغفة الطازجة الجميلة على قارعة الطريق الطباشيري المُغبَّر، ركضَت الفتاتان لالتقاطها، وفي لحظةٍ كان روبرت وصبي الخبَّاز يتقاتلان، رجلًا لرجل، بينما وقف سيريل متفرجًا ليكون القتال نظيفًا وعادلًا بينما حبل النط يلتف حول أرجلهم مثل ثعبان مهتم يرغب في الإصلاح بينهما، ولكنه لم ينجح في ذلك. في الحقيقة لم تكن الطريقة التي كان يبزغ بها مقبضا الحبل الخشبيان فجأة وبسرعة ليضربا المتقاتلين في ساقيهما وكاحليهما طريقة إحلال سلام على الإطلاق. أعلم أن هذه هي المعركة — أو الشجار الثاني — في هذا الفصل، لكن لا أستطيع سوى التحدث عنه. كان هذا من الأيام العصيبة. بالتأكيد تعلمون أن هناك أيامًا يبدو أنكم تخوضون فيها معارك، دون إرادة منكم. ولو كنتُ كاتبةً لقصص المغامرة كتلك التي اعتدتُ قراءتها في مجلة «صبية إنجلترا» عندما كنت صغيرةً، لأستطعتُ بالطبع وصف المعركة، لكنني لا يمكنني فعل ذلك. لا يمكنني أبدًا أن أفهم ما يحدث أثناء القتال، حتى عندما لا يكون سوى قتال بين كلاب، كما أنني لو كنت أحد الكُتَّاب المساهمين في مجلة «صبية إنجلترا»، لكان روبرت حصل على المركز الأول، لكنني مثل جورج واشنطن، لا أستطيع أن أكذب، حتى على شجرة كرز، ناهيك

عن أن يكون قتال، ولا يمكنني أن أخفي عنكم أن روبرت تعرض للضرب المبرح، للمرة الثانية في ذلك اليوم. فقد أحدث صبي الخبَّاز تورُّمًا في عينه الأخرى، ونظرًا لأنه كان يجهل القواعد الأولى للَّعب النظيف والسلوك الراقي، فقد شدَّ كذلك شعر روبرت وركله في ركبته، اعتاد روبرت دائمًا أن يقول إنه كان يمكنه أن يُوسِع الجَزَّار نفسه ضَربًا لولا وجود الفتاتَيْن، لكنني لست متأكدةً. على أي حال، كان هذا ما حدث، وكان مؤلمًا جدًّا للأولاد الذين يعتزون بأنفسهم.

كان سيريل على وشك أن ينزع معطفه لمساعدة أخيه كما ينبغي، عندما أحاطت جين ذراعَيها حول ساقَيه وبدأت في البكاء وهي ترجوه ألا يذهب لكيلا يُضرب هو أيضًا. كانت كلمة «أيضًا» جميلة الوقع بالنسبة إلى روبرت، ولك أن تتخيَّل، ولكنها لا تُقارَن بما شعر به عندما اندفعت أنثيا لتقف حائلًا بينه وبين صبي الخبَّاز، وأمسكت ذلك المقاتل الغاشم والمجرد من الرحمة من منطقة الخصر، مناشدةً إياه أن يتوقف عن العراك.

قالت وعيناها تفيضان بالدموع: «أوه، توقف عن إيذاء أخي! فهو لم يكن يقصد ذلك، إنها مجرد لعبة. وأنا متأكدة من أنه آسفٌ جدًّا.»

تستطيعون أن تدركوا كيف كان هذا ظالمًا لروبرت؛ لأنه لو كان لدى صبي الخبَّاز أيٌّ من غرائز الحق والشهامة، وأذعن لمناشدة أنثيا وقبِل اعتذارها وتوسلاتها المهينة، لما استطاع روبرت — أخلاقيًّا — من فعل أي شيء له في وقتٍ لاحق، ولكن مخاوف روبرت — إن كانت لديه أي مخاوف — قد تبدَّدت في الحال، فقد كانت الشهامة كلمة غريبة على صبي الخبَّاز، فلقد دفع أنثيا بعيدًا بعنف شديد، وطارد روبرت بالركلات والشتائم الشنيعة على الطريق المؤدي إلى الحفرة الرملية، وهناك أسقطه بركلةٍ أخيرة على كومة من الرمال.

قال: «لقد لقنتك درسًا، أيُّها الحقير الصغير!» وتركه لالتقاط الأرغفة واستئناف عمله. لا يستطيع سيريل، الذي أعاقته جين، أن يفعل شيئًا دون إلحاق الأذى بها؛ لأنها تشبثت بساقيه بقوة يائسة. وغادَر صبي الخبَّاز وقد احمرَّ وجهه وتصبَّب عرقًا. ولم يكتفِ بما فعل، بل استمر في إساءته إليهم، داعيًا إياهم شِرْذِمَة من البُلَهاء الحمقى، واختفى عند منعطف الطريق، فأرخت جين قبضتها، واستدار سيريل بكرامةٍ صامتة ومضى خلف روبرت، وتبعتْه الفتاتان، تبكيان دون توقف.

كانوا يشعرون بالحزن الشديد وألقَوْا بأجسامهم على الرمال بجانب روبرت الذي كان يبكي بشدةٍ وهو يشعر بالغضب الشديد. أعلم أن الأطفال الأبطال حقًّا عادة ما لا

يبكون بعد الاقتتال، ولكنهم بعد ذلك دائمًا ما يفوزون، وهو ما لم يكن عليه الحال مع روبرت.

كان سيريل غاضبًا من جين؛ وكان روبرت حانقًا على أنثيا؛ وكانت الفتاتان بائستَين، ولم يكن أحد من الأربعة راضيًا عن صبي الخبَّاز، وكان هناك، كما يقول الكُتَّاب الفرنسيون: «صمتٌ مشحونٌ بالانفعالات.»

ثم حفر روبرت بقدمَيه ويدَيه في الرمال وهو يستشيط غضبًا قائلًا: «كان على الصبي أن ينتظرني حتى أَكبَرَ؛ ذاك الحيوان الجبان، اللعنة عليه! إنني أكرهه! لكنني سأنتقم منه، لقد غلبني فقط لأنه يكبرني جسمًا.»

قالت جين بلامبالاة: «أنت الذي بدأت هذا الشجار.»

«أعلم أنني فعلت، أيتها السخيفة — لكننا كما تعلمين كنا نلعب فحسب، وهو من ركلني؛ انظري هنا ...»

أنزل روبرت أحد جوربيه وأظهر كدمة أرجوانية اللون بها بقعة حمراء، وقال: «كم كنت أتمنى أن أكون أكبر منه.»

حفر بأصابعه في الرمال، ثم انتصب واقفًا؛ لأن يده قد لمست شيئًا ذا فراء. بالطبع كان ذلك عفريت الرمال. علق سيريل قائلًا: «إنه يتطلع إلى جعلهم يبدون حمقى كالعادة.» بطبيعة الحال، تحققت أمنية روبرت على الفور، فأصبح أكبر من صبي الخبَّاز، أوه، بل أكبر بكثير، لقد كان أكبر من الشرطي الكبير الذي اعتاد أن يكون عند التقاطع أمام منزل عمدة لندن منذ سنوات؛ ذاك الشرطي الطيب القلب الذي كان يُساعد السيدات العجائز على عبور الطريق؛ كان أكبر رجل رأيته على الإطلاق، وأكثرهم طيبة كذلك. لم يكن لدى أحدهم مسطرة في جيبه؛ لذا لم يكن ممكنًا قياس طول روبرت، لكنه كان أطول من والد أحدكم إذا وقف على رأس أمه، وهو شيء لا أعتقد أنه سيفعله أبدًا لأنه ليس قاسيًا لهذه الدرجة. لا بد أن طول روبرت كان يتراوح بين عشر أو إحدى عشرة قدمًا، وعرضه كما يجب أن يكون لفتًى في مثل هذا الطول. لحسن الحظ كبرت بدلة النورفولك الخاصة به أيضًا، وهو يظهر مرتديًا لها الآن، وقد أنزل أحد جوربَيه الكبيرَيْن لإظهار الكدمة العملاقة في ساقه الضخمة. الدموع الكبيرة التي انهمرت منه لغضبه الشديد لا تزال على وجهه العملاق المتورد. ولقد بدا مندهشًا للغاية، وكان كبيرًا جدًّا لارتدائه ياقة إيتون، حتى إن الآخرين لم يستطيعوا أن يكتموا الضحك.

قال سيريل: «لقد خدعَنا عفريتُ الرمال مرة أخرى.»

قال روبرت: «لم يخدعنا، بل خدعني.» ثم أضاف بطيشٍ: «لو كان لديك أي أخلاقٍ كريمة لكنت جعلته يضخمك لتصبح بحجمي هذا، فليس لديك فكرة عن سخافة هذا الشعور.»

افتتح سيريل كلامه قائلًا: «وأنا لا أريد ذلك؛ يمكنني أن أرى جيدًا كيف يبدو الوضع سخيفًا.» لكن أنثيا قالت:

«أوه، توقفا! لا أعرف ما الذي أصابكما اليوم يا أولاد. استمع لما أقول يا سنجاب. دعنا نلعب بصورةٍ عادلة. كم هو كريه أن يصبح روبرت المسكين بهذه الضخامة، وأن يكون وحده كذلك. هيا نتمنى على عفريت الرمال أمنيةً أخرى لعله يوافق. في الواقع، أعتقد أنه ينبغي علينا أن نصير بنفس حجمه.»

وافق الآخرون، ولكن ليس بحماس، ولكنهم عندما عثروا على عفريت الرمال، لم يوافق.

ردَّ عليهم ردًّا قاطعًا وفرك وجهه بقدميه قائلًا: «لا، لن أفعل ذلك، إنه فتًى عنيف وقح، وسيصلح من شأنه قليلًا أن يصبح بهذا الحجم. لماذا حفر بحثًا عني بيدَيه الرطبتَين؟ لقد أوشك أن يمسني ويبللني! إنه متوحش للغاية. إن صبيًّا من العصر الحجري كان سيصبح أكثر منه تعقلًا.»

كانت يدا روبرت مبللتَيْن بالفعل بالدموع.

«ابتعدوا عني واتركوني في سلام، هيا اذهبوا. لا أستطيع أن أعرف السبب الذي يجعلكم تعجزون عن تمني أمنية معقولة؛ شيء تأكلونه أو تشربونه، أو أن تُمنَحوا أخلاقًا حميدة، أو حالة مزاجية طيبة. اذهبوا الآن من هنا، هيا!»

زمجر عفريت الرمال وهو يهز شواربه، ثم أعطاهم ظهره البني الكئيب، فشعر أكثرهم تفاؤلًا أنه لا طائل من محاولة التفاوض معه، فتحولوا مرة أخرى إلى روبرت الضخم.

قالوا جميعًا: «ماذا عسانا أن نفعل؟»

قال روبرت متكدرًا: «أولًا، سأتفاهم مع صبي الخبَّاز، سألحق به في نهاية الطريق.»

قال سيريل: «لا تضرب غلامًا أصغر منك، أيُّها الرجل الكبير.»

قال روبرت باحتقار: «هل أبدو كمن سيضربه؟ ليس هناك ما يدعوني لقتله. لكنني سأُعطيه شيئًا للذكرى. انتظر حتى أرفع جوربي.» رفع روبرت جوربه الذي كان كبيرًا بحجم غطاء وسادة صغيرة وأخذ يمشي. كان اتساع خطواته يتراوح ما بين ست أو سبع

أقدام؛ لذا كان من السهل عليه أن يكون عند سفح التل، في انتظار صبي الخبَّاز الذي نزل وهو يؤرجح السلة الفارغة في طريقه لمقابلة عربة سيده، التي كانت توزِّع الخبز على البيوت الريفية الواقعة على طول الطريق.

ربضَّ روبرت على مقربة من الصبي وراء كومة قش في فناء مزرعة، وعندما سمع الصبي يقترب مصفِّرًا، قفز نحوه وأمسك بخناقه.

قال وقد أصبح صوته يعدل نحو أربعة أضعاف علوه المعتاد، تمامًا كما أصبح جسده يعدل أربعة أضعاف حجمه الأصلي: «والآن سأعلِّمك كيف تركل الأولاد الذين هم أصغر منك.»

رفع صبيَّ الخبَّاز ووضعه على أعلى كومة القش، التي كان ارتفاعها يبلغ نحو ست عشرة قدمًا من الأرض، ثم جلس على سطح حظيرة الأبقار وأخبر صبي الخبَّاز برأيه فيه بالضبط. لا أعتقد أن الصبي سمع كل شيء؛ فقد كان في حالة رعب شديد، عندما انتهى روبرت من قول كل شيء خطر بباله، حتى إنه كرَّر بعض الأشياء مرتين، هزَّ الصبي قائلًا:

«والآن ابحث عن أفضل طريقة يمكنك بها النزول من أعلى الكومة.» ثم تركه وغادر.

لا أعرف كيف تمكَّن صبي الخبَّاز من النزول، لكنني أعلم أن العربة قد فاتتْه، ومن المؤكَّد أنه قد تعرَّض للعقاب في المخبز، وإني لأشعر بالأسف لما حدث له — ولكن رغم كل شيء — كان من الصواب أن يتعلَّم أن الصبية الإنجليزيين يجب ألَّا يستخدموا أقدامهم عندما يتعاركون، لكن بمقدورهم استخدام قبضاتهم بدلًا من ذلك، وبالطبع تعرَّض لعقوبة أشد عندما حاول إخبار سيده عن الصبي الذي ضربه والعملاق الذي كان في حجم كنيسة؛ لأنه لم يكن لأحد أن يصدق مثل هذه القصة، وفي اليوم التالي، صدقوها ولكن بعد فوات الأوان، عندما لم يكن لذلك كبير فائدة لصبي الخبَّاز.

عندما عاد روبرت إلى إخوته، وجدهم في الحديقة، فقد طلبت أنثيا من مارثا أن تسمح لهم بتناول الغداء هناك لأن غرفة الطعام كانت صغيرة إلى حدٍّ ما، وكان من الصعب جدًّا أن يتواجد بها أخٌ بحجم روبرت، أما الحَمَل، الذي كان ينام بهدوء في الخارج طوال فترة الصباح العاصف، فقد ظل يعطس، فقالت مارثا إنه مصاب بنزلة برد وسيكون بحال أفضل في الداخل.

قال سيريل: «في واقع الأمر، هذا أفضل؛ إذ لا أعتقد أنه كان سيكف عن الصراخ إن رآك بهذا الحجم المرعب!»

كان حجم روبرت في الواقع ما يمكن أن يصفه تاجر الملابس بأنه أكبر من «المقاس المألوف» لدى الأولاد، لقد وجد نفسه قادرًا بسهولةٍ أن يخطوَ فوق البوابة الحديدية التي في الحديقة الأمامية.

أخرجت مارثا الغداء الذي كان يتكوَّن من لحم البتلو البارد والبطاطا المهروسة، مع بودنج دقيق الساغو وبرقوق مطهو.

لم تلحظ بالطبع أن روبرت لم يكن بالحجم المعتاد؛ لذا فقد أعطته حصته المعتادة من اللحوم والبطاطس وليس أكثر من ذلك. لا تتصوَّروا مدى صغر حجم حصتكم المعتادة من الغداء عندما يتضاعف حجمكم عدة مرات، تذمَّر روبرت، وطلب المزيد من الخبز، لكن مارثا لن تستمر في تقديم المزيد من الخبز إلى الأبد. فقد كانت في عجلة من أمرها؛ لأن الحارس كان ينوي المرور بها في طريقه إلى معرض بنينهارست، وكانت ترغب أن تتزيَّن قبل مجيئه.

قال روبرت: «أتمنى أن نذهب إلى المعرض.»

قال سيريل: «لا يمكنك الذهاب إلى أي مكان بهذا الحجم.»

قال روبرت: «ولمَ لا؟ لديهم عمالقة في المعارض، أكبر مني.»

قال سيريل: «ليس أكبر منك كثيرًا كما تظن.» عندئذٍ صرخت جين: «أوه!» كانت الصرخة مفاجئة وصاخبة لدرجة أنهم ضربوها جميعًا على ظهرها متسائلين عما إذا كانت قد ابتلعت نواة برقوق.

قالت وهي تلتقط أنفاسها من أثَر الضرب على ظهرها: «لا، ليست نواة برقوق، بل إنها فكرة، لنأخذ روبرت إلى المعرض، ونجعلهم يعطوننا مالًا مقابل أن نريهم إياه، ثم بذلك نكون قد انتفعنا بشيء من ذلك العفريت العجوز.»

قال روبرت ساخطًا: «صحيح، فلتأخذوني! بل من المحتمَل أن آخذكم أنا إلى هناك!»

وهذا ما آل إليه الأمر. فقد جذبت الفكرة الجميع على نحو لا يقاوم باستثناء روبرت، حتى إنه لم يرضَ إلا بعد اقتراح أنثيا بأنه سيحصل على ضعف نصيب أي أحد منهم من أي أموال قد يجنونها. كان هناك حنطور قديم في مرآبٍ بالمنزل، وهذا الحنطور كان يُطلق عليه عربة المربية. بدا أنه النوع المنشود للوصول إلى المعرض بأسرع وقت ممكن؛ لذا وافق روبرت الذي أصبح بإمكانه أن يقطع خطوات هائلة وبسرعة كبيرة بالفعل على نقل الآخرين في هذه العربة. لقد كان الأمر سهلًا بالنسبة إليه الآن مثلما كان يدفع عربة الحَمَل في الصباح. وقد منع البرد الحَمَل مرافقة المجموعة.

ثمة إحساس غريب ما بعثه السفر بعربة حنطور يجرُّها عملاق، ولقد استمتع الجميع بالرحلة باستثناء روبرت وعدد قليل من الناس الذين مروا بهم في طريقهم، والذين في الأغلب جنحوا إلى التوقف على جانب الطريق، كما قالت أنثيا، واختبأ روبرت عندما وصلوا إلى مشارف بنينهارست في حظيرة، بينما ذهب الآخرون إلى المعرض.

كان هناك بعض الأراجيح، وأصوات هتافات وأبواق تدوِّي من لعبة دوامة الخيل، ومنصة للرماية ولعبة ضرب جوز الهند بالكرات. صعد سيريل وهو يقاوم اندفاعه للفوز بجوز الهند أو على الأقل ليحظى بالمغامرة إلى المرأة التي كانت تحمل بنادقَ صغيرة قُبالة مجموعة من الزجاجات المصفوفة أمام قماشٍ غليظ.

قالت المرأة: «أيُّها الفتى المهذب، محاولة التصويب الواحدة ببنس واحد!»

قال سيريل: «لا، شكرًا لكِ، نحن هنا من أجل العمل، وليس من أجل الترفيه، من هو مدير المكان؟»

«عفوًا، عمن تسأل؟»

«المدير، الرئيس، صاحب هذا المعرض.»

قالت وهي تشير إلى رجل بدين يرتدي سترةً متسخة من الكتان كان ينام في الشمس: «إنه هناك، لكنني لا أنصحك بإيقاظه فجأة، فسيتعكر مزاجه، وخاصة في هذه الأيام الحارة، من الأفضل الانتظار حتى يصحو.»

قال سيريل: «إن الأمر مهم، وسيكون مربحًا جدًّا له، وأعتقد أنه سيأسف إذا مضينا دون أن نعرضه عليه.»

قالت المرأة: «حسنًا، ما دام الأمر يتعلق بمكسبٍ مادي، فما هو ذاك الشيء، مع العلم بأنه لا مجال للمزاح؟»

«برفقتنا عملاق.»

«أتمزح؟»

قالت أنثيا: «تعالَي وانظري.»

نظرت المرأة إليهم بارتياب، ثم دعت فتاة صغيرة رثَّة الثياب ذات جواربَ مخططة وتنورةٍ تحتية بيضاء متسخة تظهر من تحت ثوبها البني، وجعلتها مسئولة عن «منصة التصويب» والتفتت إلى أنثيا قائلة: «حسنًا أسرعي، ولكن إذا كنتِ تمزحين، فمن الأفضل أن تقولي ذلك الآن، أنا متسامحة إلى حد بعيد فيما يخصني، لكن زوجي بيل يفقد أعصابه بسهولة و…»

قادتها أنثيا إلى الحظيرة، وقالت: «إنه حقًّا عملاق، إنه ولد صغير عملاق — يرتدي زي نورفولك مثل أخي الذي هناك، ولم نُدخِله المعرض لأن الناس سيحدِّقون به، ويبدو أنهم سيندفعون إليه عندما يرونه، وكنا نظن أنكم ربما ترغبون في عرضه على الناس مقابل الحصول على نقود، ولن تفعلوا ذلك حتى تدفعوا لنا. وكل ما سيتعين عليكم أن تدفعوا لنا مبلغًا كبيرًا؛ لأننا وعدناه أن يحصل على ضعف نصيب كل منَّا.»

غمغمت المرأة بكلام غير واضح، لم يتمكن الأطفال من سماع شيء منه سوى بعض الكلمات، «ليساعدني!» و«مخبول» و«كعكة محلَّاة» وهي كلمات لم يستطيعوا أن يفهموا منها أي فكرةٍ محددة. كانت قد أخذت يد أنثيا، وأمسكتها بشدة؛ ولم تستطع أنثيا أن تمنع نفسها عن التساؤل عما إذا كان روبرت قد غادر مكانه أو عاد إلى حجمه الطبيعي خلال الفترة التي تركوه خلالها، لكنها تذكرت أن الأمنيات التي حققها عفريت الرمال لهم استمرت فعلًا إلى وقت غروب الشمس، بصرف النظر عن مدى انزعاجهم منها؛ ولم تعتقد بطريقةٍ ما أو بأخرى أن روبرت سيرغب في الخروج بمفرده وهو بهذا الحجم.

عندما وصلوا إلى الحظيرة، نادى سيريل: «روبرت!» كان هناك جلبة بين القش المهلهل، وبدأ روبرت في الخروج، ظهرت يده وذراعه أولًا؛ ثم قدمه وساقه، وعندما رأت المرأة اليد قالت: «يا إلهي!» لكنها عندما رأت القدم قالت: «يا للهول!» وعندما أخذ يظهر شيئًا فشيئًا جسدُ روبرت الضخم لتكتمل الصورة في النهاية، أخذت نفسًا عميقًا وقالت أشياء كثيرة تصبح بجانبها الكلمات التي قالتها في البداية مثل «مخبول» و«كعكة محلَّاة» عاديةً للغاية. وأخيرًا، تفوَّهت بلغة مفهومة.

قالت بحماس: «ماذا تريدون مقابله؟ أي شيء سيبدو معقولًا، سنحتاج إلى صنع عربة خاصة له. على أقل تقدير، أعرف مكانًا تُوجد فيه عربةٌ مستعملة كانت مخصَّصة لفيل رضيع قد مات، ماذا تريدون مقابله؟ إنه لطيف، أليس كذلك؟ معظم العمالقة يكونون كذلك — لكنني لا أراهم أبدًا — لا، أبدًا! ماذا تريدون ثمنًا له؟ الآن وفورًا، وسوف نعامله كملك، ونمنحه وجبات من الدرجة الأولى وفِراشًا مناسبًا، لا بد أنه غريب الأطوار ليرضى أن يقود بكم الحنطور، ماذا تريدون ثمنًا له؟»

قال روبرت بشدة: «لن يأخذوا أي شيء، وأنا لست أكثر لطفًا مما أنتِ عليه؛ ليس إلى هذا الحد، ولا عجبَ في ذلك، بل سآتي إليكم وأقدم عرضًا اليوم إذا كنتم ستعطونني ...» — وتردد النطق بالسعر الهائل الذي كان على وشك أن يطرحه — «إذا كنتم ستعطونني خمسة عشر شلنًا.»

قالت المرأة في رد غير متوقع: «موافقون.» لدرجة أن روبرت شعر أنه لم ينصف نفسه، وتمنى لو أنه طلب ثلاثين شلنًا. وواصلت المرأة كلامها قائلة: «تعال الآن — لتقابل زوجي بيل — وسنعمل على تحديد سعر لهذا الموسم، وأعتقد أنك قد تحصل على ما يصل إلى جنيه في الأسبوع بانتظام. تعال واجعل نفسك صغيرًا قدر الإمكان، حبًّا بالله!»

لم يمكنه أن يصبح صغيرًا بما فيه الكفاية، وسرعان ما تجمع حوله حشد، بحيث كان روبرت على رأس موكب متحمس عندما وطئت قدماه المرج الممهَّد المقام عليه المعرض، وخطا على الأعشاب المتربة الصفراء القصيرة إلى باب أكبر خيمة. تسلَّل داخلها، بينما ذهبَت المرأة إلى بيل. لقد كان الرجل الضخم نائمًا، ولم يبدُ مسرورًا على الإطلاق من إيقاظه، رآه سيريل — وهو يراقب من خلال الشق في الخيمة — وهو يتجهم ويهز قبضته الثقيلة ورأسه النعسان، ثم استمرت المرأة في التحدُّث إليه بسرعة كبيرة، سمع سيريل كلامًا من قبيل «يا إلهي!» و«أكبر ربحٍ لك على الإطلاق؛ لذا ساعدني!» وبدأ يشعر بشعور روبرت بأن خمسة عشر شلنًا كانت بالفعل أقل مما ينبغي، اتجه بيل بخطواته المترهلة باتجاه الخيمة ودخلها، وعندما رأى الأبعاد الهائلة لروبرت قال شيئًا من قبيل «يا للعجب!» تلك كانت الكلمات الوحيدة التي يمكن أن يتذكرها الأطفال بعد ذلك، لكنه عرض خمسة عشر شلنًا، معظمها من فئة الستة بنسات والعملات النحاسية، وسلَّمها إلى روبرت.

وقال بحماس شديد: «سنصل إلى اتفاق فيما بيننا حول الأرباح بعد نهاية العرض الليلة، يا إلهي! ستكون سعيدًا معنا حتى إنك لن ترغب في أن تتركنا، هل يمكنك أن تغنِّيَ الآن أو أن تؤديَ بعض الرقصات الشعبية؟»

قال روبرت: «ليس اليوم.» رافضًا فكرة محاولة غناء أغنية «كما كان الحال في شهر مايو»، وهي الأغنية المفضَّلة لأمه، والأغنية الوحيدة التي يمكن أن يفكر بها في الوقت الحالي.

تابع الرجل قائلًا: «فليأتِ ليفي ليلتقط له صورًا، وأخلوا الخيمة، وضعوا ستارة أو شيئًا ما، يا إلهي! للأسف ليس لدينا لباس رقص في مقاسه! ولكن سيكون لدينا قبل نهاية الأسبوع، أيُّها الشاب، لقد صنعت ثروتك، من الجيد أنك أتيت إليَّ، وليس إلى شخصٍ آخر، يمكنني أن أؤكِّد لك ذلك، لقد عرفت رجالًا يضربون عمالقتهم، ويجوعونهم أيضًا؛ لذلك سأخبرك بصراحة، أنت محظوظ هذا اليوم كما لم تكن قطُّ من قبل، لأنني حَمَلٌ وديع، ولا أخدعك.»

قال روبرت وهو ينظر إلى «الحَمَل الوديع»: «أنا لا أخاف من أن يضربني أحد.» كان روبرت جاثمًا على ركبتيه؛ لأن الخيمة لم تكن كبيرة بما يكفي للوقوف منتصبًا، لكن حتى في هذا الوضع كان لا يزال بإمكانه أن ينظر إلى معظم الناس من أعلى، وأردف قائلًا: «ولكنني جائعٌ إلى أبعد حدٍّ، أتمنى أن تأتيَني بشيءٍ لآكله.»

قال بيل بصوتٍ أجش: «حسنًا يا بيكا، أحضري له بعض الطعام وليكن من أفضل ما لديك، من فضلك!» ثم همس لها بشيءٍ آخر، لم يسمع منه الأطفال سوى «أول ما تفعلينه في الغد أن تكتبي اتفاقًا رسميًّا معه.»

عندئذٍ ذهبت المرأة للإتيان بالطعام الذي اتضح بعدما أحضرته أنه لم يكن إلا الخبز والجبن فقط، لكنه كان لذيذًا لروبرت الضخم الجائع؛ وذهب الرجل لنشر الحراس حول الخيمة، للتنبيه إذا ما حاول روبرت الهرب بالخمسة عشر شلنًا.

قالت أنثيا بسخط عندما اتضح لها ما يعنيه وجود الحراس: «كما لو كنا لسنا صادقين.»

ثم بدأت فترة ما بعد الظهر والتي كانت غريبة جدًّا ورائعة.

كان بيل رجلًا محترفًا في عمله؛ ففي فترةٍ وجيزة، كانت المناظر الفوتوغرافية، والنظارات التي تنظر إليها من خلالها، بحيث تبدو حقيقية إلى حد ما، والأضواء التي تراها بتسليطها عليها، كانت كلها جاهزة، كان هناك ستارة وكانت عبارة عن سجادةٍ قديمة باللونين الأحمر والأسود عُلقت بالخيمة من الداخل، حيث احتجب روبرت خلفها، وكان بيل يقف على منصة الخطابة خارج الخيمة يلقي كلمة. لقد كانت كلمة جيدة. حيث بدأ بالقول إن العملاق الذي من دواعي سروره أنه سيعرضه على الجمهور في ذلك اليوم هو الابن الأكبر لإمبراطور سان فرانسيسكو، الذي اضطرتْه علاقة حب مؤسفة مع دوقة جزر فيجي لمغادرة بلده واللجوء إلى إنجلترا — أرض الحرية — حيث إن الحرية فيها من حق كل إنسان، مهما كان حجمه. وأنهى كلمته بالإعلان عن أن العشرين الأوائل الذين سيأتون إلى باب الخيمة سوف يرون العملاق مقابل ثلاثة بنسات للفرد الواحد. وقال بيل: «بعد ذلك، سيرتفع السعر، وأنا لا ألتزم بتحديد ما سيئول إليه؛ لذا فهذه فرصتكم.»

كان أولَ مَن تقدم شابٌّ برفقة محبوبته في موعدٍ جمعهما بعد الظُّهر. في تلك المناسبة، كان يتعامل بفخامة وسخاء كما الأمراء، فلم يكن لديه أي اعتراض فيما يتعلق بالنقود. وكان قراره عندما رغبت محبوبته في أن ترى العملاق؛ حسنًا، لا بد أن ترى العملاق، على الرغم من أن رؤية العملاق يكلف كلًّا منهما ثلاثة بنسات، في حين أنَّ كل وسيلةٍ من وسائل الترفيه الأخرى تكلِّف بنسًا واحدًا فقط.

رُفعَ طرفُ الخيمة، ودخل الثنائي، في اللحظة التالية، انطلقَت صرخة مدويَّة من الفتاة من شدةِ الإثارة وسط كل الحاضرين. عندئذٍ صفع بيل ساقه، وقال هامسًا لبيكا: «لقد تحقَّق المراد!» لقد كان بالفعل إعلانًا عظيمًا عن روعة روبرت. وعندما خرجت الفتاة كانت شاحبةً وترتجف، وكان الحشدُ قد تحلَّق حول الخيمة.

سألها أحد الحاضرين: «كيف كان شكله؟»

قالت: «يا إلهي! لقد كان منظرًا فظيعًا! لن يمكنك تصديقه، إنه كبير كالحظيرة، وضارٍ جدًّا لدرجة أن الدم جمد في عروقي، لم أكن لأفوت رؤيته بأي حال.»

كان سبب الضراوة فقط هو محاولة روبرت عدم الضحك، لكن الرغبة في الضحك سرعان ما فارقَتْه، وقبل غروب الشمس كان أقرب إلى البكاء منه إلى الضحك، وأكثر ميلًا للنوم من البكاء والضحك على السواء؛ لأن الناس استمروا في القدوم فرادى ومثنى وثلاث طوال فترة بعد الظهر، وكان على روبرت أن يصافحَ أولئك الذين يرغبون في ذلك، وأن يسمح لهم بلكمه وجذبه والتربيت عليه ووخزه، حتى يتمكن الناس من التأكد من أنه كان بالفعل حقيقيًّا.

جلس الأطفال الآخرون على مقاعد وشاهدوا وانتظروا، وكانوا يشعرون بالملل الشديد بالفعل. بدا لهم أن هذه كانت أصعب طريقة يمكن اختراعها لكسب المال، المال الذي هو خمسة عشر شلنًا فقط! وهو ما تحصَّل بيل على أربعة أضعافه بالفعل؛ لأن أخبار العملاق انتشرت، وجاء التجَّار في عرباتهم، والسادة في حناطيرهم، من كل حدبٍ وصوب، وقدم رجل نبيل يرتدي نظارة، ويعلق وردة صفراء كبيرة جدًّا في عروة سترته، وعرض على روبرت — هامسًا بطريقةٍ فيها نوعٌ من الإغراء — عشرة جنيهات في الأسبوع ليظهر في كريستال بالاس، اضطُر روبرت أن يرفض.

قال بأسف: «لا أستطيع، ولا فائدة من الوعد بما لا يمكنك فعله.»

«آه، يا صديقي المسكين، أنت مقيَّدٌ لسنوات على ما أظن، حسنًا، ها هي بطاقتي، وعندما تنقضي مدة عملك هنا، فلتأتني.»

قال روبرت بصدق: «سأفعل، إذا كنت بالحجم نفسه حينها.»

قال الرجل: «إذا كبر حجمك قليلًا، فستكون أفضل بكثير.» وعندما رحل الرجل، أومأ روبرت لسيريل وقال:

«أخبرهم أنه ينبغي عليَّ أن أستريح، وأريد الشاي الخاص بي.»

قُدِّم الشاي، وعُلِّقت ورقة بسرعة على الخيمة، كُتِبَ فيها:

مُغلقٌ لنصف ساعة ريثما يشرب العملاقُ الشاي.

عندئذٍ انعقد اجتماع الإخوة على عجل.

قال روبرت: «كيف يمكنني الفرار؟ لقد كنت أفكر في ذلك طيلة فترة ما بعد الظهر.»

«ولمَ؟ ما عليك إلا أن تخرج عندما تغرب الشمس وأنت بحجمك الطبيعي، عندئذٍ لا يمكنهم فعل أي شيء لنا.»

فتح روبرت عينيه وقال: «لماذا؟ سيرغبون في قتلي إذا رأَوْني في حجمي الطبيعي، لا، علينا أن نفكِّر بطريقةٍ أخرى. يجب أن نكون بمعزل عن الآخرين عند غروب الشمس.»

قال سيريل باهتمام: «أعلم ذلك.» وذهب إلى الباب، وكان بيل يدخِّن في الخارج بغليونٍ فخاري ويتحدَّث بصوت منخفض إلى «بيكا»، سمعه سيريل وهو يقول لها: «إنه أمر جيدٌ للغاية، إن هذا بمثابة كنز عثرنا عليه.»

قال سيريل: «انظر، يمكنك السماح للناس بالدخول مرةً أخرى بعد دقيقةٍ واحدة، لقد انتهى تقريبًا من تناول الشاي، ولكن يجب أن يُترك بمفرده عندما تغرب الشمس، لأنه يصبحُ غريب الأطوار في ذلك الوقت من اليوم، وإذا شعر بالقلقِ، فلن أكون مسئولًا عن العواقب.»

سأله بيل: «لماذا؟ ما الذي يحل به؟»

قال سيريل بصَرَاحَة: «لا أدري، يطرأ عليه نوع من التغيير يجعله شخصًا آخر تمامًا، بحيث يصعب عليك التعرف عليه، ويصبح غريبًا جدًّا في الحقيقة، وسيلحق الضرر بأحدهم إذا لم يُترك وحده عند غروب الشمس.» وكان سيريل صادقًا في هذا.

«سيتعافى من ذلك في المساء، أليس كذلك؟»

«بالطبع بعد نصف ساعة من غروب الشمس، سيعود هو نفسه تمامًا كما كان.»

قالت المرأة: «من الأفضل مداعبته.»

وهكذا، حدث ما دبَّره سيريل، فقبل نحو نصف ساعة من غروب الشمس، أُغلقت الخيمة مرة أخرى «ريثما يتناول العملاقُ العشاء.»

كان الحشد مبتهجًا جدًّا بوجبات العملاق وتقارب أوقاتها من بعضها البعض.

قال بيل: «حسنًا، يمكنه تناول وجبته؛ فأنتم ترون أنه يجب أن يأكل بشراهة، كونه بهذا الحجم.»

وفي الخيمة، رتَّب الأطفال الأربعة خطة انسحاب، قال سيريل للفتاتين: «اذهبا الآن، واقصدا المنزل بأسرع ما يمكن، أجل، ولا تكترثا بالعربة، سنأخذها في الغد. أنا وروبرت نرتدي الملابس نفسها، سنتدبر الأمر بطريقة ما، مثلما فعل سيدني كرتون، لكن يجب أن تخرجا أنتما أولًا، وإلا فلن تسير الأمور كما ينبغي. يمكننا الركض، لكن لا يمكنكما ذلك، مهما كان ما تعتقدانه. ليس هناك فائدة يا جين من أن يخرجَ روبرت ويطرح الناس أرضًا، فلو فعل ذلك لتعقبته الشرطة إلى أن يتحوَّل إلى حجمه الطبيعي، ثم يعتقلونه في لمح البصر، اذهبا، يجب عليكما ذلك! إذا لم تفعلا ذلك، فلن أتحدث معكما مرة أخرى. أنتما من دفعنا إلى هذه الفوضى في الحقيقة. عليكما أن تتسلَّلا من بين الناس مثلما فعلتما هذا الصباح. اذهبا الآن، إنني آمركما بذلك!»

وافقت جين وأنثيا على الذهاب.

قالتا لبيل: «نحن عائدتان إلى المنزل، وسنترك العملاق معك، كن لطيفًا معه.» وكان هذا — كما قالت أنثيا لاحقًا — خادعًا جدًّا، لكن ما الذي كان عليهما فعله؟

وبعدما انصرفتا، ذهب سيريل إلى بيل.

وقال: «انظر هنا، يريد بعض أكواز الذرة، هناك بعضٌ منها في الحقل بعد الذي يلينا، أنا سأذهب بسرعة وأحصل عليها، أوه، ويسألك أيضًا ألا يمكنك رفع الخيمة من الخلف قليلًا؟ لأنه يقول إنه يحتاج لاستنشاق الهواء. ولا يختلس أحدٌ النظر إليه. سأغطيه، لينال غفوة ثم أذهب لجلب الذرة ليأكلها، فهو يصبح شخصًا صعبَ المراس عندما لا يأكلها.»

كان العملاق مسترخيًا على كومةٍ من الأكياس وقماش مشمع قديم. كانت الستارة مرفوعةً، وتُرِكَ الأخوان وحدهما، وحبكا خطتهما في همس، وفي الخارج، كانت لعبة الخيول الدوَّارة بأنغامها الكوميدية تدوِّي، مُطلِقة صياحًا بين الحين والآخر لجذب انتباه الجمهور.

وبعد نصف دقيقة من غروب الشمس، خرج صبيٌّ يرتدي بدلة نورفولك مارًّا ببيل.

قال: «أنا خارجٌ لجلب الذرة.» وسرعان ما غاب وسط الزحام.

في اللحظة نفسها، خرج صبيٌّ من الجزء الخلفي من الخيمة مارًّا ببيكا، والتي كانت واقفة هناك للحراسة.

قال ذلك الصبي كما قال الأول: «أنا خارج لأجلب الذرة.» وقد ابتعد أيضًا بهدوء وغاب وسط الزحام، كان الصبي الذي خرج من الباب الأمامي هو سيريل، أما الذي خرج من الباب الخلفي فقد كان روبرت الذي كان قد عاد إلى حجمه الطبيعي بعدما

غربت الشمس. سار كلٌّ منهما بسرعةٍ عبر الحقل، وعلى طول الطريق، حيث لحق روبرت بسيريل. عندئذٍ بدءا يركضان. وعند وصولهما إلى المنزل كانا قد لحقا بالفتاتين؛ لأن الطريق كان طويلًا، ما اضطرهما إلى أن يركضا معظمه. لقد كان بالفعل طريقًا طويلًا للغاية، تأكَّدوا من ذلك عندما اضطروا للذهاب وسحب العربة إلى المنزل في صباح اليوم التالي، حينما لم يكن روبرت ضخمًا ليقودها بهم كما لو كانت عربة بريد، أو كما لو كانوا أطفالًا رضَّعًا ترعاهم خادمة عملاقة.

لا يمكنني أن أخبركم بما قاله بيل وبيكا عندما اكتشفا أن العملاق قد غادر، لسببٍ واحد، وهو أنني لا أعرف.

الفصل التاسع

البلوغ

كان سيريل قد أشار ذات مرة إلى أن الحياة العادية مليئةٌ بالمناسبات التي تكون فيها الأمنيةُ أكثرَ فائدة من أي وقتٍ آخر. وقد سيطرت هذه الفكرة على تفكيره عندما قُدِّر له أن يستيقظ مبكرًا في صباح اليوم الثاني بعد صباح اليوم الذي تمنَّى فيه روبرت أن يكون أكبر من صبي الخبَّاز، وتحقَّق له ذلك. أما اليوم الذي كان بين هذين اليومين فقد انشغلوا فيه بالكامل في الحصول على عربة الحصان التي تركوها خلفهم في بنينهارست.

ارتدى سيريل ملابسه في عجلةٍ. ولم يستحم؛ لأن الاستحمام في قدر كبير يُصدر صخبًا، ولم يكن لديه أي رغبةٍ في إيقاظ روبرت، فانطلق خلسةً بمفرده، كما فعلت أنثيا ذات يوم، وركض في الصباح الندي إلى الحفرة الرملية. وحفر بعنايةٍ فائقة ولطف حتى ظهر عفريت الرمال، وبدأ الحديث بسؤاله عما إذا كان لا يزال يشعر بأي آثارٍ سيئة من ملامسته لدموع روبرت أول من أمس. كان عفريت الرمال في حالةٍ مزاجية جيدة. فردَّ بأدب.

وقال: «والآن، ماذا يمكنني أن أفعل لك؟ أظنُّك أتيتَ إلى هنا مبكرًا لطلب شيءٍ ما لنفسك، شيء لا يعرفه إخوتك، أليس كذلك؟ فلتطلب الآن شيئًا فيه منفعتك! اطلب ميجاثيريم سمين واستمتع به.»

قال سيريل بحذر: «شكرًا لك، ليس اليوم، ما أردت حقًّا أن أقوله هو أنك تعرف كيف تتمنى دومًا الأشياء عندما تلعب أي لعبة، أليس كذلك؟»

قال عفريت الرمال بفتور: «نادرًا ما ألعب.»

قال سيريل دون صبر: «حسنًا، أنت تعرف ماذا أقصد، ما أريد أن أقوله هو: لمَ لا تجعل أمنياتنا تتحقَّق بمجرد التفكير فيها، وفي المكان الذي نكون فيه؟» ثم أضاف سيريل: «حتى لا نضطر إلى المجيء وإزعاجك مرة أخرى.»

قال عفريت الرمال وهو يمدِّد ذراعيه البنيين متثاءبًا: «سيؤدي بك هذا الأمر فقط إلى تمنيك شيئًا لا تريده حقًّا، مثلما فعلت في القلعة، يحدث دائمًا الشيء نفسه منذ أن توقف الناس عن تناول أشياء صحية حقًّا. على كل حال، لك ما تريد، وداعًا.»

قال سيريل بأدب: «وداعًا.»

قال عفريت الرمال فجأةً محدِّقًا بعينَيْه الأقرب إلى عيني الحلزون: «أتعرف ماذا؟ لقد سئمت منكم جميعًا، فليس عندكم من الفهم ما يزيد عما لدى المحار، انصرف!» وهكذا ذهب سيريل.

«يا له من وقت طويل ذلك الذي يبقى فيه الأطفال رُضَّعًا.» قال سيريل ذلك بعد أن أخرج الحَمَل ساعته من جيبه حينما لم يكن منتبهًا، مُصْدرًا أصواتًا أشبه ما تكون بنقنقات الدجاج وهديل الحمام من نشوة المشاغبة وهو يفتح الساعة ليستخدمها كمجرفة في الحديقة، ما جعل الساعة لا تعمل بعد ذلك حتى بعد غَمْرها في حوض غسل الأيدي، فقال سيريل عدة أشياء تحت تأثير اللحظة. ولكن بات الآن أكثر هدوءًا، وقد وافق على حَمْل الحَمَل جزءًا من الطريق إلى الغابة. أقنع سيريل الآخرين بالموافقة على خطته، وهي عدم تمني أي شيء آخر حتى يكون شيئًا يتمنَّونه بالفعل. في هذه الأثناء كان من الجيد الذهاب إلى الغابة بحثًا عن الجوز، وعلى العشب تحت شجرة الكستناء الحلوة كان الخمسة يجلسون، كان الحَمَل يشد العشب بيدَيْه السمينتين، وكان سيريل ينظر في حزن إلى ساعته التي أُتلفت.

قالت أنثيا: «إنه يكبر بالفعل، أليس كذلك أيُّها الغالي؟»

قال الحَمَل المبتهج: «أنا أكبر، أنا أكبر ولدٍ كبير، ولديَّ بنادقُ وفئران، و... و...» وكأنه قد أطلق العنان لخياله ومفرداته هنا، ولكن على أي حال، كان هذا أطول كلامٍ يصدر عن الحَمَل على الإطلاق، وقد سحر الجميع، حتى سيريل الذي أخذ يدحرج الحَمَل على العشب وسط صيحات السرور.

قالت أنثيا بينما كان الحَمَل ينظر حالمًا إلى زرقة السماء التي تظهر من بين أوراق الكستناء الطويلة المستقيمة: «كنت أعلم أنه سوف يكبَر في يوم من الأيام.» ولكن في تلك اللحظة قام الحَمَل — الذي كان يتصارع بمرح مع سيريل — بدفع قدمه الصغيرة على صدر أخيه، فسُمع صوت كسر! لقد كسر الحَمَل الوديع زجاج ثاني أفضل ساعة مفضَّلة لدى والده من نوع «ووتربيري»، والتي كان سيريل قد استعارها منه دون إذن.

قال سيريل بمرارة: «يكبَر في يوم من الأيام!» وألقى الحَمَل على العشب، ثم أردف قائلًا: «يمكنني القول إنه سيكبر عندما لا يريده أحدٌ أن يفعل، أتمنى من الله أن ...»

صرخت أنثيا هلعًا: «أوه، احذر!» ولكن كان قد فات الأوان، خرجت كلماتها وكلمات سيريل معًا وكأنها أغنية تُرافق موسيقاها؛ أنثيا بقولها: «أوه، احذر!» وسيريل بقوله: «يكبر الآن!»

كان عفريت الرمال المخلص قد أوفى بوعده، وهناك، أمام أعين أخوَيه وأختَيه الفزعين، كبر الحَمَل فجأةً وبقوة، كانت تلك اللحظة الأكثر فظاعة. لم يكن التغيير سريعًا بشدةٍ كما كانت العادة. بل تغيَّر وجه الطفل أولًا. لقد أصبح أنحف وأكبر، وارتسمَت الخطوط في الجبهة، وأصبحت العينان أكثر عمقًا وأغمق لونًا، والفم أطولَ وأنحف؛ الأمر الأكثر فظاعةً هو ظهور شارب غامق قليلًا على شفة من لا يزال — باستثناء الوجه — طفلًا يبلغ من العمر عامَيْن في سترة من الكتان وزوجين من جوارب بيضاء مُزيَّنة.

«أوه، أتمنى ألَّا يكبر! أوه، أتمنى ألَّا يكبر! يمكنكم أن تتمنوا مثل أمنيتي.» وبالفعل اجتهدوا في تمنيهم، لأن المنظر كان كافيًا لإثارة الفزع، لقد تمنَّوْا جميعًا بشدة — في الواقع — لدرجة أنهم شعروا بالدوار الشديد وكادوا يفقدون الوعي؛ لكن أمنياتهم ذهبت أدراج الرياح؛ لأنه عندما توقفت الغابة عن الدوران، كانت عيونهم مثبتة بانبهارٍ في الحال بمرأى شابٍّ جميل المظهر يرتدي ثيابًا من الصوف وقبعة من القش وله الشارب الأسود الخفيف نفسه الذي رأوه ينمو بالفعل على شفة الطفل. هذا، إذن، كان الحَمَل، لقد كَبر حَمَلُهم! لقد كانت لحظة مروعة. تحرَّك الحَمَل الضخم برشاقةٍ على العشب واستقر أمام جذع الكستناء الحلو. وضع قبعة القش على عينيه. وكان من الواضح أنه مرهق. كان ينوي النوم، فالحَمَل؛ الحَمَل الأصلي المحبوب، صغيرهم المُتْعَب، غالبًا ما كان يخلد إلى النوم في أوقاتٍ غريبةٍ وفي أماكن غير متوقعة. هل كان هذا الحَمَل الجديد الذي يرتدي ثيابًا رمادية من الصوف وربطة عنق خضراء باهتة مثل الحَمَل الآخر؟ أم هل كَبُر عقله مع جسده؟

كان هذا هو السؤال الذي طرحه أخواه وأختاه — في اجتماعٍ عاجل عُقِدَ فوق أجمَّةِ سرخسٍ أصفرَ على بُعد أمتارٍ قليلةٍ من الحَمَل النائم.

قالت أنثيا: «مهما كان الأمر، فسيكون مروَّعًا. فإذا كان عقله قد نما أيضًا، فلن يطيق اعتناءنا به؛ وإذا كان لا يزال طفلًا بداخله، فكيف بالله يمكن أن نُقنعه بفعل أي شيء؟ وسيصحو لتناول الغداء في غضون دقيقة.» قالت جين: «وليس معنا أي جوز.»

قال روبرت: «دعكِ من الجوز الآن! ما يهم هو الغداء؛ فأنا لم أتناول وجبة غداءٍ كافية إطلاقًا بالأمس. ألا يمكننا أن نربطه بالشجرة ونعود إلى المنزل لتناول الغداء والعودة بعد ذلك؟»

قال سيريل بنبرةٍ بائسةٍ تنطوي على شيءٍ من الامتعاض: «بالتأكيد سوف نحصل على كمية كبيرة من الغداء إذا ذهبنا دون الحَمَل، وسيكون الأمر نفسه إذا اصطحبناه معنا في الوضع الذي هو فيه الآن. أعترف أنني السبب؛ فلا داعي لتوبيخي! كما أعلم أنني شخصٌ حقير، ولا أستحق الحياة؛ يمكنكم أن تعتقدوا ذلك أيضًا، وهذا ما أتفهَّمه تمامًا. السؤال الآن هو، ماذا سنفعل؟»

قال روبرت: «دعنا نوقظه الآن، ونأخذه إلى روتشستر أو ميدستون ونُحضر بعض الطعام من محل الفطائر والمعجنات.»

كرر سيريل: «نأخذه؟ نعم، فلنفعل! كل ذلك هو خطئي — أنا لا أنكر ذلك — ولكن سيشق عليك الأمر إذا حاولت اصطحاب هذا الشاب إلى أي مكان. لقد كان الحَمَل دائمًا مدللًا على نحو مفرط، ولكن بما أنه كَبِر الآن، فقد أصبح شيطانًا، هذا كل ما هنالك. أستطيع رؤية ذلك. انظروا إلى فمه.»

قال روبرت: «حسنًا، إذن، هيا نوقظه ونرى ماذا سيفعل. ربما سيأخذنا إلى ميدستون ويدفع الحساب من أجلنا. فلا بد أن لديه الكثيرَ من المال في جيوب تلك الحقائب الاستثنائية. ينبغي علينا أن نتناول الغداء، على أي حال.»

وقد اقترعوا بفتات نبات السرخس، فوقع على عاتق جين مهمة إيقاظ الحَمَل الضخم.

فعلت ذلك بلطف إذ دغدغت أنفه بغُصَيْن من زهر العسل البري. وقال: «تبًّا للذباب!» مرتين، ثم فتح عينيه.

قال بصوتٍ خامل: «أهلًا يا صغار، هل ما زلتم هنا؟ كم هي الساعة المسببة للدوار؟ سوف تتأخَّرون على تناول طعامكم!»

قال روبرت بمرارة: «أعلم أن ذلك سيحدث.»

قال الحَمَل الضخم: «إذن فلتعودوا بسرعة إلى المنزل.»

سألت جين: «ولكن ماذا عن طعامك أنت؟»

«أوه، كم تبعد المسافة إلى المحطة في اعتقادكم؟ أفكر في أن أتوجَّه مسرعًا إلى المدينة وأتناول الغداء في النادي.»

خيَّم على الأربعة الشعور بالبؤس الشديد، فسوف يذهب الحَمَل — وحده — دون مراقبة — إلى المدينة ويتناول الغداء في نادٍ! وربما تناول الشاي هناك أيضًا. وربما يحلُّ عليه الغروب وهو وسط الأرضية الفخمة اللامعة للنادي، وسيجد نفسه طفلًا ناعسًا عاجزًا، وحيدًا وسط نوادل غير متعاطفين، وسيبكي ببؤسٍ طالبًا أنثيا من عُمق الكرسي ذي الذراعَين بالنادي. حملت هذه الصورة أنثيا على البكاء.

قالت وهي تبكي دون اكتراث: «أوه لا، حَمَلي الحبيب، يجب ألَّا تفعل ذلك.»

عبس الحَمَل وقال: «عزيزتي أنثيا كم مرة أخبرتك بأن اسمي هيلاري أو سانت مور أو ديفيرو؟ — أي من أسماء المعمودية الخاصة بي متاحة لشقيقيَّ وأختيَّ الصغار، ولكن ليس «الحَمَل»، فهو أثرٌ من آثار طفولةٍ حمقاء وبعيدة.»

كان هذا مروعًا، فقد كان شقيقهم الأكبر الآن، أليس كذلك؟ حسنًا، بالطبع كان كذلك، إذا كان كبيرًا وهم ليسوا كذلك. هكذا، تهامس روبرت وأنثيا.

لكن المغامرات شبه اليومية الناتجة عن الأمنيات التي حقَّقها عفريت الرمال كانت تجعل من الأطفال أكثرَ حكمة مما توحي به أعمارهم.

قالت أنثيا: «عزيزي هيلاري» — بينما غصَّ الآخرون بالاسم في حلوقهم — «أنت تعلم أن أبانا لم يكن ليرغب في ذَهابك إلى لندن؛ لأنه لا يريدنا أن نُترك وحدنا دون أن تعتنيَ بنا.» ثم أضافت واصفة نفسها: «أوه، يا لي من حقيرةٍ مخادعة!»

قال سيريل: «انظر، إذا كنت شقيقنا الأكبر، فلماذا لا تتصرَّف على هذا النحو وتتوجَّه بنا إلى ميدستون وتمنحنا نزهة جيدة، ونذهب إلى النهر بعد ذلك؟»

قال الحَمَل بلطف: «أنا ملتزم برعايتكم رعاية غير محدودة، لكنني أُفضِّل العزلة، عودوا إلى المنزل لتناوُل طعامكم: أعني غدائكم. وربما ألحق بكم في وقت الشاي أو قد لا أصل المنزل إلا بعد أن تكونوا خلدتم إلى النوم.»

النوم! جالت نظراتٌ مليئة بالكلام بين الأربعة التعساء. فسيكون هناك متَّسَع أكبر للنوم إذا هم ذهبوا إلى المنزل دون الحَمَل.

قالت جين قبل أن يتمكن الآخرون من إيقافها: «وعدنا أمَّنا بألا تغيب عن بصرنا إذا أخرجناك.»

قال الحَمَل الكبير وقد وضع يديه في جيوبه خافضًا رأسه لينظر إلى جين: «انظري يا جين، يجب على الصغيرات أن يُرَين ولا يُسمعن، يجب أن تتعلموا أيُّها الأطفال ألا تجعلوا أنفسكم مصدر إزعاج. اركضوا إلى المنزل الآن — وربما إذا تصرَّفتم بلياقة — فسأعطي كل واحدٍ منكم بنسًا في الغد.»

قال سيريل في أفضل نبرة «رجل لرجل» لديه: «إلى أين أنت ذاهب، أيُّها الشاب الكبير؟ هل تسمح لي وروبرت بأن نأتيَ معك، حتى لو كنت لا تريد مرافقة الفتاتين.»

لقد كان هذا حقًّا تصرفًا نبيلًا من سيريل؛ لأنه لم يهتم أبدًا بأن يُشاهَد علنًا مع الحَمَل، والذي بالطبع بعد غروب الشمس سيعود طفلًا مرة أخرى.

نجحت نبرة «رجل لرجل.»

قال الحَمَل الجديد ببهجةٍ شديدةٍ وهو يمسُّ شاربه الخفيف بأصابعه: «سأسرع إلى ميدستون على دراجتي، يمكنني تناول الغداء في مطعم «ذا كراون»، وربما سآخذ مجرى النهر؛ لكنني لا أستطيع أخذكما جميعًا على الدراجة، أليس كذلك؟ اركضوا إلى البيت شأنكم شأن الأطفال المهذبين.»

كان الموقف بلا أمل. تبادَل روبرت نظرة يائسة مع سيريل. ونزعت أنثيا دبوسًا من حزام خصرها، وهو دبوس ترك انسحابه فجوة كبيرة بين التنورة والصدار، وسلمتها إلى روبرت بتقطيبة وجه حالكة وعميقة المعنى. تسلَّل روبرت إلى الطريق، وهناك بالطبع، كانت تقف دراجة هوائية مريحة وجميلة وجديدة، فهم روبرت بالطبع في الحال أنه إذا كبر الحَمَل فلا بد أن يكون لديه دراجة هوائية، كان هذا دائمًا أحد أسباب روبرت الخاصة التي ترغِّبه في أن يكبر ويصير شخصًا بالغًا، وبدأ على عجل في استخدام الدبوس؛ لقد أحدث أحد عشر ثقبًا في الإطار الخلفي، وسبعة في الإطار الأمامي، كان يرغب في جعل المجموع اثنين وعشرين لولا خشخشة أوراق أشجار البندق الصفراء، التي حذَّرته من قدوم الآخرين. كان يميل بسرعة على كل إطار، وجعله هذا يسمع حفيف ما تبقى من الهواء وهو يخرج من خلال الثمانية عشر ثقبًا.

قال روبرت، متسائلًا في نفسه كيف استطاع أن يتعلَّم الخداع في وقتٍ قصير هكذا: «إن دراجتك بها خللٌ ما.»

قال سيريل: «نعم إنها كذلك.»

قالت أنثيا وهي تنحني وتعتدل مرةً أخرى حاملةً شوكة كانت قد أعدتها لهذا الغرض: «إنها مثقوبة، انظر هنا.»

أخرج الحَمَل الكبير (أو هيلاري، كما أظن أن علينا أن ندعوه الآن) المضخة ونفخ الإطار. سرعان ما تبيَّن أنه مثقوب بالفعل.

قال الحَمَل: «أعتقد أن هناك كوخًا في مكان قريب، حيث يمكن للمرء الحصول على سطل من الماء.»

كان هناك كوخٌ بالفعل؛ وعندما أصبح عدد الثقوب معلومًا، أنعم عليهم مَنْ بالكوخ نعمة خاصة فقدَّم «أكوابًا من الشاي لراكبي الدراجات»، لقد قدَّموا وجبة غريبة تشتمل على الشاي ولحم الخنزير من أجل الحَمَل وإخوته. دُفِع هذا المبلغ من أصل الخمسة عشر شلنًا التي حصل عليها روبرت عندما كان عملاقًا؛ على ما يبدو، لم يكن لدى الحَمَل،

للأسف، أي أموال. كانت هذه خيبة أمل كبيرة للباقين؛ لكن هذا شيء يحدث، حتى بالنسبة إلى أكبرنا سنًّا. ومع ذلك، كان لدى روبرت ما يكفي ليتناوله، وكان هذا شيئًا جيدًا. بهدوء ولكن بثبات تناوب الأربعة البائسون محاولة إقناع الحَمَل (أو سانت مور) بأن يقضي بقية اليوم في الغابة. لم يكن قد تبقى الكثير من اليوم عندما فرغ من إصلاح الثقب الثامن عشر. نظر إلى أعلى بعدما أنجز العمل متنهدًا بارتياح، وعدَّل فجأة ربطة عنقه.

قال في لهفةٍ: «هناك سيدة قادمة، حبًّا بالله، ابتعدوا عن الطريق، عودوا إلى المنزل — اختبئوا — تلاشوا بطريقة أو بأخرى! ينبغي ألا تراني مع مجموعة من الأطفال المتسخين.» لقد كان إخوته في الواقع متسخين تمامًا؛ لأنه في وقتٍ مبكر من اليوم، رشَّ الحَمَل، عندما كان لا يزال طفلًا، قدرًا كبيرًا من تراب الحديقة عليهم. كان صوت الحَمَل الضخم يُشبه صوت طاغية، كما قالت جين بعد ذلك، لدرجة أنهم تراجعوا بالفعل إلى الحديقة الخلفية، وتركوه مع شاربه الصغير وبدلته الصوفية لمقابلة السيدة الشابة، التي وصلت الآن إلى الحديقة الأمامية تقود دراجة.

خرجت امرأة من المنزل، وتحدثت إلى السيدة الشابة — رفع الحَمَل قبعته عندما مرت عليه — ولم يتمكن الأطفال من سماع ما قالته، على الرغم من أن أعناقهم قد اشرأبَّت لسماعِ ما يُقال وهم مختبئون بجانب دلو الخنازير ويسترقون السمع على مقربة منهما، لقد شعروا أن ما فعلوه كان «عادلًا تمامًا» — كما قال روبرت — مع الحَمَل البائس في تلك الحالة.

وعندما تحدث الحَمَل بصوتٍ متمهل ومتأدب، تمكنوا من سماع ما يكفي.

قال: «ثقب؟ ألا يمكنني أن أمدَّ يد المساعدة؟ إذا سمحتِ لي؟»

انطلقت الضحكات المكتومة من وراء دلو الخنازير — فالتفت الحَمَل الضخم «أو ديفيرو في هذه الحالة» ورمقهم بنظرةٍ غاضبة.

قالت السيدة وهي تنظر إلى الحَمَل: «أنت لطيف للغاية.» بدا عليها شيء من الخجل، لكن، كما قال الصبيان، كانت صادقة فيما تقول على ما يبدو.

همس سيريل من وراء دلو الخنازير: «ولكن يا إلهي! كان علي أن آخذ في الاعتبار أن الحَمَل قد نال كفايته من إصلاح الدراجات ليوم واحد. كم تمنيتُ لو أنها علمت أنه لا يعدو كونه طفلًا صغيرًا مدللًا كثير التذمر!»

غمغمت أنثيا بغضب: «إنه ليس كذلك، إنه رائع، فقط إذا تركه الناس وشأنه. إنه لا يزال حَمَلُنا الثمين، مهما كان ما يُحوِّله إليه البلهاء السخيفون — أليس كذلك يا جين؟»

شاركتها جين هذا الاعتقاد لكن بشيء من التشكك.

والآن، كان الحَمَل — الذي يجب أن أحاولَ أن أتذكَّر أن أدعوَه بسانت مور — يفحص دراجة السيدة ويتحدث معها بطريقة ناضجة للغاية بالفعل. ولم يكن يستطيع أحد أن يظن، بمجرد رؤيته وسماعه، أنه في صباح ذلك اليوم نفسه كان طفلًا ممتلئًا ابن عامين يكسر ساعات «ووتربيري» الخاصة بالآخرين. أخرج ديفيرو (كما يجب أن يُدعى في المستقبل) ساعة ذهبية عندما كان يصلح دراجة السيدة، فقال جميع الناظرين من وراء دلو الخنازير: «يا إلهي!» لأنه بدا لهم أنه من غير العدل تمامًا أن يروا الطفل — الذي كان قد أفسد هذا الصباح ساعتين رخيصتين ولكن مضبوطتين — وهو يحصل الآن، في حالة النضج الذي تسبَّب سيريل في رفعه إليها، على ساعة ذهبية حقيقية، بسلسلة وأختام!

ألقى هيلاري (كما سأطلق عليه الآن) نظرةً ذابلة إلى إخوته، ثم قال للسيدة التي بدا معها ودودًا للغاية:

«إذا سمحتِ لي، فسوف أذهب معك بعيدًا حتى تقاطع الطرق؛ أصبح الوقت متأخرًا، وأمامكِ رحلة طويلة.»

لن يعرف أحد أبدًا الإجابة التي كانت تنوي السيدة الشابة الردَّ بها على هذا العرض المُهذَّب، فما إن سمعته أنثيا حتى هرعت إلى الخارج، دافعة دلو الخنازير، الذي تعكر جراء الدفعة، وأمسكت بالحَمَل (أظنني يجب أن أقول هيلاري) من الذراع. وتبعها الآخرون، وفي الحال، كان الأطفال الأربعة المتسخون مرئيين، وظاهرين.

قالت أنثيا للسيدة ببالغ الجدية: «لا تسمحي له، إنه لا يصلح للذهاب مع أي شخص!»

قال سانت مور (كما سنسميه الآن) بصوتٍ مروِّع: «اذهبي بعيدًا، أيتها الفتاة الصغيرة! اذهبي إلى المنزل في الحال!»

مضت أنثيا المتهورة الآن في حديثها: «من الأفضل كثيرًا لكِ ألا تفعلي معه أي شيء، فهو لا يعرف من هو، إنه شخص مختلف تمامًا عما تعتقدين أنه هو.»

سألت السيدة تلقائيًّا: «ماذا تعنين؟» بينما حاول ديفيرو (كما يجب أن أذكر مصطلح الحَمَل الضخم) عبثًا أن يدفعَ أنثيا بعيدًا، ساعدها الآخرون، ووقفت صلبة كالصخرة.

قالت أنثيا: «إذا سمحت له بالذهاب معكِ، فسترين قريبًا ما أقصده، هل تريدين أن ترَيْ فجأةً طفلًا صغيرًا مسكينًا عاجزًا يتدحرج على طول المنحدر بجانبكِ وقدماه لأعلى من دراجة هوائية خرجت عن السيطرة؟»

صار وجه السيدة شاحبًا نوعًا ما.

سألت الحَمَل الضخم (والذي سنُسمِّيه أحيانًا باسم سانت مور في هذه الصفحات): «مَنْ هم هؤلاء الأطفال المتسخون؟»

كذب بيأس قائلًا: «أنا لا أعرف.»

صرخت جين: «أوه، أيُّها الحَمَل كيف يمكنك أن تقول ذلك بينما تعرف جيدًا أنك أخونا الأصغر الذي نحبه كثيرًا.» ثم قالت موضحة للسيدة التي أمسكت بيديها الدراجة ووجَّهَتها تجاه البوابة: «نحن إخوته الكبار، وعلينا أن نعتنيَ به. وأن نعيدَه إلى المنزل قبل غروب الشمس، وإذا لم نفعل ذلك، فلا أعرف ماذا سيحدث لنا. كما ترين، إنه مسحورٌ بدرجة أو بأخرى كما لو كان تحت تأثير تعويذة ما، أنت تعرفين ماذا أقصد!»

مرارًا وتكرارًا، حاول الحَمَل (أعني ديفيرو) إيقاف جين عن الاسترسال في التوضيح، لكن كلًّا من روبرت وسيريل أمسك بإحدى ساقي الحَمَل، ولم يكن هناك أي تفسيرٍ مناسب. ركبت السيدة الدراجة وسارعت في مغادرة المكان، وأثارَت اهتمام أقاربها في الغداء بإخبارهم عن هروبها من عائلة مجنونة خطيرة قائلة: «كانت عينا الفتاة الصغيرة عينَيْ شخصٍ مجنون، ولا يمكنني أن أفهم لماذا تركوها طليقة!»

وبعدما انطلقت دراجتها على الطريق المنحدر، وتلاشى صوتها، تحدَّث سيريل بجدية.

قال: «هيلاري، أيُّها الفتى الكبير، لا بد أنك تعرضتَ لضربة شمس أو شيء ما، وإلا فما تلك الأشياء التي قلتها لتلك السيدة. لو أخبرناك بالأشياء التي قلتها عندما تعود إلى ذاتك الحقيقية من جديد في صباح الغد مثلًا، فلن تفهمها ناهيك عن أن تصدقها! ثق بي، أيُّها الفتى، ولنعد إلى المنزل الآن، وإذا لم ترجع إلى ما كنت عليه في الصباح، فسوف نطلب من بائع الحليب أن يطلب من الطبيب القدوم.»

بدا الحَمَل الكبير المسكين (كان سانت مور في الحقيقة أحد أسمائه المسيحية) في حيرةٍ تمنعه من المقاومة.

قال بمرارة: «بما أنكم جميعًا تبدون كمجموعةٍ من المجانين، فأرى أنه من الأفضل أن آخذَكم إلى المنزل، لكن لا تظنُّوا أنني سأترك هذا يمر مرور الكرام، فسيكون لديَّ ما أقوله لكم في صباح الغد.»

قالت أنثيا هامسة: «نعم، ستفعل، يا حَمَلي، لكن لن يظل ما تعتزم قوله لنا على حاله مطلقًا.»

في قرارة نفسها، كان بإمكانها سماع صوت الحَمَل، ذلك الطفل الوديع الجميل — الذي يختلف صوته تمامًا عن النبرات المتكلفة للحَمَل الضخم البغيض (الذي كان من أسمائه ديفيرو) — وكأنها كانت تسمعه يقول: «أنا أحبُّ أنثيا، أريد أن آتي لأنثيا.»

قالت: «أوه، هيا بنا إلى المنزل، حبًّا بالله، وستقول ما تريد في الصباح — وأضافت بصوتٍ هامس — إذا استطعت.»

عادت الصحبة الواجمة إلى المنزل خلال المساء الهادئ. وأثناء حديث أنثيا عبث روبرت مرة أخرى بالدبوس في إطار الدراجة، والحَمَل (الذي كان عليهم أن يدعوه سانت مور أو ديفيرو أو هيلاري) بدا حقًّا أنه قد نال كفايته من إصلاح الدراجة؛ لذلك جرَّها ووضعها جانبًا.

كانت الشمس على وشك الغروب عندما وصلوا إلى منزلهم الأبيض، وكان الأطفال الأربعة الأكبر سنًّا يودُّون أن يتلكَّئوا في الطريق الضيق إلى أن يحوِّل اكتمال غروب الشمس الحَمَل الناضج (الذي لن أجهدكم بتكرار أسمائه المسيحية أكثر من ذلك) إلى أخيهم العزيز المزعج، لكنه أصرَّ، في طور نضوجه، على المضيِّ قدمًا، ومن ثمَّ استقبلتْه مارثا في الحديقة الأمامية.

الآن تذكرون أنه — وكمعروف خاص — كان قد اتفق عفريت الرمال معهم على ألَّا يلحظ الخدم في المنزل أي تغييرات ناجمة عن أمنيات الأطفال؛ لذلك، لم ترَ مارثا سوى المجموعة المعتادة بصحبة الحَمَل الرضيع الذي كانت قلقةً بشدةٍ عليه طوال فترةِ ما بعد الظهر والذي كان يسير بجانب أنثيا على ساقيه السمينتين، بينما كان الأطفال — بالطبع — لا يزالون يرونه حملًا ناضجًا (ولا عليكم من أسمائه التي كان مُعمَّدًا بها)، فهرعت مارثا إليه وأمسكت به بين يديها، وهتفت قائلة:

«تعالَ إلى مارثتك الآن، يا حبيبي الغالي!»

قاوم الحَمَل الضخم (الذي ستُطوى أسماؤه في غياهب النسيان) بشراسة، كان على وجهه تعبيرٌ عن الرعب الشديد والانزعاج، لكن مارثا كانت أقوى منه، فرفعته وحملته إلى المنزل. لن ينسى أي من الأطفال ذلك المشهد، مشهد الشاب المُهندَّم الذي يرتدي ثيابًا صوفية رمادية اللون مع ربطة عنق خضراء ولديه شارب أسود صغير — لحسن الحظ كان نحيل البنية قليلًا ولم يكن طويل القامة — وهو يناضل بين ذراعي مارثا القويتين، والتي حملتْه بعيدًا بلا حولٍ منه ولا قوة، متوسلة إليه — وهي في طريقها — أن يكون طفلًا مهذبًا، ويدخل ويتناول وجبته اللذيذة من الخبز والحليب! لحسن الحظ، غربت

الشمس عند وصولهم إلى عتبة الباب، واختفت الدراجة، وشُوهِدت مارثا تحمل إلى المنزل ذلك الرضيع الحقيقي المحبوب الذي كان يبلغ من العمر عامين والذي كان نائمًا. لقد ذهب الحَمَل الضخم (بدون اسم من الآن فصاعدًا) إلى غير رجعة.

قال سيريل: «إلى غير رجعة؛ لأنه في أقرب فرصة سيكبر الحَمَل بحيث لن يتأتى لنا التنمر عليه، وعلينا أن نبدأ التنمر عليه، من أجل مصلحته، حتى لا يكبر ويصبح على هذا الحال.»

قالت أنثيا بغِلظة: «لن أسمحَ لك بالتنمر عليه، لن تفعل ما دمتُ قادرةً على ردعك.»

قالت جين: «ينبغي أن نُقوِّم سلوكه بلطف.»

قال روبرت: «انظروا، إذا كبر بالطريقة المعتادة، فسيكون هناك متسعُ من الوقت لتقويمه وهو يكبَر. كان الشيء الفظيع اليوم أنه كبِر فجأة. فلم يكن هناك وقتٌ لتقويمه على الإطلاق.»

قالت أنثيا: «إنه لا يحتاج أيَّ تقويم.» بينما كان صوت الحَمَل يصل إليهم عبر الباب المفتوح، تمامًا كما سمعته في أعماق قلبها بعد ظهيرة ذلك اليوم وهو يقول:

«أنا أحبُّ أنثيا، أريد أن آتي لأنثيا!»

الفصل العاشر

فروات الرأس

ربما كان هذا اليوم أكثر توفيقًا لو أن سيريل لم يقرأ رواية «آخِر سُلالة الموهيكان»، فقد كانت القصة تشغل تفكيره على الإفطار، قال حالِمًا وهو يتناول كوبه الثالث من الشاي: «كم أتمنى لو أن هناك هنودًا حمرًا في إنجلترا، لا أعني ضخام البِنيَّة، بل صغار البِنيَّة، بالحجم المناسب لنا كي نقاتلهم.»

اختلف الجميع معه في الحال، ولم يعلق أحد أي أهمية على الحادث، ولكن عندما نزلوا إلى الحفرة الرملية كي يتمنَّوا الحصول على مائة جنيه من فئة الشلنين التي عليها نقشٌ لرأس الملكة فيكتوريا، من أجل تفادي الأخطاء في أمنياتهم التي كانوا يشعرون دائمًا بأنها ستكون أمنياتٍ معقولةً حقًّا ستثبُت جدواها، اكتشفوا أنهم قد أخطئوا مرةً أخرى! وبالنسبة إلى عفريت الرمال، الذي كان منزعجًا بشدة ويشعر بالنعاس، فقد قال: «أوه، لا تُزعجني. لقد تحقَّقَتْ أمنيتُك.»

قال سيريل: «لم أكن أعرف ذلك.»

قال عفريت الرمال وهو لا يزال يشعر بالضيق: «ألا تتذكَّر أمس؟ لقد طلبتَ مني أن أحقِّق لكم أمنياتكم أينما كنتم، ولقد تمنَّيتم هذا الصباح، وحصلتم على ما تمنَّيتموه.»

قال روبرت: «أوه، حقًّا؟ وما هو؟»

قال عفريت الرمال وهو يبدأ الحفر: «هل نسيت؟ لا يهم؛ سوف تعرفون قريبًا بما فيه الكفاية، وأتمنَّى أن تستمتعوا بما تمنَّيْتم، يا له من أمرٍ جيد ذاك الذي أقحمتم أنفسكم فيه!»

قالت جين بأسف: «دائمًا ما نفعل ذلك، بطريقة أو بأخرى.»

الغريبُ في الأمر أنه لا يمكن لأيِّهم أن يتذكَّرَ ما إذا كان أحدهم تمنَّى أي شيءٍ في صباح ذلك اليوم أم لا. ولم تكن أمنية الهنود الحمر عالقةً في رأس أيٍّ منهم. كان هذا

الصباح هو الأكثر توترًا؛ فقد كان الجميع يحاول أن يتذكَّر ما تمناه، ولم يتمكن أحدٌ من ذلك، وكانوا جميعًا يتوقعون حدوث شيءٍ فظيع في كل دقيقة. أثار الموقف حالةً شديدة من التوتُّر والارتباك؛ لقد عرفوا — من خلال ما قاله عفريت الرمال — أنهم لا بد أن يكونوا قد تمنَّوْا شيئًا غير مرغوبٍ فيه أكثر من المعتاد، وأنهم قضَوْا عدَّة ساعاتٍ في أشدِّ حالات عدم اليقين إيلامًا. استمر الحال كذلك حتى وقت الغداء تقريبًا، عندما تعثَّرت جين بكتاب «آخِر سُلالة الموهيكان» الذي كان — بطبيعة الحال — متروكًا وجهه لأسفل على الأرض، وعندما أمسكت أنثيا بجين والتقطت الكتاب قالت فجأة: «بتُّ أعرف الآن!» واستلقت على السجادة.

«أوه، يا جين، يا لها من أمنيةٍ فظيعةٍ تلك التي تمنَّاها سيريل على الإفطار! ألا تتذكرون؟ لقد قال: «أتمنى لو أن يكون هناك هنود حُمر في إنجلترا.» والآن هم موجودون، وهم على وشك سلخ فروة رأس الجميع في أنحاء البلاد، كما لم يحدث من قبل.»

قالت جين: «ربما هم موجودون فقط في نورثامبرلاند ودُورام.» كان من المستحيل تقريبًا الاعتقادُ بأن الأمر قد يضرُّ الناس لدرجة سلخ فروات رءوسهم.

قالت أنثيا: «ألا تصدِّقين ذلك؟ قال عفريت الرمال إنه شيءٌ جيد ذاك الذي أقحمنا أنفسنا فيه، هذا يعني أنهم سيأتون إلى هنا، وتخيَّلي أن يسلخوا فروة رأس الحَمَل!»

قالت جين: «ربما سيذهب مفعول سلخ فروة الرأس عند الغروب ويعود طبيعيًّا مرة أخرى.» لكنها لم تكن تتحدث بتفاؤل كما هي عادتها.

قالت أنثيا: «لا يجري الأمر على هذا النحو، فالأشياء التي تنتج عن الأمنيات لا تزول، انظري إلى الخمسة عشر شلنًا يا جين، سأكسر شيئًا ما، ويجب أن تسمحوا لي بأخذ كل قرش في حوزتكم، فسيأتي الهنود هنا، ألا تفهمون؟ إن عفريت الرمال اللَّعين يقول الحقيقة، بحق الله ألَا تفهمون خطتي؟»

لم تفهم جين أيَّ شيء، ولكنها تبعت أختها بخضوع إلى غرفة نوم والدتهما.

أنزلت أنثيا وعاء الماء الثقيل، كان عليه نقشٌ من اللقالق والأعشاب الطويلة، لم تنسه أنثيا قط، وحملتْه إلى غرفة الملابس، وأفرغَت منه المياه بعنايةٍ داخل الحمَّام، ثم عادت بالوعاء إلى غرفةِ النوم وأسقطتْه على الأرض، أنتم تعرفون كيف يتحطَّم الوعاء دائمًا إذا سقط من يد أحدكم مصادفةً. أما إذا تحطَّم بالقصد، فالأمر مختلفٌ تمامًا، أسقطت أنثيا هذا الوعاء ثلاث مرات، ولكنه كان سليمًا في كل مرة؛ لذا كان عليها أخيرًا أن تأخذ قطعة من الخشب لتكسر الوعاء بها بدمٍ بارد، لقد كان حقًّا عملًا شديد القسوة.

بعد ذلك، كسرت صندوق الإرساليات، أخبرتها جين أن ذلك كان خطأً، بالطبع، لكن أنثيا أغلقت شفتيها بإحكام شديد ثم قالت:

«لا تكوني سخيفةً؛ إنَّها مسألة حياة أو موت.»

لم يكن هناك الكثير في صندوق الإرساليات — أحد عشر بنسًا — لكن الفتاتَين الواقفتَين بينهما كان لديهما معًا ما يقرب من أربعة شلنات، وهكذا صار معهما أكثر من أحد عشر شلنًا، كما سترون بسهولة.

صرَّت أنثيا النقود في منديل جيبها ودعت جين قائلة: «تعالَي يا جين!» وركضت باتِّجاه المزرعة، كانت تعرف أن المُزارع ذاهبٌ إلى روتشستر بعد ظهر ذلك اليوم. في الواقع كان من المُقرَّر أن يأخذَ الأولادَ الأربعةَ معه، لقد كانوا قد خطَّطوا لهذا في تلك الساعة التي كانوا قد تفاءلوا فيها واعتقدوا أنهم سيحصلون على مائة جنيه، في صورة فئات مكوَّنةٍ من شلنين، من عفريت الرمال. كانوا قد رتَّبوا لدفع شلنَيْنِ للمزارع أُجرَة ركوب كل واحد منهم. الآن شرحَت أنثيا له على عَجَل أنه لا يمكنهم الذهاب، لكنها سألته إنْ كان يمكنه أخذُ مارثا والطفل بدلًا منهم؟ فوافق، لكنه لم يكن سعيدًا بالحصول على نصف جنيه فقط بدلًا من ثمانية شلنات.

عندئذٍ ركضت الفتاتان إلى المنزل مرةً أخرى، كانت أنثيا متوترةً للغاية، لكنها حاولت أن تتماسك. وعندما فكَّرت في الأمر لاحقًا، لم ترَ إلا أنها أحسنَت التصرُّف بأفضل ما يمكنها من سعة أفق وسرعة بديهة، تمامًا وكأنها وُلدت لتكون جنرالًا، أحضرت صندوقًا صغيرًا من دُرج خاص بها، وذهبت للعثور على مارثا، التي كانت ترتِّب الملابس ولم تكن في أفضل حالاتها المزاجية.

قالت أنثيا: «اسمعيني، لقد كسرتُ وعاء ماء الحمَّام في غرفة أمي.»

فقالت مارثا وهي تضع ملَّاحة المائدة بعصبية فأثارت ضجة: «ذلك ما أنتِ عليه، دائمًا ما تتسبَّبين في الأذى.»

قالت أنثيا: «لا تغضبي الآن يا مارثا العزيزة؛ فلديَّ ما يكفي من النقود لشراء واحدٍ جديد؛ لو تكرَّمتِ وذهبتِ لشرائه لنا، فلدى أبناء عمومتكِ متجرٌ للخزف الصيني، أليس كذلك؟ كما أود منكِ أن تشتريه لنا اليوم، تحسُّبًا لعودة أمي إلى المنزل غدًا؛ فأنت تعرفين أنها قالت إنها ربما تعود غدًا.»

قالت مارثا: «بل أنتم مَنْ سيذهب إلى المدينة.»

قالت أنثيا: «لا يمكننا ذلك إذا ما اشترينا الوعاءَ الجديد، لكننا سندفع لكِ أجرتك، إذا كنت ستأخذين الحَمَل معكِ، وأقول لكِ أيضًا يا مارثا، وفَكِّري فيما سأقوله، سأعطيكِ

صندوق الهدايا هذا، إذا ذهبتِ، انظري إليه إنه باهر الجمال، وكلُّه مُطعَّم بالفضة والعاج والأبنوس الحقيقي كالذي في معبد الملك سليمان.»

قالت مارثا: «فهمتُ، لا، أنا لا أريد صندوقكِ، أيتها الآنسة، كلُّ ما تريدينه هو أن أخلي يديكِ من رعاية الحَمَل الغالي بعد الظهر، إياكِ أن تظني أنني لا أفهم ما تحاولين فعله!»

كان هذا صحيحًا لدرجة أن أنثيا رغبت في إنكاره في الحال؛ فلم يكن من شأن مارثا أن تعرف كلَّ هذا القدر، لكن أنثيا أمسكت لسانها.

وضعت مارثا الخبز بقوة في الصينية؛ ما أحدث صخبًا عاليًا وأدَّى إلى سقوط الخبز من الصينية.

قالت أنثيا برقة: «أريد حقًّا شراءَ الوعاء، ستذهبين، أليس كذلك؟»

«حسنًا، فقط هذه المرة، لا أمانع، لكن أرجو ألَّا تنخرطي في أفعالكِ المؤذية أثناء مغادرتي، هذا كلُّ ما أريده!»

قالت أنثيا بحماس: «يجدر بكِ التعجيل وارتداء ملابسك بسرعة حتى تتمكني من الذهاب والإياب مبكرًا. ارتدي هذا الفستان البنفسجي الجميل يا مارثا، والقبعة ذات زهور الذرة الوردية، والياقة الصفراء ذات الدانتيل الأصفر، سوف تنهي جين ترتيب الملابس، وسأغسل الحَمَل وأعده لكِ.»

بينما كانت أنثيا تغسل الحَمَل على غير رغبته، وتُلبسه أفضل ملابسه، كانت تطلع من النافذة من وقت لآخر؛ كان كلُّ شيء على ما يُرام حتى الآن. فلم ترَ أيَّ هنود حمر، ومع اندفاع وهرولة مارثا ووضعها لبعض الزينة انتهى الأمر بانطلاقها هي والحَمَل في العربة، فتنفست أنثيا الصُّعَداء.

قالت لجين مهدئةً من روعها: «إنه بمأمن.» ثم سقطت من شدة الخوف على الأرض وانفجرت في البكاء، لم تفهم جين مطلقًا كيف يمكن للشخص أن يكون شجاعًا للغاية كقادة الجيوش، ثم فجأة ينهار كالبالون إذا وخزته، من الأفضل ألَّا تنهار، بالطبع، لكنك ستلاحظ أن أنثيا لم تنهَرْ حتى حقَّقت هدفها. لقد أبعدت الحَمَل العزيز عن الخطر. وكانت تشعر شعورًا يقينيًّا أن الهنود الحمر موجودون حول المنزل. لم تكن عربة المُزارع لتعود إلا بعد أن تغرب الشمس؛ لذلك يمكنها أن تبكي قليلًا، جزءٌ من بكائها كان سببه الفرح؛ لأنها فعلت ما كانت تصبو إلى تحقيقه، بكت لمدة ثلاث دقائق، بينما عانقتْها جين بقلة حيلة وهي تقول في فواصل زمنية مدتها خمس ثوانٍ: «لا تبكي، عزيزتي أنثيا!»

ثم قفزت للأعلى، وفركَت عينيها بقوةٍ بطرف كمها، حتى صارَت حمراء طيلة ما تبقَّى من اليوم، وبدأت في إخبار الولَدَيْن، ولكن في تلك اللحظة فقط، رَنَّ جرس الغداء من قِبل الطاهية، ولم يمكنهم قول أي شيء حتى انتهت من تقديم اللحم المفروم، ثم تركت الطاهية الغرفة، وأخبرتهما أنثيا بقصتها، ولكن من الخطأ أن نروي قصةً مثيرة على أسماع الناس وهم يتناولون اللحم المفروم والبطاطس المسلوقة. بدا أن هناك شيئًا ما بشأن الطعام جعل فكرة الهنود الحمر تبدو سخيفة وغير معقولة، ضحك الولدان في الواقع، ووصفوا أنثيا بالسخف بعض الشيء.

قال سيريل: «إنني شبه متأكِّد من أنه قبل أن أتمنى تلك الأمنية، كانت جين قد تمنَّت أن يكون يومًا جميلًا.»

وقالت جين بإيجاز: «لم يحدث ذلك.»

استطرد سيريل قائلًا: «لو أنها كانت أمنية الهنود — ناوليني الملح من فضلك، والخردل، لا بد أن أضيف القليل على هذه البطاطس المهروسة — لكانوا غزوا هذا المكان قبل الآن بكثير. أنتم تعلمون أنهم كانوا سيفعلون، أعتقد أن ما تحقق هو أمنية أن يكون اليوم جميلًا.»

سألت أنثيا: «إذن لماذا قال عفريت الرمال يا له من أمرٍ جيد ذاك الذي ورَّطنا أنفسنا فيه؟» لقد كانت تشعر بالغضب الشديد، وهي متأكدة أنها تصرفت بنبل وفطنة، وكان من الصعب جدًّا بعد كل هذا وصفُها بأنها ساذجةٌ صغيرة، خاصةً وأن لديها صندوق إرساليات ثقيلًا ونحو أحد عشر بنسًا، معظمها عملةٌ نحاسية، كان وقع هذا الوصف شديدًا على نفس أنثيا.

ثم حلَّ فاصلٌ قصير من الصمت، أخذت فيه الطاهية أطباق اللحم المفروم وجلبت حلوى البودنج بالدبس، وحالما انصرفت، بدأ سيريل الكلام مرةً أخرى.

قال مُعترِفًا: «بالطبع لا أقصد أن أقول إنه لم يكن من الجيد إخراج مارثا والحَمَل من المشهد لفترةٍ ما بعد الظهر؛ ولكن بالنسبة إلى الهنود الحمر، أنتم تعرفون جيدًا أن الأمنيات تتحقق دائمًا في ذات اللحظة التي نتمنى فيها، فلو كان هناك أيُّ هنود حمر، لكانوا هنا الآن.»

قالت أنثيا: «أتوقع أنهم هنا الآن، إنهم يتربَّصون وسط الأشجار المتشابكة ينتظرون شيئًا ما، وأظن أنك الشخص الأكثر توحشًا وقسوة.»

قالت جين الحريصة على إحلال السلام: «لكن الهنود يتخفون في أغلب الأحيان، أليس كذلك؟»

قال سيريل بطريقةٍ لاذعة: «لا، لا يفعلون، وأنا لست قاسيًا؛ فأنا فقط صادق، وأقول إن كسر وعاء الماء كان تصرفًا في غاية السوء؛ أما بالنسبة إلى صندوق الإرساليات، فأعتقد أنه جريمة خيانة، ولا عجبَ في رأيي إذا أمكن شنقكِ على ذلك، لو أفشى أحدنا هذا الأمر.»

قال روبرت: «اخرس، ألا يمكنك ذلك؟» لكن سيريل لم يستطع، فكما ترون، شعر في قرارة نفسه أنه إذا كان هناك هنود، فسيكون الخطأ خطأه وحده؛ لذلك فهو لا يرغب في الاعتقاد بأنهم موجودون. أعلم أن محاولتكم عدم تصديق الأشياء عندما تكونون شبه متأكدين من صحتها في قرارة أنفسكم؛ أمرٌ مفسدٌ للمزاج.

قال: «إنَّ الأمر ببساطة مجرد حماقة، أعني الحديث عن الهنود، بينما جين هي التي تحقَّقت رغبتها، انظروا يا له من يوم جميل — أوه ...»

كان قد استدار نحو النافذة ليُدلل على جمال اليوم — واستدار الآخرون أيضًا — عندما صمت سيريل متجمدًا، ولم يجرؤ أيٌّ من الآخرين مطلقًا على كسر هذا الصمت، حيث كان ظاهرًا للعيان عند زاوية النافذة، بين الأوراق الحمراء لنبات اللبلاب، وجهُ بني، ذو أنفٍ طويل وفمٍ ضيق وعينَين تبرقان بشدة. والوجه مرسوم عليه بقع ملونة، كان ذا شعرٍ أسود طويل، وفي الشعر ريش!

فَغَر كلُّ طفلٍ في الغرفة فاه، وظلَّ مفتوحًا، كانت حلوى البودنج بالدبس تتحوَّل إلى الأبيض وتبرد على أطباقهم ولم يتمكَّن أحدُهم من التحرك.

فجأةً تراجع الرأس الذي وُضع عليه الريش بحذر، وانكسر الصمت المسيطر على الموقف، يؤسفني أن أقول إن ما قالته أنثيا في البداية كان صائبًا.

«أرأيتم؟! ألم أقل لكم ذلك؟!»

لقد انتهى مفعول سحر بودنج الدبس، فأسرعوا بلف حصصهم من الطعام في ورق مجلة «سبيكتاتور» الأسبوعية، وأخفوها وراء الورق المُجعَّد المُستخدَم كزينة للموقِد، ثم فروا إلى الطابق العلوي للاستطلاع وعقد اجتماعٍ طارئ.

قال سيريل بطريقةٍ مُهذَّبة عندما وصلوا إلى غرفة نوم والدتهم: «مهلًا، يا أنثيا، أنا آسف إذا كنت تصرفتُ معكِ بقسوة.»

قالت أنثيا: «حسنًا، لكنك ترى الآن!»

ومع ذلك، لم يمكنهم تمييز أي آثارٍ أخرى للهنود عبر النوافذ.

قال روبرت: «حسنًا، ماذا ينبغي علينا أن نفعل؟»

قالت أنثيا التي اعترف لها الجميع الآن بكونها بطلة هذا اليوم: «الشيء الوحيد الذي يمكنني التفكير فيه هو أننا إذا ارتدينا ملابس مثل الهنود بقدر الإمكان، ونظرنا إليهم من النوافذ، أو حتى ذهبنا إلى الخارج؛ فقد يظنون أننا قادةٌ أقوياء لقبيلةٍ كبيرةٍ مجاورة، ولا يفعلون أيَّ شيءٍ بنا خوفًا من الانتقام الشديد.»

قالت جين: «لكن ماذا عن إليزا، والطاهية؟»

قال روبرت: «أنسيتِ أنهم لا يمكنهم ملاحظة أي شيء؟ لن يلاحظوا أي شيء يحدث، حتى لو تعرضوا لسلخ فروة الرأس أو تفحَّموا في النار الهادئة.»

«لكن هل سيعودون إلى طبيعتهم عند غروب الشمس؟»

قال سيريل: «بالطبع. فلا يمكن أن تُسلخ فروة رأسكِ أو أن تحترق فعليًّا حتى الموت دون أن تلاحظي ذلك، ومن المؤكَّد أنك ستلاحظين ذلك في اليوم التالي، حتى لو لم تلاحظي ذلك في ذات الوقت، أعتقد أن أنثيا على حق، لكننا سنحتاج الكثير جدًّا من الريش.»

قال روبرت: «سأذهب إلى حظيرة الدجاج، فهناك أحد الديوك الرومية — والذي ليس بصحةٍ جيدة، يمكنني أن أنتزعَ ريشَه دون أن يقاومَ كثيرًا، حالته سيئة جدًّا — ولا يبدو أنه يهتم بما يحدث له، أحضروا لي مقص الثياب.»

أكدَّ لهم الاستطلاع الأولي بأن الهنود لم يكونوا في فناء الدواجن، ذهب روبرت، واستغرق خمس دقائق قبل أن يعود وقد شحبَ لونه ومعه الكثير من الريش.

قال: «انتبهوا! هذا أمرٌ خطير للغاية، لقد قصصتُ الريش، وعندما استدرت لأخرج كان هناك هنديٌّ يحدِّق في وجهي من تحت قفص الدجاج القديم. كلُّ ما فعلته أنَّني لوَّحت له بالريش وصرخت، وفررتُ هاربًا قبل أن يتمكَّن من رفع القفص عنه، أنثيا أحضري لنا البطانيات المُلونة من أسِرَّتِنا، وكوني سريعةً بقدر الإمكان، هل يمكنكِ ذلك؟»

إنه لأمرٌ رائع كيف يمكنكم أن تصبحوا مثل الهنود الحمر ببعض البطانيات والريش والأوشحة الملونة، بالطبع لم يحدث أن أصبح لدى أي من هؤلاء الأطفال شعر أسود طويل، ولكن كان هناك الكثير من القماش القطني الأسود الذي كانوا يغطون به الكتب المدرسية؛ لذا صنعوا شراريب رفيعة من هذا القماش، وثبَّتوها حول رءوسهم بأشرطة كهرمانية اللون كانت في فساتين البنات المخصَّصة ليوم الأحد، ثم علَّقوا ريش الديك الرومي في تلك الأشرطة. بدا القماش القطني كالشعر الأسود الطويل جدًّا، خاصةً عندما بدأت الشرائط تتجعد قليلًا.

قالت أنثيا: «لكن ألوان وجوهنا ليست لائقة إطلاقًا، وجوهنا شاحبة كثيرًا، لا أعرف السبب، ولكن لون سيريل يشبه لون المعجون.»

قال سيريل: «لستُ كذلك.»

وقال روبرت في عجالة: «يبدو أن الهنود الحقيقيين في الخارج بنيِّي اللون، أعتقد أنه يتعيَّن علينا أن نكون حُمرًا حقًّا، فمن الأفضل أن يكون لديك جلدٌ أحمر، إذا كنت هنديًّا.»

كانت تلك المادة الحمراء التي استخدمتها الطاهية لدهان طوب المطبخ هي أكثر الأشياء احمرارًا في المنزل، خلط الأطفال بعضها في صحن مع الحليب؛ لأنهم رأوا الطاهية تفعل ذلك من أجل أرضية المطبخ، ثم لوَّنوا وجوه بعضهم البعض وأيديهم بعناية، حتى أصبحوا حمرًا تمامًا كما ينبغي لهندي أحمر، إن لم يكن أكثر احمرارًا.

لقد أدركوا في الحال أنهم حتمًا يبدون مرعبين للغاية فعندما التقوا إليزا في الطرقة، صرخَت بصوتٍ عالٍ، وسَرَّتهم كثيرًا هذه الشهادة التي لم يطلبوها، طلبوا منها بسرعة ألا تكون جبانة، وأن ذلك كان مجرد لعبة، ثم انطلق الأربعة ذوو البطانيات والريش والبشرة الحمراء تمامًا بجرأةٍ لملاقاة العدو، أقول بجرأة؛ ذلك لأنني أرغب في أن أكون مهذبةً، على أي حال، فقد انطلقوا.

كان هناك صف من الرءوس المُعتِمة، على طول سياج الشجيرات الذي يفصل بين البرِّية والحديقة وكلُّها كانت ممتلئة بالريش.

همست أنثيا قائلة: «إنها فرصتنا الوحيدة، ذلك أفضل بكثير من انتظار هجوم يُجمِّد الدماء في عروقنا، يجب أن نتظاهر أننا كالمجانين، مثلما تفعلون في لعبة ورق اللعب، عندما تتظاهرون بأن لديكم ورقة «آس» بينما لا تكون لديكم حقًّا. هذا يسمونه الخداع، على ما أعتقد، والآن هيا، هتاف!»

مع وجود أربعة من متوحشي الحرب الصارخين — أو ما يشبه ذلك — كما هو المتوقع من الأطفال الإنجليز إذا ذهبوا دون أي ممارسة سابقة — اندفعوا عبر البوابة وأدوا أربع حركاتٍ شبيهة بحركات الحرب في مواجهة خط الهنود الحمر، الذين كانوا كلهم تقريبًا في نفس الطول، وكان ذلك طول سيريل.

وقال سيريل بطريقته: «آمل أن يكون بإمكانهم التحدُّث بالإنجليزية.»

عرفت أنثيا أنهم قادرون على ذلك، رغم أنها لم تكن تعرف كيف عرفت ذلك، كان معها منشفة بيضاء مربوطة بعصا المشي. كان هذا بمثابة راية الهدنة، فلوحت بها، على أمل أن يعرف الهنود ما يعنيه ذلك، ويبدو أنهم عرفوا ذلك بالفعل؛ لأن الشخص الذي كان لونُه بنيًّا أكثر من غيره تقدَّم إلى الأمام.

قال بلغةٍ إنجليزيَّةٍ ممتازة: «هل تسعَوْن إلى انتصارٍ سريع؟ أنا النسر الذهبي، من القبيلة القوية التي تُدعى الصخرة.» قالت أنثيا — بإلهام مفاجئ: «أنا النمرة السوداء —

رئيسة قبيلة مازاواتي. إخوتي، لا أقصد ذلك، بل أعني قبيلتي، أقصد قبيلة مازاواتي، تنصب كمينًا أسفل حافة منحدر التل هناك.»

سألها النسر الذهبي، واستدار ناحية الآخرين: «ومَنْ هؤلاء المحاربون الأقوياء؟»

قال سيريل إنه القائد الكبير سنجاب، من قبيلة مونينج كونجو، ولما رأى أن جين كانت تلعق إبهامها ومن الواضح أنها لم تكن قادرةً على اختلاق اسم لنفسها، أضاف: «أما هذه المحاربة العظيمة فهي القطة البرية بوسي فيروكس، كما نسمِّيها في هذه الأرض، وهي زعيمة قبيلة فيتيزي المترامية الأطراف.»

استفسر النسر الذهبي فجأةً عن روبرت قائلًا: «ومَنْ يكون هذا الشجاع ذا الجلد الأحمر؟» لم يجد روبرت — الذي أُخِذ على حين غرة — إلا أن يرد بأنه بوبز، قائد شرطة الخيَّالة.

قالت النمرة السوداء: «والآن، إن قبائلنا، بمجرد أن نصفِّر لها، ستجدون أن أعدادها تفوق عدد قواتكم التافهة بكثير؛ لذلك لا فائدة من المقاومة، عودوا، إذن، إلى أرضكم، يا أخي، ودخِّنوا غليون السلام وأنتم ترتدون خرزاتكم مع زوجاتكم وكُهَّانكم، وارتدوا ملابسكم في أحسن أكواخكم المستديرة، وتناولوا ثعابينكم الطازجة بسعادة.»

تمتم سيريل بغضبٍ قائلًا: «لقد أخطأت في كل شيء!» لكن النسر الذهبي نظر إليها مستفسرًا فحسب.

وقال: «عاداتكم غير عاداتنا، أيتها النمرة السوداء، أحضري قبيلتكِ، لنأخذكم أسرى أمام أعينهم بما أنكم زعماء كبار.»

قالت أنثيا: «سنحضرهم في الوقت المناسب، ومعهم أقواسهم وسهامهم، وفئوسهم الحربية، وسكاكين السلخ، وكل شيءٍ يمكن أن يخطر ببالك، إذا لم تكونوا أذكياء بما فيه الكفاية لتغادروا.»

لقد تحدثت بقدْرٍ كافٍ من الشجاعة، لكن قلوب جميع الأطفال كانت تدق بشدة، وتحوَّلت أنفاسهم إلى شهقاتٍ قصيرة أكثر فأكثر. وبالنسبة إلى الهنود الحمر الصغار الحقيقيين فقد كانوا يحيطون بهم، ويقتربون أكثر فأكثر وهم يُطلقون زفراتٍ غاضبة حتى صاروا وسط حشدٍ من الوجوه الغاضبة القاسية.

همسَ روبرت قائلًا: «لم يُفلِح الأمر، كنت أعرف أنه لن يُفلِح، يجب علينا أن نهرع إلى عفريت الرمال، فقد يساعدنا، لكن إن لم يفعل ذلك، أعتقد أننا سوف نحيا مرة أخرى بعد غروب الشمس، وإنني لأتساءل ما إذا كان سلخ فروة الرأس يؤلِم بالقدْر الذي يزعمونه.»

قالت أنثيا: «سألوِّحُ بالراية مرةً أخرى، إذا توقفوا، فسنلوذ بالفرار.»

لوَّحت بالمنشفة، فأمرَّ الزعيم أتباعه بالتوقف، عندئذٍ، بدأ الأطفال الأربعة الركضَ بشدة تجاه أضعف نقطة في صفوف الهنود، فأوقع أول اندفاع لهم نحو ستة هنود قفز الأطفال فوق أجسادهم المغطاة بالبطاطين وانطلقوا نحو الحفرة الرملية، لم يكن هذا هو الوقت المناسب لسلك الطريق السهلة والآمنة التي تنحدر منه العربات، بل نزلوا مباشرة من أعلى حافة الحفرة الرملية، بين الزهور الصفراء والأرجوانية الباهتة والأعشاب الجافة، عابرين أعشاش سنونو الرمل الصغيرة، واثبين، متشبثين، قافزين، متعثرين، منبطحين، وأخيرًا متدحرجين.

برز النسر الذهبي وأتباعه تمامًا في نفس المكان الذي رَأَوْا فيه عفريت الرمال في صباح ذلك اليوم.

أصبح الأطفال البؤساء اللاهثون المهزومون الآن في انتظار مصيرهم، كانت السكاكين والفئوس الحادة تلمع من حولهم، لكن كان الأسوأ من ذلك هو الشرر الذي كان يتطاير من عيون النسر الذهبي وأتباعه.

قال النسر الذهبي: «لقد كذبتِ علينا، أيتها النمرة السوداء من قبيلة مازاواتي، وأنت أيضًا، يا سنجاب قبيلة مونج كونجو. وهذان أيضًا، بوسي فيروكس من قبيلة فيتيزي، وبوبز من شرطة الخيَّالة، كذبا علينا، إن لم يكن بلسانهما، فبصمتهما. لقد كذبتم حينما رفعتم راية الهدنة، ولا يوجد لديكم أتباع، فقبائلكم بعيدة للغاية عن هنا.» ثم قال وهو يلتفت بابتسامة ساخرة إلى أتباعه من الهنود الحمر الآخرين: «تُرى ماذا سيكون مصير هؤلاء؟»

صرخ أتباعه: «فلنشعل النيران؟» وفي الحال، شرع عددٌ من المتطوِّعين المتأهِّبين في البحث عن الوقود، وحُمِلَ الأطفال الأربعة، كل واحد منهم بين اثنين من الهنود الصغار الأقوياء، فألقوا بنظراتهم اليائسة فيما حولهم. أوه، كانوا يتمنَّوْنَ رؤية عفريت الرمال!

سألته أنثيا بيأس: «هل ستسلخ فروة رأسنا أولًا ثم تشوينا؟»

نظر إليها ذو البشرة الحمراء قائلًا: «بالطبع، ذلك هو ما نفعله دائمًا.»

شكَّل الهنود حلقة حول الأطفال، وجلسوا الآن على الأرض وهم ينظرون إلى أسراهم. سادَتْ حالةٌ من الصمت المخيف.

ثم ببطءٍ، عاد الهنود الذين ذهبوا للبحث عن الحطب مثنى وثلاث، خالي الوفاض، ولم يتمكَّنوا من العثور على عصا خشبية واحدة لإيقاد النار. في الواقع لا يمكن لأحد على الإطلاق أن يعثر على الحطب في ذلك الجزء من مقاطعة كِنت.

تنفس الأطفال الصعداء ارتياحًا، لكن الأمر انتهى بأنين من الرعب، من منظر السكاكين اللامعة الملوحة بالتهديد تجاههم. في اللحظة التالية، اقتيد كلُّ طفل على يد أحد الهنود؛ وأغلق كل واحد منهم عينَيه وحاول ألا يصرخ، منتظرًا آلام السكين الحادة، وهو ما لم يحدث. ففي اللحظة التالية أُطلقَ سراحُهم، فسقطوا وهم يرتجفون بشدة، ولم تتعرَّض رءوسهم لأذًى على الإطلاق. شعروا فقط ببرودة غريبة، بينما صيحات الحرب تدوي في آذانهم، وعندما غامروا بفتح أعينهم، رأوا أربعة من أعدائهم يرقصون حولهم ويقفزون قفزاتٍ وحشيةً ويصرخون، ويلوح كل واحد من الأربعة بيده التي كانت تحمل فروة من الشعر الأسود الطويل المنساب، وعندما وضعوا أيديَهم على رءوسهم، كانت فروات رءوسهم لا تزال على حالها، كان الهمجيون الأغبياء غير المُحنَّكين قد سلخوا فروات الأطفال فعلًا، لكنهم في حقيقة الأمر لم يسلخوا سوى الفروات الزائفة السوداء التي كانوا قد وضعوها على رءوسهم!

احتضن الأطفال بعضهم البعض، وهم ينتحبون ويضحكون.

هتفَ الزعيم: «فرواتهم صارت لنا، كم كان اقتلاع شعرهم المشئوم أمرًا يسيرًا! لقد اقتلعه المنتصرون بسهولة، دون معاناة أو مقاومة. لقد سلَّموا فروات رءوسهم إلى الغزاة من قبائل الصخرة! أوه، كم يكون الانتصار سهلًا عندما يكون السلخ بهذه السهولة!»

قال روبرت وهو يحاول أن يفرك الطلاء من على وجهه ويديه وشعره: «سيأخذون فرواتنا الحقيقية في الحال؛ لنحاول ألا نجعلهم يفعلون ذلك.»

واستكمل الزعيم أنشودته: «لقد استحقوا بخداعهم لنا عدالتنا وانتقامنا الناري، لكن هناك أساليب تعذيب أخرى غير سكاكين السلخ ولهيب النيران، على الرغم من أن النار البطيئةَ هي الطريقة المناسبة، يا لَه من بلد غريب غير طبيعي! حيث لا يجد الرجل حطبًا يحرق به عدوه! ما أكثر الغابات التي لا حدود لها في موطني، حيث تنمو الأشجار العظيمة على امتداد آلاف الأميال، لا لشيءٍ إلا لتزويدنا بالحطب اللازم لحرق أعدائنا، يا إلهي كم أتمنى أن نعود إلى غابات موطننا مرة أخرى!»

وفجأةً، وكوميض البرق، لمعَ الحصى الذهبي أمام أعين الأطفال الأربعة وحلَّ بدلًا من الأشخاص الداكنين، وتلاشى كل هندي حالما انتهى زعيمهم من كلمته، لا بد أن عفريت الرمال كان هناك طوال الوقت، وقد منح الزعيم الهندي أمنيته.

جلبت مارثا معها إلى المنزل إبريقًا عليه رسوم لقالق وأعشاب طويلة، كما أعادت كلَّ النقود إلى أنثيا.

قالت: «أعطَتْني ابنة عمي هذا الإبريق لجلب الحظ، وقالت إنه إبريق جميل غير أن الطست الذي يوضع به قد كُسر.»

تنهدت أنثيا واحتضنت مارثا قائلة: «أوه، مارثا، يا لكِ من غالية!»

ضحكتْ مارثا قائلة: «نعم، من الأفضل لكِ أن تستفيدي من وجودي طالما أمكنكِ ذلك، فسأقدِّم لوالدتكِ استقالتي حالما تعود.»

سألتها أنثيا بذعر: «أوه، مارثا، لم نكن سيئين معكِ لهذه الدرجة، أليس كذلك؟»

ضحكتْ مارثا أكثرَ من أي وقتٍ مضى وقالت: «أوه، ليس الأمر كذلك يا آنسة، بل لأنني سأتزوج «بيل» الحارس، لقد ظل يتقدَّم لخطبتي، منذ أن عدتم إلى المنزل مع رجل الدين عندما حُبستم في برج الكنيسة، واليوم وافقت، فطار قلبه فرحًا.»

أعادتْ أنثيا الأحد عشر بنسًا إلى صندوق الإرساليات، ولصقَت ورقًا على المكان الذي كانت قد فتحَت منه الصندوق، لقد كانت سعيدةً للغاية كونها استطاعت فعل ذلك، وهي لا تعرف حتى يومنا هذا ما إذا كان فتح صندوق الإرساليات أمرًا صائبًا أم لا.

الفصل الحادي عشر

الأمنية الأخيرة

بالطبع عندما ترون أن عنوان الفصل الحادي عشر الذي بين أيدينا هو الأمنية الأخيرة، تدركون أن اليوم الذي يتناوله هذا الفصل لا بد أن يكون اليوم الأخير الذي سيحظى فيه سيريل وأنثيا وروبرت وجين بفرصة الظفر بأي شيءٍ نافعٍ من عفريت الرمال.

لكن الأطفال أنفسهم لم يكونوا يعرفون هذا، فلقد كانت تملؤهم الأحلام الوردية، وفي حين أنهم في كثير من الأحيان وجدوا صعوبة بالغة في التفكير في أي شيءٍ لطيف يتمنَّونه، فإن عقولهم أصبحت الآن مليئة بأجمل الأفكار وأكثرها منطقية، وكما علقت جين لاحقًا «هذه دومًا هي أفضل طريقة.» استيقظ الجميع في وقت مبكر جدًّا من صبيحة ذلك اليوم، على أمل أن يناقشوا خطط الأمنيات هذه في الحديقة قبل الإفطار، كانت الفكرة القديمة المتمثِّلة في مائة جنيه من الفلورينات الحديثة (فئة من شلنين) لا تزال هي الأكثر تفضيلًا، ولكن كانت هناك أفكارٌ أخرى تُضاهيها منها بل وأهمها فكرة «مُهْر لكل منهم.» وكان لهذه الفكرة ميزة كبرى، فبإمكانك أن تتمنى الحصول على مُهْر كل صباح، وتمتطيه طوال اليوم، ويتلاشى هذا المُهْر عند غروب الشمس، ثم تتمناه مرة أخرى في اليوم التالي، وهو ما سيكون توفيرًا للإسطبل الذي ينام فيه المُهْر، ولكن في الإفطار حدث شيئان، أولهما، استلام خطاب من الأم، جاء فيه أن صحة الجدة قد تحسَّنت، وأن الأم والأب يأملان في العودة إلى المنزل بعد ظهر ذلك اليوم، فارتفعت الهتافات، وبطبيعة الحال، فإن هذه الأنباءَ بعثرت كلَّ الأفكار التي كانت تدور في بالهم قبل الإفطار، اعتقد الجميع بوضوحٍ تامٍّ أن أمنية اليوم يجب أن تكون شيئًا يسُر الأم لا أن يكون من أجل أنفسهم.

قال سيريل متفكرًا: «أتساءل عما يمكن أن يسعدها؟»

قالت جين بصرامة: «إنها تريدنا جميعًا أن نكون بخير.»

قال سيريل: «نعم، ولكن هذا ممل للغاية بالنسبة إلينا، وعلاوة على هذا، آمل أن نصبح كذلك بدون مساعدة عفريت الرمال، لا؛ يجب أن يكون ما سنتمناه شيئًا رائعًا، لا يمكننا الحصول عليه دون أن نتمناه.»

قالت أنثيا بنبرةٍ تحذيرية: «لا تنسوا ما حدث بالأمس، تذكَّروا أننا سنحصل على أمنياتِنا فورًا أينما كنا حالما نقول: «أتمنى» لا تجعلونا نضع أنفسنا في موقف سخيف كسائر الأيام.»

قال سيريل: «حسنا، لم تكوني في حاجة إلى كل تلك الثرثرة.»

حينئذٍ جاءت مارثا ومعها إبريق مليء بالماء الساخن لبرَّاد الشاي. كان وجهها يشي بمزيد من الاهتمام وهي متجهة نحوهم.

قالت بحزن: «إننا جميعًا في نعمة أننا على قيد الحياة ونتناول إفطارنا.»

سألها الجميع: «ماذا حدث؟»

قالت مارثا: «أوه، لا شيء، يبدو فقط أنه لا أحدَ في مأمن من القتل في فراشه هذه الأيام.»

قالت جين وقد انتابتْها حالة من الرعب سرت في ظهرها وساقَيها وخرجت من أصابع قدمَيها: «هل قُتِلَ أحدٌ في فراشه؟»

قالت مارثا: «حسنًا، ليس بالضبط، لكنه ربما يكون كذلك، كان هناك لصوص في «بيسمارش بليس»، أخبرني بيل بذلك، وقد سرقوا كل قطعة ماس وحجرٍ كريم وأشياء أخرى من السيدة تشيتيندين، وهي الآن تنتابها حالاتٌ متتابعة من الإغماء، تقول فيما بينها بصعوبة: «يا لماساتي!» حدث هذا بينما كان اللورد تشيتيندين قد سافر إلى لندن.»

قالت أنثيا: «السيدة تشيتيندين! لقد رأيناها، كانت ترتدي ثوبًا باللونين الأحمر والأبيض، وليس لديها أطفالٌ ولا يمكنها رعاية أشخاص آخرين.»

قالت مارثا: «تلك هي، حسنًا، لقد وضعت كلَّ ثقتها في الثروات، وأنتم ترَوْن كم كانت مُرفَّهة، يقولون إن الألماس والأشياء الأخرى كانت قيمتها تُقدَّر بآلافٍ مُؤلفة من الجنيهات. كانت لديها قلادات وأقراط وأساور لا حصر لها إضافة إلى عددٍ كبير من الخواتم. دعوني وشأني الآن. يجب ألا أقف هنا وأتحدث وأترك المكان برمته بحاجة إلى التنظيف قبل أن تعود والدتكم إلى المنزل.»

قالت أنثيا عندما انتهت مارثا من كلامها: «لا أفهم لِمَ كان عليها أن تحوز كلَّ هذا القدر الكبير من الألماس، لقد كانت إلى حدٍّ ما سيدة سيئة، وأمنا ليس لديها أي ألماس،

إنها لا تمتلك سوى القليل جدًّا من الحُلي، فهناك عِقد الأحجار الكريمة المُلونة، وخاتم الياقوت الذي أعطاها إياه والدنا عندما كانا مخطوبَين، ونجمة العقيق، والدبوس الصغير المُزخرف باللؤلؤ الذي فيه بعض من شعر جدِّنا الأكبر؛ هذا هو كلُّ ما لديها.»

قال روبرت: «عندما أكبر سأشتري لأمي ألماسًا لا نهاية له، سأجني الكثير من المال باستشكافه في أفريقيا، وسيكون كثيرًا لدرجة أنني لن أعرف ماذا سأصنع به.»

قالت جين حالمة: «ألن يكون الأمر ممتعًا، إذا تمكنت أمُّنا من العثور على كل تلك الأشياء الرائعة من قلائد وخواتم وأقراط وأزاور؟»

قال سيريل مصححًا: «أساور.»

«أساور، إذن وخواتم وكل شيءٍ آخر ثمين. أليس ممتعًا أن تجد كل هذا في غرفتها عندما تعود إلى المنزل؟ أتمنى أن يتحقق ذلك!» عندئذٍ حدَّق فيها الآخرون في رعب.

قال روبرت: «حسنًا، هذا ما ستجده أمُّنا، فقد تمنيتِ، يا جين الرائعة! وفرصتنا الوحيدة الآن هي العثور على عفريت الرمال، ولو كان في مزاجٍ جيد فقد يستطيع ألا يحقق لنا الأمنية وأن يحقق لنا أخرى بدلًا منها، وإلا، حسنًا، فالله وحده الذي يعرف ما نحن مقبلون عليه! الشرطة — بالطبع — ولا تبكي يا أيتها البلهاء! سنقف بجانبك، يقول أبي إننا يجب ألا نخاف أبدًا إذا كنا لم نرتكب خطأً وأن نكون صادقين دومًا.»

لكن سيريل وأنثيا تبادلا النظرات المتشائمة، فقد تذكَّرا كيف كانت الحقيقة الخاصة بعفريت الرمال غير مقنعة عندما أخبروا الشرطة بها.

لقد كان يومًا مؤذنًا بمحنة، وبالطبع لا يمكن العثور على عفريت الرمال ولا الحُلي، على الرغم من أن كلَّ واحد من الأطفال فتَّش غرفة والدتهم مرارًا وتكرارًا.

قال روبرت: «بالطبع لن نتمكَّن من العثور على الحُلي، فسوف تكون أمُّنا هي مَنْ يفعل ذلك، ربما ستظن أن تلك الحُلي كانت في المنزل لسنواتٍ وسنوات، ولن تعرف أبدًا أنها الحُلي المسروقة على الإطلاق.»

قال سيريل بنبرة تملؤها السخرية: «عندها ستتسلَّم أمُّنا بضائعَ مسروقة، وأنت تعرف جيدًا كيف أن هذا أسوأ.»

فشل بحثٌ آخر مضنٍ في الحفرة الرملية في الكشف عن عفريت الرمال؛ لذلك عاد الأطفال إلى المنزل على مهلٍ وهم يشعرون بالحزن.

قالت أنثيا بشجاعةٍ: «لا يهمُّني، فسوف نقول لأمُّنا الحقيقة، وهي التي ستُعيد المجوهرات وستجعل كلَّ شيءٍ على ما يرام.»

قال سيريل بتمهُّل: «هل تعتقدين ذلك حقًّا؟ هل تعتقدين أنها سوف تصدقنا؟ هل يمكن لأحد أن يصدق بوجود عفريت رمال ما لم يرَه؟ سوف تعتقد أننا نزعم ذلك، أو ستعتقد أننا أُصِبْنا بالجنون، وبعد ذلك سنُرسل إلى مستشفى المجانين، كيف ستشعرين عندها؟» ثم استدار فجأة تجاه جين البائسة «كيف سيكون شعورك وأنتِ محبوسة في قفصٍ حديدي ذي قضبان وجدرانٍ مُبطنة، ولا يمكنك فعل أي شيء سوى العبث بشعرك طيلة اليوم، والاستماع إلى صياحٍ وهذيان المجانين الآخرين؟ فكروا جميعًا في الأمر، لا جدوى من إخبار أمي.»

قالت جين: «ولكنها الحقيقة.»

قالت أنثيا: «بالطبع هذه هي الحقيقة، لكنها ليست حقيقية كافية لكي يصدقها الكبار، سيريل محق، دعونا نملأ كل المزهريات بالزهور، وحاولوا ألا تفكروا في الألماس، فبرغم كل شيء، عادت الأمور إلى نصابها في ختام كل المرات السابقة.»

وهكذا فقد ملئوا جميع الأُصُص التي وجدوها بالزهور؛ زهور النجم وزهور الزينيا والورود الحمراء التي أَتَوْا بها من فناء الإسطبل، حتى أصبح المنزل أشبه تمامًا بكوخ ريفي.

وبمجرد أن فرغوا من غدائهم، وصلت الأم، وعانقها ثماني أذرع مُحِبة، كان من الصعب جدًّا عدمُ إخبارِها بكلِّ شيءٍ عن عفريت الرمال على الفور؛ لأنهم اعتادوا على إخبارها بكل شيء، لكنهم نجحوا في ذلك، وكان لدى الأم من جهةٍ أخرى الكثير لتخبرهم به عن الجدة، وحَمَامات «الجدة»، وحمار الخالة «إيما» الأعرج، كانت مسرورة جدًّا بتعريشة الزهور المنزلية؛ وبدا كل شيء طبيعيًّا وممتعًا بعد عودتها إلى المنزل، حتى إن الأطفال أحسوا بأن عفريت الرمال كان مجرد حلم.

ولكن عندما تحرَّكت الأم نحو الدرَج صاعدةً إلى غرفة نومِها لتخلع غطاء رأسها، تشبَّثَت الأذرع الثماني بها كما لو أن لديها طفلين فقط؛ أحدهما الحَمَل والآخر أخطبوط.

قالت أنثيا: «لا تصعدي يا أمي الحبيبة، دعيني أحمل عنكِ متاعَكِ.»

قال سيريل: «أو يمكنني أن أفعل أنا ذلك.»

قال روبرت: «نريد منكِ أن تأتي وتنظري إلى هذه الورود الجميلة.»

قالت جين بلا حولٍ ولا قوة: «أوه، لا تصعدي لأعلى!»

قالت الأم بخفة: «هذا غير معقول، يا أعزائي؛ فأنا لست امرأةً عجوزًا بعدُ لكيلا أستطيعَ أن أخلع غطاء رأسي في مكانه المناسب، إلى جانب ذلك، لا بد لي من غسل يديَّ المتسختَيْن.»

لذا فقد صعِدَت، والأطفال في إثرها يتبادلون نظراتٍ خائفة.

خلعت الأم قُبعتَها، كانت قبعةً جميلةً جدًّا، حقًّا، عليها ورود بيضاء، وبعدما خلعتْها ذهبتْ إلى طاولة تصفيف الشعر لتصفيف شعرها الجميل.

وعلى الطاولة بين حامل الخواتم ووسادة الدبابيس، كانت هناك علبة من الجلد الأخضر، فتحتها الأم.

كان بداخل العلبة خاتمٌ، به لؤلؤةٌ كبيرة مُرصَّعةٌ بألماسات متلألئة، فصاحَت قائلة: «أوه، كم هو جميل! من أين جاء هذا؟» وهي تجرِّبه على إصبع زفافها، كان مناسبًا وجميلًا. قالت: «كيف بأي حال جاء هذا إلى هنا؟»

قال كلُّ طفل على حدة: «لا أدري.»

قالت الأم: «لا بد أن أباكم قد أخبر مارثا أن تضع ذلك هنا، سأنزل بسرعة وأسألها.»

قالت أنثيا، التي عرفت أن مارثا لن تتمكَّن من رؤية الخاتم: «دعيني أنظر إليه.» وعندما سُئلت مارثا — بالطبع — أنكرت وضع الخاتم هناك، وكذلك فعلت إليزا والطاهية.

عادت الأم إلى غرفة نومها، مهتمةً للغاية ومسرورةً بالخاتم، ولكن عندما فتحت درج طاولة الملابس ووجدت علبةً خشبية طويلة تحتوي على قلادةٍ ثمينة جدًّا من الألماس، أصبحت أكثر اهتمامًا، رغم أنها لم تكن سعيدة للغاية، وفي خزانة الملابس، عندما ذهبت لوضع «قبعتها»، وجدت تاجًا وعدة دبابيس زينة، ثم ظهرَت بقية الحُلي في أجزاء مختلفة من الغرفة خلال النصف ساعة التالية. بدا الأطفال أكثرَ انزعاجًا، كما بدأت جين تلهث.

نظرت الأم إليها بهدوء، وقالت: «جين، أنا متأكدة من أنك تعرفين شيئًا عن هذا، والآن فكري قبل أن تتحدثي وأخبريني بالحقيقة.»

قالت جين مطيعةً: «لقد عثرنا على عفريت.»

قالت والدتها: «هذا غير معقول، من فضلك.»

قاطعها سيريل قائلًا: «لا تكوني بلهاءَ يا جين.» ثم أكمل في يأس: «اسمعيني يا أمي، لم نرَ هذه الأشياء من قبل، لكن السيدة تشيتيندين في «بيسمارش بليس» فقدَت كلَّ حُليَّها على يد اللصوص الأشرار الليلة الماضية، فهل يمكن أن تكون هذه هي الحُلي المسروقة؟»

تنفَّسُوا جميعهم الصعداء، فقد نجوا.

سألت الأم وهي تحاول أن تعقل الأمور: «لكن كيف أمكنهم وضعها هنا؟ ولماذا؟ بالتأكيد كان من الأسهل والأكثر أمانًا لهم أن يهربوا بها بعيدًا، أليس كذلك؟»

قال سيريل: «لنفترض، ربما ظنُّوا أنه من الأفضل الانتظار حتى غروب الشمس وحلول الظلام، أعني، قبل أن يهربوا به، ولا أحد غيرنا كان يعرف أنكِ ستعودين اليوم.»

قالت الأم بحيرة: «يجب أن أُبلغ الشرطة على الفور، أوه، كم أتمنَّى لو كان أبوكم هنا!»

سألها روبرت: «ألن يكون من الأفضل أن ننتظرَ حتى يعود أبي؟» كان يعلم أن أباه لن يعود إلى المنزل قبل غروب الشمس.

صرخت الأم: «لا، لا؛ لا أستطيع الانتظار دقيقة أخرى وكل هذا هنا.» كانت تقصد بعبارة «كل هذا» كومة من حقائب الحُلي على السرير. وضعوها جميعًا في خزانة الملابس، وقفلتها الأم، ثم دعت مارثا.

قالت: «مارثا، مَنِ الشخص الغريب الذي كان في غرفتي منذ سافرت؟ الآن، أجيبيني بصدق.»

ردَّت مارثا: «لا أحد يا سيدتي، على الأقل، ما أودُّ قوله أن ...»

ثم سكتت.

قالت سيدتها بلطف: «هيا، أرى أن شخصًا ما دخلها، يجب أن تخبريني على الفور، ولا تخافي، أنا متأكدة من أنكِ لم ترتكبي أيَّ خطأ.»

تنهَّدت مارثا تنهداتٍ ثقيلة.

«لقد كنت عاقدة العزم على إخباركِ اليوم سيدتي، أنني سأغادركم نهاية هذا الشهر؛ وذلك لأني سأُسعد حياة شابٍّ مُهذَّب، إنه حارس صيد مُتمرِّس، سيدتي. ولن أُخفيَ عنكِ اسمه، إنه يُدعى بيل. ما أقوله صحيح مثلما أنا واقفة أمامكِ الآن، لقد كانت عودتكِ إلى المنزل في تلك العجالة، ودون إنذار، هي ما جعل قلبه يرق، ويقول: «مارثا، يا جميلتي ...» — كما يقول — وأنا لست كذلك ولم أكن قَط، لكنكِ تعرفين ما يقوله الرجال «لا أستطيع أن أراكِ تكدحين وتتعبين ولا أقدم لكِ يدَ المساعدة. إن ذراعي قوية وهي في خدمتك، يا مارثا العزيزة.» وهكذا ساعدَني في تنظيف النوافذ، لكنه كان بالخارج، سيدتي، طوال الوقت، وأنا بداخل المنزل؛ فلتُصِبْني اللَّعنة إن لم أكن أقول الصدق.»

سألتها سيدتها: «هل كنتِ معه طوال الوقت؟»

قالت مارثا: «كان بخارج المنزل أما أنا فكنتُ بالداخل، إلا في الوقت الذي ذهبتُ فيه لأجلب سطلًا من الماء النقي وقطعة قماش التنظيف التي كانت إليزا المهملة قد خبَّأَتْها خلف المجفِّف.»

قالت الأم: «هذا يكفي، أنا لست سعيدةً بما فعلتِه يا مارثا، لكنكِ قلت الصدق وهذا ما يهم.»

وعندما ذهبت مارثا، تَعلَّق الأطفال بوالدتهم من كل اتجاه.

قالت أنثيا وهي تبكي: «أماه الحبيبة، إنه ليس خطأ بيل، إنه ليس كذلك! إنه شخصٌ حنون ونبيل؛ هو كذلك حقًّا وهو في غاية الصدق، لا تجعلي الشرطة تقبض عليه يا أمي! أوه، لا، لا، لا!»

كان الأمر مُروِّعًا حقًّا؛ فهناك رجلٌ بريءٌ متهمٌ بالسرقة بسبب أمنية جين البَلْهاء، وكان من غير المجدي إطلاقًا قول الصدق، كانوا جميعًا يتطلَّعون إلى ذلك، لكنهم فكَّروا في تلك الأفعال المجنونة التي سينخرطون فيها وصرخات المجانين، فلم يجرءوا على فعل ذلك.

سألتِ الأم بانفعال: «هل هناك عربة في هذه الناحية؟ أو حنطور من أي نوع؟ يجب أن أركب إلى روتشستر وأُبلغ الشرطة في الحال.»

قال الأطفال وهم يبكون بشدة: «هناك عربة في المزرعة، لكن، لا تذهبي! لا تذهبي! أوه، لا تذهبي! انتظري حتى يعود والدنا إلى المنزل!»

لم تلتفتِ الأم لمناشدات الأطفال؛ فقد كان من طبعها أنها إذا عزمت على أمرٍ، شرعت في تنفيذه فورًا؛ كانت تشبه أنثيا كثيرًا في هذا الجانب.

قالت وهي تُثبِّت قبعتها بدبابيس طويلةٍ حادة ذات رءوسٍ بنفسجية: «اسمع يا سيريل، أتركك هنا مسئولًا بالنيابة عني. ابقَ في غرفة الملابس. تظاهر بأنك تُسيِّر قوارب في حوض الاستحمام، أو أي شيء من هذا القبيل. قل إنني أذنتُ لك بذلك لكن ابقَ هناك واجعل الباب الطابقي مفتوحًا، لقد أغلقت الباب الآخر، ولا تدَعْ أيَّ شخص يدخل غرفتي. تذكروا أنه لا أحد يعلم أن الحُلي موجودة إلا أنا وأنتم واللصوص الأشرار الذين وضعوها هناك. روبرت، يمكنك البقاء في الحديقة ومشاهدة النوافذ. إذا حاول أيُّ شخص الدخول، فعليك الجري وإخبار العاملَيْنِ اللذَيْن سأرسل إليهما كي يمكثا في المطبخ، وسأقول لهما إننا نتوقع قدوم أشخاصٍ خطرين، هذا صحيح بما فيه الكفاية. الآن، تذكرا، أنا أثق بكما، لكنني لا أعتقد أنهم سيحاولون ذلك إلا بعد حلول الظلام، لذلك أنتم آمنون تمامًا، إلى اللقاء يا أعزائي.»

وأغلقت باب غرفة نومها وانطلقت بعد أن وضعت المفتاح في جيبها.

استحوذَتِ الطريقة الجسورة والحاسمة التي تصرَّفَت بها على إعجابهم. لقد فكروا كم كانت أمهم ستنفعهم في الخروج من بعض المآزق السابقة التي وجدوا أنفسهم عالقين فيها مؤخرًا بسبب أمنياتهم غير المناسبة في توقيتها.

قال سيريل: «إنها قائدة بالفطرة، لكنني لا أعرف ما الذي سيحدث لنا، حتى لو ذهبت الفتاتان للبحث عن عفريت الرمال الوحشي ووجدتاه، وطلبتا منه أن يعيد الحُلي،

فإن أمَّنا ستظنُّ أننا لم نراقب الأمور كما ينبغي وتركنا اللصوص يتسلَّلون ويأخذون الحُلي، أو ربما تظن الشرطة أننا منهم، أو أن أمَّنا تخدعهم، يا له من قَدْرٍ عظيم من الفوضى هذه المرة، دون أدنى شك!»

لقد صنع قاربًا ورقيًّا وبدأ يجعله يطفو في حوض الاستحمام، كما قيل له.

وذهب روبرت إلى الحديقة وجلس على العشب الأصفر البالي، واضعًا رأسه البائس بين يديه قليلتي الحيلة.

تهامست كلٌّ من أنثيا وجين في الطابق السفلي، حيث كانتا تقفان على سجادة جوز الهند، التي بها فجوةٌ دائمًا ما يتعثَّر المرء بها ما لم يكن حذرًا، كان يمكن سماع صوت مارثا في المطبخ وهي تتذمَّر بصوتٍ عالٍ.

قالت أنثيا: «إنه ببساطة أمرٌ في غاية الرعب. كيف تعرفين إنْ كان كل الألماس هناك أيضًا؟ إن لم يكن هناك، فستعتقد الشرطة أن والدينا قد أخذاه، وأنهما تركا بعضًا منه فقط لصرف الانتباه عما أخذاه، وسيُودعان السجن. سنصبح أطفالًا منبوذين، سنصبح أبناء المجرمين.» ثم أضافت بعد تفكير عميق: «لن يكون موقف أبوينا جيدًا على الإطلاق.»

سألت جين: «لكن ماذا يمكننا أن نفعل؟»

«لا شيء، على الأقل يمكننا أن نبحث عن عفريت الرمال مرةً أخرى، فهذا يوم شديد الحرارة، وربما يكون قد خرج لتدفئة شاربه ذاك.»

قالت جين بنبرةٍ حاسمة: «إنه لن يحقِّق لنا أيَّ أمنياتٍ شريرة أخرى اليوم، وهو يزداد غضبًا في كل مرة نراه، أعتقد أنه يكره الاضطرار إلى تحقيق الأمنيات.»

كانت أنثيا تهز رأسها في حزنٍ شديد، لكنها الآن توقفت عن هزِّها فجأة فبدت وكأنها كانت تنصب أُذنَيها.

سألتها جين: «ما الأمر؟ أوه، هل فكرتِ في شيء؟»

صرخت أنثيا بتأثُّرٍ شديد: «لدينا فرصةٌ واحدة، الأمل البائس الوحيد المتبقِّي، هيا.»

هرولتا بسرعةٍ عَبْر الطريق المؤدِّي إلى الحفرة الرملية، ويا لسعادتهما! لقد وجدا عفريت الرمال هناك يتشمَّس في تجويفٍ رمليٍّ ذهبيٍّ ويهذِّب شواربه بسعادةٍ في شمسِ ما بعد الظهر المتوهجة، وفي اللحظة التي رآهما فيها، أسرع بالاستدارة وبدأ في الحفر؛ من الواضح أنه فضَّل البقاء مع نفسه عن صحبتهما، لكن أنثيا كانت أسرع منه، وقد أمسكت بكتفَيه المغطَّاتَين بالفراء، أمسكت بهما بلطف ولكن بحزم، وحملته.

قال عفريت الرمال: «كُفِّي عن هذا، اتركيني أذهب، هلَّا فعلتِ؟»

لكن أنثيا حملتْه بسرعة.

قالت بصوتها اللاهث: «عزيزي عفريت الرمال الطيب العطوف.»

قال: «نعم، كلُّ شيء على ما يُرام، أعتقد أنكِ ترغبين في طلب أمنيةٍ أخرى، لكنني لا أستطيع الاستمرار في العمل من الصباح إلى الليل على تحقيق أمنيات الناس. يجب أن أنعم ببعض الوقت من أجل نفسي.»

سألته أنثيا بلطفٍ وصوتها يرتجف من الانفعال: «هل تكره تحقيق الرغبات؟»

قال: «بالطبع أكره ذلك، دعيني أذهب وإلا فسأَعَضُّكِ، صدقيني سأفعل، أنا أعني ما أقول، أوه، حسنًا، لو اخترتِ المخاطرة بذلك.»

خاطرت أنثيا وظلت تحمله.

قالت: «انظر، لا تَعَضَّني، اسمع السبب، لو أنك فحسبُ حقَّقتَ ما نريده اليوم، فلن نطلب منك أيَّ أمنيةٍ أخرى أبدًا ما حيينا.»

تأثَّر عفريت الرمال كثيرًا.

وقال بصوتٍ باكٍ: «أنا على استعدادٍ لفعل أي شيء. بل أنا جاهز لتعريض نفسي لخطرٍ شديدٍ كي أحقِّقَ لكم أمنيةً تلو الأخرى، ما دمتُ أقدر على ذلك، لو أنكم عقدتم العزم على ألَّا تطلبوا منِّي تحقيقَ أمنيةٍ جديدةٍ أبدًا بعد اليوم. أنتم لا تدرون كم أكره أن أنفخ نفسي كما رأيتم لتحقيق أمنيات الآخرين، وكم يُخيفني هذا الأمر؛ إذ دائمًا ما تُصاب عضلاتي بالإجهاد، ثم أستيقظ كلَّ صباح وأنا أعلم أنني يجب أن أفعل ذلك مرةً أخرى، أنتم لا تعرفون كيف يكون هذا الشعور، لا تعرفونه، كلا.» كان صوته متصدعًا من التأثر، وخرجت منه كلمة «كلا» مُحدثة صريرًا.

وضَعَته أنثيا بلطف على الرمال.

وقالت بصوتٍ هادئ: «لقد انتهى الأمر الآن، نحن نعِدُك بصدقٍ ألا نطلب أبدًا تحقيق أمنيةٍ أخرى بعد اليوم.» قال عفريت الرمال: «حسنًا، هيا بنا، دعونا ننتهي من هذا الأمر.»

«كم من الأمنيات يمكنك تحقيقها؟»

«لا أدري؛ لكن أقول أستطيع تحقيق الأمنيات ما دمت استطعت الصمود.»

«حسنًا، أولًا، أتمنى أن تكتشف السيدة تشيتيندين أنها لم تفقد حُليَّها قط.»

أخذ عفريت الرمال نفسًا عميقًا فانتفخ ثم أرسله فعاد إلى حجمه، وقال: «قد تحقق.»

قالت أنثيا ببطءٍ أكثر: «أتمنى ألا تصل أمي إلى الشرطة.»

قال المخلوق بعد الفاصل الزمني المناسب: «قد تحقق.»

قالت جين فجأة: «أتمنى أن تنسى أمي كلَّ شيء يتعلق بالحُلي.»

قال عفريت الرمال ولكن بصوتٍ أضعف: «قد تحقق.»

سألتْه أنثيا باهتمامٍ بالغ: «ألا تود أن تستريح قليلًا؟»

قال عفريت الرمال: «بلى من فضلِك، وقبل أن نستكمل، هل يمكنكِ أن تتمنَّي شيئًا من أجلي؟»

«ألا يمكنك أن تحقق أمنياتك بنفسك؟»

قال: «بالطبع لا، لقد كنا نعتمد على بعضنا البعض في تحقيق أمنياتنا، هذا لا يعني أنه كان لدينا ما نتحدَّث بشأنه في الأيام المجيدة العتيقة للميجاثيريم، تمَني فقط، من فضلكِ، ألَّا يستطيع أحدٌ منكم أن يخبرَ أي شخصٍ عني.»

سألته جين: «لماذا؟»

«ألا ترين أنكِ إذا أبلغتِ الكبار، فلن أستريح على الإطلاق طوال حياتي، سيحتفظون بي، ولن يتمنوا أشياء تافهةً مثلما تمنيتم، لكنهم سيتمنَّون أشياء جادة حقيقية؛ وسيجد العلماء طريقة ما لجعل الأشياء تدوم لما بعد غروب الشمس — على الأرجح — وسيطلبون ضريبة دخل متدرجة ومعاشات للشيخوخة وحق الانتخاب للرجال ومجانية التعليم الثانوي، وأشياء مملة من هذا القبيل؛ سيطلبون الحصول عليها، والاحتفاظ بها، وسينقلب العالم كله رأسًا على عقب. تمنَّي ذلك وبسرعة!»

ردَّدت أنثيا أمنية عفريت الرمال، فنفخ نفسه إلى حجم لم يسبق لهم أن رأوه يبلغه.

وعندما عاد إلى حجمه الطبيعي قال: «والآن، هل هناك ما يمكنني أن أفعله لكِ غير هذا؟»

«شيءٌ واحد فقط وأعتقد أن هذا يزيح كلَّ شيء، أليس كذلك يا جين؟ أتمنى أن تنسى مارثا الخاتم الماسي، وأن تنسى الأم الحارس الذي تولى تنظيف النوافذ.» قالت جين: «كما في رواية القنينة النحاسية.»

«نعم، أنا سعيدة لأننا قرأنا تلك الرواية وإلا لم أكن لأفكر في الأمر.»

قال عفريت الرمال: «والآن، لقد بلغت مبلغي من الإنهاك، هل هناك أي طلبات أخرى؟»

«لا؛ نشكرك فحسب على كل ما فعلته من أجلنا، وآمل أن تنام نومًا هادئًا طويلًا، كما آمل أن نراك مجددًا في يوم من الأيام.»

قال بصوتٍ ضعيف: «هل هذه أمنية؟»

قالت الفتاتان معًا: «نعم، من فضلك.»

ثم — ولآخر مرة في هذه القصة — رأوا عفريت الرمال ينتفخ ويتضاءل مرة أخرى فجأة، ثم هزَّ رأسه لهم، وغمز بعينَيه، وحفر، واختفى، وهو يخمش بأظفاره إلى عمق الرمال، وتنهال عليه الرمال من فوقه.

قالت جين: «آمل أن نكون قد فعلنا الصواب.»

قالت أنثيا: «أنا متأكدة من أن ما فعلناه كان صائبًا، هيا بنا إلى المنزل لنخبر أخوينا.»

وجدت أنثيا سيريل عابسًا مع قواربه الورقية، فأخبرته، كما أخبرت جين روبرت. وبمجرد أن فرغتا من كلامهما، دخلت الأم وهي منفعلة ومغبرة، وأوضحت أنه أثناء ذهابها إلى روتشستر لشراء الملابس الخريفية المدرسية للفتاتَين، انكسر محور إحدى عجلات العربة، ولولا ضيق المسار وسياج الشجيرات الناعمة العالية، لسقطت من العربة. وبذلك هي لم تصب بأذى، لكنها اضطرت إلى المشي عائدةً إلى المنزل، قالت: «أوه، صغاري الأعزاء، كلُّ ما أتوق إليه هو كوب من الشاي! فليذهب أحدكم وينظر ما إذا كان ماء الغلاية يغلي!»

همست جين: «إذن، كما ترون فكل شيء على ما يرام، إنها لا تتذكر.»

قالت أنثيا التي كانت قد ذهبت لترى الغلاية: «لن تتذكر ما حدث أبدًا.»

وعندما جاءت الخادمة بالشاي، مرَّ بيل وهو في طريقه ليخبرهم بالأخبار السارة، وهي أن حُلي السيدة تشيتيندين لم تكن مفقودة، وإنما أخذها اللورد تشيتيندين معه ليعاد صقلها وتلميعها، وأن الخادمة التي كانت على علمٍ بالموضوع كانت في إجازة؛ لذا فقد كان كل شيء على ما يرام.

قالت جين بحزن عندما كانوا يمشون في الحديقة بينما كانت الأم تضع الحَمَل في فراشه: «أتساءل ما إذا كنا سنرى عفريت الرمال مرة أخرى.»

قال سيريل: «أنا متأكد من أننا سنفعل، إذا كنتِ تتمنين ذلك حقًّا.»

قالت أنثيا: «لقد وعدناه ألا نطلب منه أي أمنيةٍ أخرى أبدًا.»

قال روبرت بجدية: «وأنا لا أريد ذلك.»

لقد رأَوْه مرةً أخرى — بالطبع — ولكن ليس في هذه القصة، كما أن اللقاء كذلك لم يكن في حفرة رملية، بل في مكانٍ مختلف تمامًا، كان في … ولكن ينبغي عليَّ ألَّا أقول أكثر من ذلك.


هنداوي